

3389



W. Arthur Jeffery

GENERAL LIBRARY.



مجلد
احمد سکر یوسف
بالہسن

لو ٩

اسواق العرب

في الجاهلية والإسلام

تأليف

سعيد الأفغاني

طبع بنفقة

المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه دمشق

من الطبع للحوث

الطبعة الهاشمية دمشق

١٣٥٦ هـ : ١٩٣٧ م

HF

5475

.A41

A8

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث
رحمة للأولين والآخرين ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد سبق لمدينة دمشق ، أن أقامت سنة ١٩٢٧ م
معرضاً للثمار والفواكه افتتح يوم الاثنين الثاني عشر من تشرين
الثاني للسنة المذكورة ، دام خمسة أيام واشترك فيه (١٥٠٠)
عارض من مختلف بقاع الشام (سوريا) . وكان أثره في نهضة
الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً ، علم الزراع ما لم يكونوا يعلمون ،
وحمل إلى الناس ما تنتج أرض الوطن في مختلف الأماكن من
ثمار تتشابه في النوع وتباين في الصفة ، فأغنى الناس بعض الإغناء
عن رحلة زراعية واسعة في البلاد السورية ، ووفر عليهم زمناً
ومشقة وأموالاً ، وخطا في سبيل تعليم الجمهور خطوة ميمونة
العاقبة . ورأى فيه الزارعون من يعنى بهم ويريد لهم الخير واطراد

الرقى ، وتسابق فيه العارضون وفاز المعني بثماره منهم بجوائزه .
وزاره من الرجال والنساء والأطفال ما يزيد عددهم على الأحد
عشر ألفاً ^(١) .

ثم أقامت معرضاً ثانياً للصناعات الشرقية في المجمع العلمي
العربي (المدرسة العادلية في باب البريد) افتتح يوم الثامن من آذار
سنة ١٩٢٨ م ، خصصت الردهة الكبرى للآثار الشرقية الإسلامية
وقاعتان كبيرتان لعرض الصناعات الشرقية الحديثة ، ولم يسعف
الزمن القصير أن تشارك فيه مدن الشام فاقتصر على دمشق ،
وكان ما عرض فيه (٦٢٧) من القطع المنوعة من « السجاد
والنحاس والأخشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والصور
والأقمشة وكل ما هو من الفنون الجميلة » و « كان الإقبال على
معرض الصناعات فوق ما كان يرجى وذلك لتعطش الجمهور لمثل
هذه المظاهر الفنية والصناعية واهتمامه بالنهضة الاقتصادية . وقد
زار المعرض نيف وأربعون ألفاً في خلال ثمانية الأيام (٨ - ١٥
حزيران) التي ظلت أبوابه مفتحة فيها ، منهم ثلاثة عشر ألف
سيدة » و « كانت نتائج المعرض مرضية محسوسة ، شعر بها

(١) انظر التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض إلى وزارة الزراعة
والتجارة يومئذ .

من عرضوا مصنوعاتهم في القاعتين الخاصتين بالنفائس والاعلاق
النفيسة^(١) .

والمعرض الشامي الثالث كان للصناعات الوطنية ، أقيم في
صرح الجامعة السورية ، في شهر آب سنة ١٩٢٩ وعرض فيه مصنوعات
المناسج على اختلافها والمصابغ والمطابع والمدابغ والمطاحن والمزاييت
والمصابن عدا النفائس الشامية من القطع الخشبية والنحاسية
والمصوغات ، هذا إلى ما اشتهرت به دمشق من عمل (السكاكر)
والمربيات والزجاج . الخ وكان الإقبال على هذا المعرض أكثر
من سابقه لشموله أكثر صناعات الشام واشتراك مدن سوريا
الشامية . وقد تجلّت فيه مواهب العرب في سوريا واستعدادهم
للمساهمة في الصناعات العالمية . وقوي الأمل في أحفاد من أقاموا
بأيديهم وفكرهم وجهودهم ، المجد الصناعي لقرطبة وبغداد ودمشق
ومصر ، يوم لم تكن صناعة إلا صناعتنا ولا حضارة إلا ما تنعم
به الإنسانية على يدنا وبمسعانا .

وفي ربيع هذا العام (١٩٣٦ م) قامت الاستعدادات على قدم
وساق لإنشاء معرض عام يمثل ذكاء العربي وثقافته في جميع
المناحي . وقد وافق هذا التأهب كلياً من الزمان وحرراً من العدو ،

(١) انظر التقرير الخامس بأعمال لمجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨ ص ٣٨

وفقرًا عامًّا ومصيبة شاملة ، فكان الناس مشغولين بذوات أنفسهم
عما سواها ، فالسماء شحيحة ما تبض بقطرة ، والأرض مجدبة ما
تهتز عن خضرة ، والموارد ناضبة لا تسعف . وأجزاء البلاد يزجي
فيها السموم وتبت بينها العقارب ، حتى خبطتها فتنة عمياء تنكّر
فيها الساحلي للداخلي ، وتجهم العربي للعربي ، رغم الدم الصارخ
في عروقها من الفرقة ، الداعي لهما إلى الإلفة والاتحاد . وغدّى هذا
الشر أناس أقيموا ليهدوا الناس إلى الخير والأخوة والمحبة والسلام ،
فكانوا دعاة للشر وعمالاً على الإفساد والتفريق والشقاء . وجعلوا
من الدين الذي أنزله الله ليزيد الأواصر قوة والوشائج لمة ،
ويفيض على القربى والرحم محبة ورحمة ، وتعاونًا وعطفًا . . . جعلوا
من هذا الدين وسائل سافلة تستغل سذاجة العامي الغفل ، وتموه
عليه السم بالدم ، ليسعى إلى حتفه بظلفه ويقتل نفسه وأخاه معاً .
بهذا اشتغل الناس يومئذ وحق لهم الشغل والتفكير في هذه
القطيعة المجرمة ، إذ متى عاش رأس بلا جسم وهل استغنى قلب
عن ورید وشريان ، وأين شرع الله للجارين من جنس واحد أن
يعملا على شقائهما معاً ، ويسعيا إلى التعس السعي الحثيث ، ويزجا
بأعقابهما وذرايريهما من بعدهما في العذاب الأليم والانقراض المحتم .
ثم يُعملان في أبدانهما سلاحاً دسه العدو في أيديهما وهو يتربص

بكليهما الشر ليسود في دارهما وحده لا شريك له .
في غمرة هذه النزوات الطائشة ، وفي شدة مقاومة المقيد الذي
شعر أنه إنما يساق إلى الموت وهو أشد ما يكون تعشقا للحياة
وتمسكا بمجالها ، قام « معرض دمشق وسوقها » وأعلن في أقطار
الشرق موعد افتتاحه ! فاعجب إن كنت عاجبا لهذه الأمة
الكريمة التي تنبض عروقها قوة غريبة وحيوية عنيفة ، إنها لم
تشغلها مصيبة عن واجب : فما أهاب بها الداعي حتى هبت هبة
واحدة تنظم معرضها وتمده بكل ما في بقاع الوطن من تحفة فريدة
في بابها . وزحفت صناعات الشام تتمثل في المعرض للعالمين ،
وازدهى هذا المعرض بعقريه الوطن تتجلى في الفكر الخصب
واليد الصانع .

افتتح المعرض مساء الأحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة
١٩٣٦ م ، في مدرسة التجهيز الجديدة ، حيث أجمل بقعة في دمشق
وأزهرها وأحفلها بآثار العرب في القديم والحديث : فصروح الجامعة
السورية الحديثة وبناء دار الآثار ونزل « خوام » عن يمين بردى .
إلى جانب القباب الأثرية والمآذن الشاهقة ، تلك نفقك على نشاط
العربي ابن العصر العشرين وهذه تذكرك بعنفوان مجده في القديم .

ومن غريب الاتفاق أن تقوم معارض دمشق الثلاثة ، في المجمع العلمي العربي ، والجامعة السورية ومدرسة التجهيز : أكبر المعاهد العلمية وأعودها بالخير على البلاد ، لتشير في الناس أكثرين مزدوجين ، يرتبطان أشد الارتباط ، ولا ينفكان مرتبطين أبداً أو يفنيا معاً : عبقرية الفكر وعبقرية اليد . لا تقوم حضارة على علم وحده ولا على صناعة وحدها ، ولا بد من الاثنين معاً . وقد فهمنا هذه الظاهرة وأخذنا في العمل لتحقيقها ، وقطعنا في هذا أشواطاً نسأل الله أن يرفعها بعنايته حتى نبلغ بها الغاية .

* * *

وهناك اتفاق آخر فطن له كثيرون ، وعجبوا له العجب كله وهو افتتاح المعرض في ليلة ذكرى المولد النبوي ، في الليلة التي يستعيد فيها المسلمون ذكرى ما قدموا للإنسانية من نظم وحضارة وعدل وسعادة ، في الليلة التي ولد في مثلها قبل أربعة عشر قرناً ، خير طفل حملته الأرض ، وكان له يد ومنة على كل من نعم بسعادة وشمل برحمة وتمتع بعدل واغتبط بعرفان .

افتتح معرض دمشق وسوقها في مساء الليلة التي يقول فيها المسلم والعربي : كان منا هادي أفاض الرحمة على الإنسان والحيوان والجماد . . . فتفأل الناس خيراً وأيقنوا أنهم لا بد بادئون تاريخهم

من جديد وقد ولد ليلة المولد هذا المعرض ، وهو فاتحة مباركة في تاريخ بعثتنا الحديث إن شاء الله .

فإننا كما شرعنا نصل حلقات السلسلة التي انقطعت ، بجهادنا للحرية والحق ، والعدل والنور ، افتتحنا ليلتنا هذه بوصل حلقة مجدنا الصناعي والتجاري . وإن الإنسانية لتنتظر على أحر من الجمر ، وبفارغ الصبر ، الشعب الذي نعمت في ظلاله ليتبوأ مكانه من جديد ويقوم برسالته في هذا العالم الذي ملئ اليوم رذيلة وعسفاً ومادية . وإن انتعاش الشعب العربي انتعاش للخير والإنسانية ، ونصرته نصره للعدل والعمران ، وما كانت الإنسانية لتنسى الأمة التي كانت على عهدنا حقائق ملموسة فأصبحت اليوم طلاءً ودهاناً ، بل الإنسانية اليوم — إذا دققنا في حقيقة أعمال من يدعون حمايتها — شقاء باسم السعادة ، وظلم باسم الرحمة ، ووحشية باسم الحضارة ، ولصوصية باسم الحق ، ودناءة وحطة وإماتة ضمير وخذلان خلق وبهيمية . . . باسم التمدن . . .

...

كنت في هذا الجو من الغبطة والذكرى والتأثر ، لما استعرضت في ذهني حلقات تاريخنا وأين انقطعت كل حلقة ومتى عهدنا بوصلها . فكان أول ما جال في خاطري وأنا في معرض دمشق وسوقها :

أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، وكيف كانت تزخر بالناس من تجار وصناع ، وأدباء وشعراء وخطباء ، وساسة وأشراف ... عجبت لهذه الذكرى وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا - مع مراعاة الفارق بين الزمانين - وذكرت أن المجمع العلمي بدمشق سيقوم بمهرجان للمتنبي في آخر أسبوع من تموز ، وقد اختار لهذا المهرجان مكان المعرض وزمانه ، لتتم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافلهم فيها . فكملت بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما سيلقى فيها من أدب وشعر وعلم ، وبمن سيؤمها من العلماء والأدباء من المشرق والمغرب : عرباً وأجانب ومستشرقين . وأصبح من كان يتمنى أن ينعم بمראى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين ، فينظر كيف انقلب الزمن وكم قطعت الحضارة بين العكاظين من أشواط .

ولعل القارئ أحسن مما قدمت مقدار الحاجة إلى بحث يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والإسلام ، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم ، ليقف على شأنها في تاريخنا ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً . وما زالت هذه الأسواق تمتعد الذروة من اهتمام الأمم منذ كان اليونان وأولمبياهم وأعيادهم . وقد رغب إليّ من أَرْضَى رأيه أن

أسد هذه الثلثة في المكتبة العربية فعكفت على أمهات المصادر - وهي في موضوعنا هذا جد شحيحة - أنقب فيها وأفليها لأخلص منها بكل ما يفيدني في بحثي حتى تمت لي مادة هذا الكتاب الذي تنحصر بجهته بين عهد الجاهلية والقرن الثاني للهجرة . ولعل الله ييسر لي في المستقبل أن أصل هذا البحث عصرًا فعصرًا في أمصار العرب حتى عصرنا الحاضر .

ومن مارس التنقيب في مصادرنا العربية ، القديمة منها خاصة ، واطلع على ما تتركز به من كنوز مبعثرة هنا وهناك ، لا تجمعها جامعة ما ، عرف مقدار العنت والنصب اللذين يتعرض لهما الباحث ، ولا سيما في موضوع كهذا لم يعالج بعد . وأنا أعني القارئ من وصف ما لقيت من عناء فما أريد أن أمن عليه وحسي أن أكون في وجداني قد أبلغت نفسي عذرها .

وقد مهدت للكلام على الأسواق ببحوث رأيها لازمة ، وثيقة العلاقة بموضوعي كبيع الجاهلية ورباها وأسهمت في الكلام على قريش لأنهم في الحقيقة هم الفريق التاجر من العرب وحرصت كل الحرص أن أنقل القارئ إلى جو تلك الأسواق فيراها كما هي . سيكون في هذه البحوث أدب جم وتاريخ كثير كما فيها صناعة وتجارة ، وستعرض فيها عادات العرب في أسواقها ومجالسها

الأدبية وبلاغتها النثرية والشعرية ، حتى النحو سيكون له بعض النصيب لأن إحدى الأسواق كانت تقصد من أجل مادة يستعين بها النحو في تنظيم قواعده وتبويب فصوله .

وبعض هذه الحوادث والأخبار والأشعار التي سأعرضها — وإن كان مظنة أنه مصنوع — قد اجتهد صانعه أن يقلد فيحسن التقليد ويحاكي الأصل فإن شككنا في نسبة الخبر لم نشك أبداً فيما يدل عليه أو يستخلص منه . وذكرت من هذه الأحداث هنات جوزت لنفسي نقلها في هذا الكتاب مع نصريها بما يحتمل منه لأنها لا تتم الصورة إلا بها ولأني أحرص على أن يتمثل القارئ حالة الأسواق تمثلاً صادقاً صحيحاً كاملاً .

وقد عنيت بشرح ما يشكل من غريب أو معنى مغلق ، لأن لا أكون قد بلغت جهدي واستفرغت وسعي في الاجتهاد لأن يكون هذا العمل أقرب من كمال وأبعد من نقص . وأنا أشكر لمن أطلعني على عيب أو نهني لإصلاح ، فما يزال الإنسان بحاجة إلى من ينبهه ويصلح عمله .

والله المستعان ومنه الرضى والمثوبة .

غرة ربيع الثاني سنة ١٣٥٥ هـ و ٢ حزيران سنة ١٩٣٦ م

الباب الأول

شؤون العرب التجارية

بين الجاهلية والإسلام



تجارة العرب

لبلاذ العرب موقع جغرافي متوسط ، بين بلاد أعظم الدول وأقدم الحضارات . فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر ، وإلى غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند . ولا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن معظم تجارات العالم منذ القديم حتى القرون الوسطى هي بين هذه البلاد التي عددنا . فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعنا النفوذ والسيادة في العالم ، وهما فارس والروم كانتا على علاقات تجارية وسياسية مع بلاد العرب في الشمال والجنوب . وقل نحواً من ذلك في علاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين ، وإن كانت علاقة أضيق حدوداً .

وكان للمواصلات التجارية في جزيرة العرب طريقتان أحدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس برآ ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف في

أسواق الشام ، يمر التجار فيه على أسواق اليمن والعراق وتدمر وسوريا ويبيعون في كل قطر ما لا يكون فيه ويأخذون منه إلى غيره ما يروج فيه . والطريق الثاني وهو الأهم غربي يصل اليمن بالشام محتازاً بلاد اليمن والحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند في البحر .

وقد أطمع هذا الموقع الجغرافي لبلاد العرب كثيراً من الفاتحين فغزاهم الإسكندر فارتد عنها في غير طائل ، وطمع فيها قديماً ملوك الفرس وبابل ونينوى ومصر . والغريب أنها احتفظت بمكانتها هذه حتى العصر الأخير إذ بسط الإنجليز سلطتهم شرقي الجزيرة وغربها فملكوا « عدن » ميناء اليمن الطبيعي حيث ترسو السفن من الحبشة ومن الهند وملكوا العقبة « أيلة » محط رحال القوافل العربية في القديم وأول الثغور الرومانية التي يحملها تجار العرب ، ففازت إنجلترا بمناطق نفوذ على هذين الخطين التجاريين ضمناً لطريق الهند وتجارتهما .

كان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً ونساء ، وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من إحدى هاتين الطريقين ، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة فعمل

في هذه القوافل إما دليلاً وإما سائقاً أو منتظماً في جملة حمايتها
الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها .

ولم يبعد اسطرابون حين قال : « العرب تجار وسماسرة » .
وقد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينين ،
المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة ووصفت
ثروتهم وتجارتهن . وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب
أوروبا صادرات بلاد العرب والعراق والهند وكانت النفائس التي
يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك
القياصرة . ولما ازدهرت الدولة الميعينية في اليمن تعاطى أهلها
التجارة وساعدهم عليها امتداد نفوذهم حتى شواطئ البحر المتوسط
ومواني خليج العجم .

أما سبأ فليس مكان غناها وتجارته بالمجهول فقد ذكرت
التوراة أن ملكة سبأ « قدمت إلى سليمان (١٢٠) قنطاراً ذهباً
وأطيباً كثيرة وحجارة كريمة » وحسبك هذا دليلاً على وفرة
مالها وخيراتها . والسبئيون قديماً أغنى العرب ثروة وأوسعهم
تجارة ، يحملون ما يأتيهم من بضائع الحبشة والهند إلى مصر
والشام والعراق فبسطوا بذلك نفوذهم التجاري واستاثروا بالتجارة
بين تلك الأقطار المذكورة .

جاء في تاريخ العرب الأدبي (نيكلسون) ^(١) :

« قال مولر : قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين موافى بلاد العرب الشرقية وبين الهند ، محملة بالبضائع . وكانت منتجاته الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) تنقل إلى ساحل عمان ؛ ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم درية بالخليج الفارسي حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون فراغتها وأمرأها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسوريا ، وكانت القوافل تقوم من « شبت » في حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تعجه شمالاً إلى مكربة (مكة فيما بعد) وتظل في طريقها من بترأ حتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط . » وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحر على طول شواطئ حضرموت وخلال مضيق باب المندب . وكانت نتيجة هذا التغير — الذي يظهر أنه حدث في القرن الأول للميلاد — أن أخذت قوتهم تتضعع شيئاً فشيئاً . »

وحل محل هؤلاء ، الحميريون الذين جعلوا عرب الحجاز تحت

(١) ترجمة حسن حبشي في العدد (١٧٥) من مجلة الرسالة

سيطرتهم فاستخدموهم في نقل تجارتهم إلى أن تخلص الحجازيون
منهم وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبيل البعثة .

ولا بد لنا من التنبيه على عنصرين تجاريين عملا في بلاد
العرب وهما الأنباط واليهود فقد كان الأولون يختلفون بين بلاد
الشام والحجاز والعراق في الجاهلية . وكان أكثر ما يحملون
من بضائع الزيت والدرمك (دقيق الحواري ^(١)) « يحملونها من
الشام إلى الحجاز وإلى العراق ويرجعون من هذين القطرين
بالأدم والتمر وغيرهما من الحاصلات ، فكانوا يشاركون القوافل
العربية في تجارتها وقيمون لأنفسهم أسواقاً في البلاد العربية ذاتها
فابن سعد يذكر أن هاشماً في بعض أسفاره إلى المدينة « نزل
يسوق النبط فصادف سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . ^(٢) »
ولما كانت الفتوحات والغزوات قام الأنباط التجار بمهمة نقل
الأخبار بين الشام والحجاز .

وأما اليهود فقد « كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق
الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت
بعيد كأبي رافع الخيبري الذي أرسل بضاعته بواسطة القوافل

(١) الحواري : لباب الدقيق وكل ما حوّر أي بيّض من طعام .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٥ ، وانظر شرح المراهب ج ٣ ص ٢٣

إلى الشام واسنورد منها الأقمشة المختلفة . ويمكن أن يقال إن
تجارة البلع والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز .^(١) «
لكن شأن اليهود فاق شأن الأنباط لاستيطانهم في جزيرة
العرب فاستفحل أمرهم وزاحموا السكان الأصليين على مرافقهم
وكانت لهم خبرة في الزراعة والتجارة وتنمية المال فاستغنوا وبنوا
لأنفسهم القرى والمزارع والحصون وأشهر مراكزهم العامة في
المدينة وخيبر .

قام اليمينيون في القديم إذاً بنقل المتاجر بين بلاد العرب
والبلاد المجاورة وظل ذلك دأبهم على اختلاف دولهم في الأزمان
التي تقدمت القرن السادس الميلادي ، فاستأثروا بتجارة الجزيرة
مع غيرها من الممالك ، يحملون التمر والزبيب والأدم والبخور
والحجارة الكريمة والمنسوجات من مواطنها ثم يستبدلون بها بضائع
أخرى ، مع ما يصنعون هم أنفسهم من الأطياب والعطور التي
يتخذونها في بلادهم ويبيعونها في أسواق العالم القديم : آسيا وإفريقية .
وقد نشأت مع الزمن وسط هذه الطريق التي كثيراً ما
سلكوها قبل الميلاد ، محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكة
والمدينة . وعظم أمرهما وصار أهلهما يشاركون في الاتجار

قبائل اليمن . فلما كان القرن السادس انتقلت التجارة من أيدي
اليمنيين بالتدرج ، إلى قريش ، القبيلة المكية التي ارتفع أمرها
وقويت ونشطت وبدأت تحل محل الأولين في الاستئثار بتجارة
جزيرة العرب . إلا ما كان من تجارة فارس ، فإنها بقيت في
أيدي عرب الحيرة وهم يمانون .

كانت أقطار العرب غير متساوية في الخصائص والمرافق فبينما
تجد نجداً أرضاً قاحلة رملية لا زراعة لأهلها ، نجد في اليمن
مزارع خصيبة نفيز بالخير الواسع . ونجد بعض مدن الحجاز
كمكة تشبه نجداً في جديها وبعضاً آخر فيه مزارع ونخيل كالمدينة
والطائف وإن لم تكونا بدرجة اليمن قال الألوسي : « وأما
أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجارتهم كثيرة ومعاشهم
وافرة ، لما في بلادهم من الخصب والرخاء والدخائر المتنوعة
والمعادن الجيدة وغير ذلك من أسباب الثروة والغني . وأما أهل
نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة لما أن الغالب على
أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية
العيش ورواج التجارة . »

فلا بدع أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش
للحجازيين فعمكفوا عليها وتمادحوا بكسب المال وأخذوا يضربون

في الأرض يبتغون الرزق من هذه المهنة ، فعرفوا قبل الإسلام
بكثير ، كثيراً من مدن الشام كبصرى وغزة وأيلة والمشارف ،
ومدن العراق واليمن وحتى مصر فقد رووا أن نفراً من بني مالك
أجمعوا على الوفود إلى المقوقس وأهدوا له هدايا ^(١) وذكروا أن
ابن جدعان أتى مصر ببضاعة فباعها ورجع إلى عكاظ .
ولم يحاول انتزاع تجارتهم هذه منهم أحد ، إلا ما ذكروا من أمر
الحبشة التي أرادت الاستيلاء على مكة نفسها ، المركز التجاري
العظيم في جزيرة العرب . واشتهر كل قطر بما يصنع أو يصدر
من متاع فالسيوف والبرود لليمن قال الأصمعي : « أربعة قد
ملأت الدنيا ولا تكون إلا في اليمن : الورد والكندر ^(٢) والخطي
والعقيق » وقالوا « برود اليمن وربط الشام وأردية مصر ^(٣) »
ولعل ما ذكره الثعالبي من غنى الحجاز في الإسلام ، صحيح
إلى حد بعيد فيما كان عليه من قبل ، قال ^(٤) : « وكان يحمل من
مكة والمدينة والحجاز كل عام إلى السلطان من العنبر ثمانون
رطلاً ومن المتاع أربعة آلاف ثوب ومن الزبيب ثلاثمائة راحلة »

(١) طبقات ابن سعد

(٢) ضرب من العلك نافع لقطع البلغم جداً « القاموس »

(٣) ثمار القلوب ، ص ٢٤٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٢٦

وكان من أعجب ما يأتي النجاشي من مكة الأدم^(١) .
« ووصل المكيون قبيل الإسلام — عند ما كان العداء
بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — إلى درجة عظيمة في التجارة ،
وكان على تجارة مكة يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى
فيما يتفرون به — كالحرير — وحتى يستظهر بعض مؤرخي
الإفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها
الرومانيون للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب ،
كذلك كان فيها أحابش ينظرون في مصالح قومهم التجارية^(٢) . »
هذا وهناك بلدان اختصت بضرب من العروض أو الصناعة
فنقصد لما عرفت به كالتائف فإنه يحمل إليها الأدم فيدبغ فيها
قال الهمداني : « التائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ ،
يدبغ بها الألب الطائفية المعروكة^(٣) . » ثم يصدر عنها إلى
الحبشة وغيرها . وكهجر والبحرين حيث التمر الجيد المنقطع
النظير وكالشام ومشارفها حيث يحمل الزيت والزبيب والخمر وغيرها .
ومما ضمن استمرار الحركة التجارية الداخلية والخارجية في

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠٣

(٢) فجر الاسلام ص ١٥

(٣) الإكليل ج ٨ ص ١٢٠

جزيرة العرب ، اختلاف أقطارها هذا الاختلاف في المحصول
الصادر والوارد وما أحسن قول الهمذاني في ذلك :
« ولو لا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان
وأعطى كل إقليم من الأقاليم ، بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات
وذهبت الصناعات ، ولما تغرب أحد ولا سافر رجل ولتركوا
التهادي وذهب الشراء والبيع والأخذ والعطاء . إلا أن الله
أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين
ليسافر هذا إلى بلد هذا . ويستمتع قوم بأمتعة قوم ليعتدل
القسم وينتظم التدبير . قال الله عز وجل : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ
مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُجْرِيًّا » سورة الزخرف الآية ٣٢ ، وقال الله
تعالى : « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » سورة السجدة الآية : ١٠ .^(١)

لم يخفف الإسلام كثيراً من شغف العرب بالتجارة فقد
استمروا فيه على ما كانوا عليه في الجاهلية وإذا استثنينا فترة
الفتوح التي شغلتهم كانت أحداثهم التجارية في الإسلام امتداداً

لأحداثهم في الجاهلية مع مراعاة الظروف التي تغيرت كل التغير
وشغل القرشيون بالجهاد فكان منهم عمال ومنهم قواد ومنهم
قضاة الخ ٠٠ وخير ما يدلنا على بقاء ولوع القوم بالتجارة آية الجمعة :
كان المسلمون يجهزون العير إلى الشام — كما في الجاهلية —
فتذهب بأموالهم ومتاعهم فتباع هناك ثم تحمل إلى الحجاز فتأتي
المدينة ، وكانوا يستقبلونها بالطلل والتصفيق فرحاً بها فذكر
المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت
وطعام من الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة على
منبر مسجد المدينة ، فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول
والتصفيق ، وخشي المصلون أن يسبقوا إلى العير فيفوتهم الربح
فتركوا الرسول يخطب وبادروا إليها في البقيع ولم يبق مع
الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله تعالى في ذلك :

«وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا» الجمعة، الآية ١١

كان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية في طور
جديد فاهتم الإسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون
إليه وطفح الحديث بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون
والربا الخ ٠٠ وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة
بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام أبي بكر وعمر وعثمان ،

ولنلاحظ أن فترة الفتوح نفسها لم تكن لتخلو من الاتجار حتى من عمال الخليفة أنفسهم ، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم على حرفتهم ، واشتد عمر على عماله فلم يقبل منهم الاشتغال بالتجارة أبداً وصار يؤاخذ كل من فشا لهم غنى في قومهم فيدقق عليهم فإن اعتمدوا بتجارة تجروها فربحوا منها صادرهم ولم يلق لعذرهم بالاً ، وكأنه يقول لهم بعثكم عمالاً ولم أبعثكم تجاراً .

ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين وعمر تجر في الجاهلية واستغنى في غزاة ، وكان مبرطشاً [يكثرى للناس الإبل والحير يأخذ عليه جعلاً — تاج العروس] أما علي فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإسلام وهو صبي ومع هذا فقد كان على علم من التجارة وأحوالها لأنها مهنة قومه جميعاً ولما ولي الخلافة لم يكن يحل خطر التجار وقيمة التجارة . ومن الطريف حقاً أن نقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلى عامله الأشر في التجار والصناع فإنه يدل على إحاطته بأسرار التجار وأخلاقهم ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام ، قال من كلام له للأشتر :

« ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً »

المقيم منهم والمضطرب بآله والمترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع
 وأسباب المرافق وجلاها من المبادئ والمطارح ، في برك وبحرك ،
 وسهلك وجملك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها .
 فإنهم سلّم لا تخاف بائقته وصلاح لا تخشى غائلته . وتفقد أمورهم
 بجضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم
 ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات
 وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار
 فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه . وليكن البيع بيعاً
 سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تحجف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن
 قارف حُكْرَةً بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقبه من غير إسراف ^(١) .

* * *

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطره في الدلالة على ما شغلت
 التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة
 والأشعار والأمثال فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد ما كان عليه
 القوم من عادات وأحوال : وأول ما نلاحظ في هذا الباب غنى
 اللغة بالألفاظ التي تتعلق بالأسفار وما إليها من حط وترحال
 ونزول على الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها ولسنا

(١) شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد ج ٤ ص ١٣٩

مبايعين إذا قلنا إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع ، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة . ولما كانت الخلافة ، لم يجد العرب لفظاً يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة فاشتقوا لهذه الحال المستجدة كلمة من كلمات التجارة التي كانت الشغل الشاغل لهم . ونظرة واحدة إلى مادة « باع » مثلاً في اللسان أو التاج توضح لنا المواضع التي استعيرت لها هذه الكلمة لتشبه أحوالاً مختلفة بجال من حالات البيع والشراء فقالوا مثلاً : « بايعه بالخلافة » وأخذ منه البيعة ، وباعه من السلطان إذا سعى به إليه .. الخ .

وكذلك إذا نظرنا إلى مادتي « سام » و « سوق » وأمثال قولهم : نفقت السوق إذا راجت ، وانحملت إذا كسدت . وبعته ناجزاً بناجز ويداً بيد عدا ألفاظ أخرى سيمر بعضها بك حين الكلام على بيوع الجاهلية .

وهذا القالي قد عقد في أماليه فصلاً في « ما يقال في وصف الرجل لا يملك شيئاً » من مثل قولهم : ماله سبد ولا لبد

ومطلباً آخر فيما يقال « لمن يصلح المال على يديه ^(١) » كقولهم :
هو ترعية مال ، محجن مال .. الخ . واقرأ إن شئت الفصل الذي
كتبه في « دعاء العرب ^(٢) » فستجد جملاً كثيرة في حرمان من
يدعون عليه من ضروب المال .

أما الأمثال التي تتعلق بأمورهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة
وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجاربهم وأحوالهم في أسفارهم :
عند الصباح يحمد القوم السرى — لا تدرك الراحة إلا
بالتعب — قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها — أن ترد الماء
بماء أكيس — لا يرحل رحلك من ليس معك — إن يذم أظلك
فقد دمي خفي — إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .. الخ .
وأكثر من هذا ما أرسلوه في المال نفسه وفي السعي للرزق
وفي الربح والخسارة والبيع والشراء فإنهم يستعيرون ألفاظها لكثير
من أحوالهم كما في هذه الأمثلة :

الحمد مغنم والذم مغرم — خير مالك ما نفعتك — لم يضع
من مالك ما وعظك — خير المال عين ساهرة لعين نائمة — من
العجز نتجت الفاقة — كلب طواف خير من أسد رابض —
حظ جزيل بين شدي ضيغم — افتح صدرك تعلم عجزك — لا توسل

الساق إلا ممسكاً ساقاً — كستبضع القمر إلى هجر — ما عنده
خير ولا مَيَر — سواء هو والعُدْم — البضاعة تيسر الحاجة ومن
اشترى فقد اشتوى — إن الجواد عينه فراره — أعطاه اللقاء غير
الوفاء — أَحشفاً وسوء كيلة — أخسر صفقة من شيخ مهو —
صفقة لم يشهد لها حاطب . الخ .

أما الحث على السفر في طلب المال فقد استفاد في أشعارهم
جاهليين وإسلاميين ولست بحاجة إلى أن أشير إلى ما قالوا في
فوائد المال من حِكْم وما يصبون المال من حسب ويجلب من هيبة
فأمره معروف وما أكثر ما قالوا في هذا الموضوع من مثل قول
عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإنني رأيت الناس شرهم الفقير
وقوله :

دعيني أطوِّف في البلاد لعلمي أفيد غني فيه لذي الحق يحمل
وقول الآخرين :

سأعمل نص العيس حتى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحدثان ،
سأكسب مالاً أو أموت ببلدة يقل بها قطر الدموع على قبري ،
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترراً من المال يطرح نفسه كل مطرح ،
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تبس ذا يسار أو تموت فتعذرا . الخ .

بل مالنا لا نعلم إلى القرآن الكريم نفسه وفيه على ذلك أوضح الأدلة : يقرب لهم المعاني بما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الصلاة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها فهو يقول في المؤمنين المطيعين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة :
إِنَّهُمْ « يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ » فاطر ، الآية (٢٩) ويشبه الذين شغلتهم الصلاة عن الهدى بالخاسر في تجارته فيقول :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ »
البقرة ، الآية (١٦) « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ »
البقرة ، الآية (٨٦) « بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » البقرة ، الآية (٩٠)

ومدح آخرين سعوا في مرضاة الله فقال : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » البقرة ، الآية (٢١٧) ، وقال : « إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَتْمًا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبَشِرُوا بِلَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » التوبة ، الآية (١١٢)

ولأن التجارة والبيع أهم ما يشغل العرب لم يذكر الله غيرهما من المشاغل حين أثنى على أناس لا يغفلون عن ذكره فقال :
« رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » النور ،

الآية (٣٧) وقال في تأنيب الذين اشغولوا بالتجارة عن الصلاة :
« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا » الجمعة ، الآية (١١)

ولما أراد تشويق قوم إلى الإيمان قال :

« ... هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ :

تؤمنون بالله ... » الصف ، الآية (١٠ و ١١)

وكثيراً ما نتكرر كلمات التجارة والربح والخسران في القرآن .

وأحسب أن هذا القدر كاف في بيان الحيز الذي شغلقه

التجارة من حياة العرب في جاهليتهم وإسلامهم حتى إن صعصعة

ابن صوحان لم يذكر للعرب من الحرف غيرها . جاء في أمالي القاضي :

« قال معاوية لصعصعة بن صوحان : « صف لي الناس » فقال :

« خلق الناس أخياً : فطائفة للعبادة ، وطائفة للتجارة ، وطائفة

خطباء ، وطائفة للبأس والنجدة ؛ ورجرجة بين ذلك يكدرون

الماء ويغفلون السعر ويضيِّقون الطريق ^(١) . »

ولعلك تتساءل بعد هذا قائلاً : إن التجارة تستلزم الإماماً

بقيود وحسابات والعرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب فكيف

كان ذلك ؟ والجواب أن هذا الحكم على العرب حكم على مجموعهم لا

على جميعهم : فمنهم من كان يقرأ ويكتب ويحسب وقد تعلم القرشيون

(١) ج ١ ص ٢٥٧ والأخفاف الأخطاء والرجرجة شرار الناس وذرالهم

الكتابة منذ القديم في الحيرة والأنبار وكذلك فعل أهل الطائف
وسترى في أحداث عكاظ أن عمرو بن الشريد دعا فيها بصحيفة
وكتب وسجل على نفسه صكاً أشبه بسند التملك (طابو)
الذي نألفه اليوم . كان هناك إذن صحف وكتب وصكوك
عند العرب وعند اليهود بل إنا لنجد في آيات سورة البقرة
الأخيرة ما يجعلنا نذهب إلى معرفة العرب بتقييد المعاملات التجارية
وليس من المعقول أن يخاطبهم الله بشيء لا يألّفونه من الإماء
والكتابة بالعدل وإشهاد الشهود في قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ
أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ »
الخ .. البقرة الآية (٢٨٢)

هذا مجمل ما أردت أن أعرض له من بيان اهتمام العرب في
التجارة ، ولم أقصد فيه إلى شيء من التطويل لأن الكتاب ليس
في تاريخ تجارة العرب وإنما هو في أسواقها والتجارة أحد مواضيع
الأسواق ، وحسبها هذه الإلمامة الموجزة نهد بها قبل الشروع في
الموضوع لتتم لنا الصورة التي نريد أن يتمثلها القارئ مستوفاة
في غير نقص ولا زيادة .

بيوع الجاهلية

ألف العرب في جاهليتهم أنماطاً خاصة من البيع يتخذونها في أسواقهم . وهي في مجملها مما يثير استغرابنا ودهشتنا لأن أكثرها مما يُغبن فيه البائع أو المبتاع . ونصور لنا تلك البيوع ما كان عليه تفكير فريق منهم . ولا بد من التنبيه إلى أنها لم تكن تتخذ في جميع الأسواق بل منها ما تمتاز به سوق من سوق وجماعة من جماعة وإليك ما عثرت عليه من بيوعهم :

١ - الرمي بالحصاة :

ذكروا لهذا البيع صوراً كثيرة تجري في سوق دومة الجندل منها :

١ - أن يقول أحد المتبايعين للآخر : « ارم هذه الحصاة ، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم . » [الألويسي]

٢ - أن يقول البائع : « إذا رميت هذا الثوب بالحصاة فهو مبيع منك بكذا . » فيجعل الرمي بالحصاة نفسه بيعاً . «

[شرح مسلم] . أو يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول :
« أي شاة أصابتها فهي لك بكذا »

٣ - أن يقول : « بعثك من السلع ما تقع عليه
حصاتك » أو « بعثك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك »
[اللسان والناج]

٤ - أن يقبض المشتري على كف من حصى ويقول : « لي
بعدد ما خرج في القبض من الشيء المبيع . » [الألو سي]
٥ - أن يبيعه سلعة ويقبض على كف من حصى ويقول :
« لي بكل حصاة درهم . » [الألو سي]

٦ - أن يقول للمشتري : « بعثك على أنك بالخيار إلى أن
أرمي بهذه الحصاة فإذا نبذتها وجب البيع . » [الألو سي وشرح مسلم]
٧ - « أن يجتمع نفر منهم على السلعة يسامون بها صاحبها
فأيهم رضي ألقى حجره . »

وربما اتفق في السلعة الرهط فلا يجدون بداً من أن يشتركوها
وهم كارهون ، وربما ألقوا الحجارة جميعاً فيؤكسون صاحب السلعة
إذا تظاهروا عليه . »

انفرد بهذه الصورة الأخيرة المرزوقي في كتابه « الأزمنة
والأمكنة » (٢ : ١٦٢) وسماها إلقاء الحجارة بدلاً

من رمي الحصة ونص على شيوعها في سوق دومة الجندل .
أقرب هذه الصور إلى الرضى أن يكون رمي الحصة
إيذاناً بوجوب البيع وانقطاع الخيار . أما بقية الصور فهي من
بيع الغرر وهي إلى القمار أقرب وبه أشبه ، وقد عد الإسلام هذه
البيوع فاسدة كلها لما فيها من الجهالة والضرر بالبائع أو المشتري -

٢ - المنايذة :

ولهم في هذا النوع من البيوع ثلاث صور :

١ - أن تقول : « انيذ إلي الثوب أو أنبذه إليك وقد
وجب البيع بكذا وكذا » [القاموس] فيكون النبذ إيذاناً
بالبيع وقطعاً للخيار .

٢ - أن يرمي الرجل إلى الرجل بثوبه وينبذ الآخر إليه
ثوبه ولم ينظر واحد منهما إلى ثوب صاحبه فيكون ذلك بيعاً
عن غير نظر ولا تراض [شرح مسلم ٦ : ٣٥٦]

٣ - نبذ الحصة وقد تقدم

يقال في هذا البيع ما قيل في رمي الحصة وقد نهى الإسلام
عنه وأبطله .

٣ - الملامسة :

وهي على أوجه ثلاثة

١ — أن يأتي البائع بثوب مطوي ، أو في ظلمة فيلمسه
المسقام فيقول له صاحب الثوب : « بعتك بكذا بشرط أن
يقوم المسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . » [شرح مسلم]
فلا يقبل المشتري الثوب لا ليلاً ولا نهاراً .

٢ — أن يجعل المتبايعان اللبس نفسه بيعاً بغير صيغة . كما
تقدم في المنازعة ورمي الحصة .

٣ — أن يجعل اللبس شرطاً في قطع خيار المجلس وغيره .
وقد ألحق الإسلام هذه الصور بسابقتها وأبطلها ونهى عنها
فقد جاء في صحيح مسلم : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن بيعتين : الملامسة والمنازعة . »

وذكر الألوسي مع الملامسة الإيلاء والمهممة (وهي الكلام
الخفي وكل كلام معه بحج) وعلل اتخاذهم لها بخوف الحلف
والكذب . وهو طريف في الأقوال غريب .

٤ — المعاومة :

أو بيع السنين وهو أن يبيع ثمر الشجرة عامين أو ثلاثة أو
أكثر . وقد أبطله الإسلام لأنه من الغرر فهو بيع معدوم ومجهول
وغير مقدور على تسليمه وغير مملوك [شرح مسلم ٦ : ٣٦٨]

٥ - المزابنة :

هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلاً . وكذا كل
ثمر يبيع على شجر بثمر كيلاً وقد روى صاحب القاموس : « أنه كل
جزافٍ لا يعلم كيلاه ولا عدده ولا وزنه يبيع بمسمى من مكيل
وموزون ومعدود ، أو يبيع معلوم بمجهول من جنسه أو يبيع بمجهول
بمجهول من جنسه أو هي بيع المزابنة في الجنس الذي لا يجوز
فيه الغبن . » اهـ والمزابنة المدافعة وسمي هذا البيع مزابنة لأن
أحد المتبايعين إذا ندم زين صاحبه عما عقد عليه . وسيله في نهى
الإسلام عنه سبيل ما تقدمه لما فيه من الغرر .

٦ - المحافنة :

هي في الزرع على نحو المزابنة في التمر فيباع الزرع القائم
بالحب كيلاً .

٧ - المخابرة :

وهي - وإن كانت بالزراعة ألصق لأنها معاملة على الأرض
بعض ما يخرج منها من الزرع كالثلث ونحوه من الأجزاء
المعلومة - تتعلق بموضوعنا لأن أحد أعلام العربية فسرها تفسيراً
يجعلها بهذا الباب أشبه . جاء في شرح مسلم للنووي : قيل إن

المخابرة مشقة من الخبرة وهي النصيب وقال أبو عبيدة : هي النصيب من سمك أو لحم يقال تخبروا خبرة إذا اشتروا شاة فذبحوها واقتسموها لهما . وقال ابن الأعرابي : هي مأخوذة من خير لأن أول هذه المعاملة كان فيها اه . والذي يظهر أن ابن الأعرابي يشير إلى المزارعة لا إلى الاشتراك بالشاة الذي فسر المخابرة به أبو عبيدة ، لأن لأهل خير أرضين وعلماً بالزراعة .

٨ - من الحبل :

كان بيعاً يتبايعه أهل الجاهلية كان الرجل منهم يتباع الجوزور إلى أن تنتج الناقة وأحياناً إلى أن تنتج التي في بطنها فإذا نُجِبت حملها . فالجبل الأول يراد به ما في بطن النوق من الحمل . والثاني حبل الذي في بطون النوق .

فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا البيع . « وإنما نهى عنه للمعنين : أحدهما أنه غرورٌ وبيع شيء لم يخلق بعد ، وهو أن يبيع ما سوف يحمله الجنين الذي في بطن الناقة على تقدير أن تكون أنثى فهو بيع نتاج التاج . (والثاني) : أن يبيعه إلى أجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة وهو أجل مجهول ولا يصح » ^(١) والحبل بالتحريك جمع حابل .

(١) انظر شرح مسلم ٦ : ٣٥٩ ، والنهاية لابن الأثير

٩ - التصرية :

كان من عادة بعض العرب إذا أراد بيع شاة أو ناقة امتنع من حلبها أياماً فيحتفل اللبن في ضرعها فيعظم . فإذا كان ذلك منها عرضها للبيع فيظن المشتري أن كثرة لبنها واحتفال ضرعها عادة مستمرة لها فلا يلبث أن يتبين خطأه بعد شرائها . والتصرية الجمع يقال صرّى الماء في الحوض إذا جمعه . جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصرّوا الإبل والغنم ، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، فإن رضىها أمسكها وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمر . »^(١)

١٠ - السرار :

لم أجد هذا الضرب من البيع في جميع المصادر التي بيدي ، لم يذكره أحد غير المرزوقي بقوله : « وكان بيعهم بها (أي بعكاظ) السرار ، فإذا وجب البيع وعند التجار ألف رجل ممن يريد الشراء ولا يريدونه فله الشركة في الربح . »

وقد رجعت في هذه الكلمة إلى المعاجم التي في يدي وهي :
الصحاح ، تاج العروس (شرح القاموس) ، لسان العرب ،
المجمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية)

(١) شرح مسلم ٦ : ٣٦٠ ، البخاري (ليدن) ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧

الجمهرة لابن دريد ، الفائق ، أساس البلاغة ، النهاية لابن الأثير ، المصباح ، فلم أجِدْ أحداً تعرض لهذا الضرب من البيوع ثم تحرّيت في شروح الحديث وكتب الفقه مظنة أن أجِدَ فيها تعرضاً له في صدد كلامهم عن البيوع الفاسدة أو المنهي عنها فلم أظفر . إلا ما وجدت في محيط المحيط ولم أدر من أين استقاه فأنا أنقله هنا عنه قال :

« وبيع السرار أن تقول : أخرج يدي ويدك ، فإن أخرجت خاتمي قبلك فهو بيع بكذا وإن أخرجت خاتمك قبلي فبكذا ، فإن أخرجنا معاً استأنفا الإخراج ! ؟ »

١١ - التامز :

وهو البيع العام المعروف لجميع الناس بادين وحاضرين ، وذلك إذا كانت المبادلة يداً بيد وقد قالوا : يبيع السوق ناجزاً بناجز أي حاضراً بحاضر

جرى العرب في جاهليتهم على ما علمت من أنواع البيع التي تعرض أحد المتبايعين للغبن والضرر بلا مسوغ فلما أكرمهم الله بالإسلام رفع عنهم ضيم الجاهلية ونهاهم عن بيع الغرر بجميع صورته وأشكاله ليكون لكل من المتبايعين محض الاختيار

فلا يتم بيع إلا إذا كان واضحاً معلوماً للمتبايعين ، وبالرضى الكامل . ولقد تتبع الإسلام معاملات الجاهليين فأبطل كل ما فيه غش وضرر كما في بيع حبل الحبلَة وفي التصرية . وشرع لهم في التجارة واليوع ما ضمن خير الناس جميعاً بأنعمهم ومشتريهم ورفع عنهم الحيف الذي كان يحيق بهم مما اعتادوه في جاهليتهم . لم يقتصر الجاهليون في تجارتهم على ما قدمنا من يوع فاسدة وعادات ضارة . فلهم إلى ذلك مساوئ لا نقل قبجاً عما تقدمها : فمنها النجش وهو أن تواطئ رجلاً إذا أراد بيعاً أن تمدحه ، أو أن يريد الإنسان أن يبيع يباعه فتساومه بها بضمن كثير لينظر إليك ناظر فيقع فيها وكذلك في الأشياء كلها ^(١) .

ومن عاداتهم المكس وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية ويقال للعشار أيضاً صاحب المكس . والمكس لغة النقص ، والمماكسة في البيع انتقاص الثمن وانحطاطه ^(٢) . ولعل ذلك يكون بعد الاتفاق على ثمن معين أو نقد البائع ثمناً دون ثمن سلعته قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق إتاوة

وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وظاهر أن المقصود بالمكس أشبه بالضرائب التي تجبها
حكومات اليوم على البضائع .

وقد امتد تحكم تجار العرب إلى القوت الضروري فكانوا
يحتكرونه على الفقراء فيتلقون الركبان ويشترون منهم الطعام
وربما باعوه في مكانه قبل أن يبلغ السوق وقبل أن ينقلوه .
ومنهم من كان يشتري ويبيع لحساب أهل البادية فيلحق بهؤلاء
الضرر البالغ لجهاهم أمور التجارة ولأنهم في كل حال مغلوبون
على أمرهم ، بعيدون عما يباع ويشترى لهم ، ولعلمهم إن حضروا
البيع رفعوا عن أنفسهم بعض الحيف . فلما كان الإسلام نهى
عن جميع هذه المفاصد جملةً فقد جاء في صحيح البخاري ^(١) :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تَلَقُّوا الرِّكْبَانَ ، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، ولا
تَتَاجَسُوا ، ولا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ » ^(٢) « ولا تُصَرِّوا الغنم . ومن
ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، إن رضيها أمسكها
وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر . » وقد فسر ابن عباس قوله
(لا يبيع حاضر لباد) بقوله : لا يكن له سمساراً .

(١) طبع ليدن ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧

(٢) للحدث زيادة من رواية جابر : دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اشترى طعاماً فلا يبعه حتى يستوفيه ويتقبضه » قال ابن عمر : « وكنا نشترى الطعام من الركبان جزافاً (أي بلا كيل ولا وزن ولا تقدير) فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبيعه حتى ننقله من مكانه . »

ثم شرع لهم السهولة في المعاملة والتبيين في البيع كما في حديث : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما . »

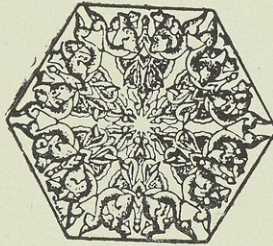
وهناك مبيعات خاصة لأهل الجاهلية حرّمها الإسلام وحرّم ثمنها ، أهمها الخمر ، فسيأتي أن الخمر من أهم ما كان يتجر به العرب وقد اشتهرت مدن معينة في الجاهلية بخمرها الطيب اللذيذ ولا مندوحة عن ذكر غزة وأذرعات وأندرين وهجر والحيرة . . . وغيرهن من البلدان التي تحمل خمرها قوافل العرب التجارية وقد قال الشاعر :

إذا ذقت فهاها قلت طعم مُدَامَةٍ
مُعْتَقَةٍ مِمَّا يَجِيءُ بِهِ الْعَجْرُ (١)

وهي مورد تجاري عظيم لم يكن يستغني عنه العرب فلما حرّم الله على المسلمين الخمر حرّم أيضاً ثمنها حسماً للداء فلا يجوز بيعها ولا شراؤها كما نهى عن ثمن بقية المحرمات في صحيح البخاري : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن . »

و « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ^(٣) » وعن عائشة قالت : « لما نزلت آخر البقرة قرأهن النبي في المسجد ثم حرّم التجارة في الخمر . » لكن التجارة الممقوتة التي يصم عارها بعض أهل الجاهلية هي البغاء : كانوا يؤجرون إماءهم للرجال ويأخذون هم ما يكتسب لهم جواريتهم من هذا الكسب المردول . واستمرت هذه العادة حتى جاء الإسلام وكانت الهجرة . ذكر المفسرون أن لعبد الله بن أبي بن سلول جارية ينال لها مسيكة ومُعَاذَة وكان يكرههما على الزنى الضريبة يأخذها منهما (وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية) . فلما جاء الإسلام قالت مُعَاذَة لمسيكة : « إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين : فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آتانا أن ندعه . » لكن عبد الله هذا قال لهما : « أرجعا فازنيا . » فقالتا : « والله

لا نفعل ، قد جاء الإسلام وحرم الزنى . « فأتى رسول الله صلى
الله عليه وسلم وشكنا إليه أمرهما فأُنزل الله هذه الآية :
« وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ
غَفُورٌ رَحِيمٌ . » سورة النور ، الآية ٣٣



ربا الجاهلية

لست هنا بصدد بيان الربا وأنواعه ومضارّه على التجارة
والعمران والأخلاق ، وما يعقب من خراب البيوت وتقويض
الأسر وفقدان الثروة والشقاء والدمار ، فذلك معروف أمره ،
مستوفى شرحه في مظانه من كتب الحديث والتفسير عدا ما يعاين
الناس في حياتهم من شروره على المرابين أنفسهم قبل غيرهم ،
فوادته نشاهدها في كل يوم بالعشرات . وإنما أريد الإشارة إلى
ما استفاض منه في الجاهلية حتى أتى الإسلام فاجتته من جذوره .
يرجح أن الذي أشاع الربا في جزيرة العرب هم اليهود
الطارئون عليها ، الذين اتخذوا من بعض قراها ومدنها مستعمرات
عالجوا فيها الزراعة فأصابوا منها الغنى ولم يكن لعرب الحجاز
فيها كبير نصيب . فكان العربي إذا أعوزه المال اقترض ورهن
عند دائئه درعه أو ثيابه أو سلاحه ، وأحياناً تشد به الحاجة
ويشتط الدائن فيرهن ولده .

إلا أن الربا لم يقتصر على اليهود ، بل ما زال ينتشر في مكة

والطائف وخير ووادي القرى ويثرب حتى ألفه الناس وصاروا يأخذون به ويعطون .

اشتهرت الطائف برباها ولعل هذه الشهرة كانت لمكان اليهود منها فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٦) أنه « كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية . . »

ويذكر المفسرون « أن أربعة أخوة من ثقيف كانوا يداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن عوف الثقفي ، وكانوا يرايون فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة . فقال بنو المغيرة : « والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله عن المؤمنين . » فاختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فكتب عتاب إلى النبي بقضية الفريقين وكان ذلك مالا عظيما فأنزل الله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . . » البقرة ، الآية (٢٧٨) هذا وقد كانت ثقيف صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع وثقيف هم أهل الطائف .

ولم تقتصر علائق أهل مكة مع أهل الطائف على المراجعة والتجارة بل كان لأهل مكة أملاك بالطائف يصلحونها ويستغلونها فقد « كان للعباس أرض بالطائف وكان الزبيد يحمل منها فينبذ بالسقاية للحاج وكانت لعامة قریش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها... وصارت أرض الطائف مخلافاً من مخالف مكة^(١) »

ومن مراجعة كتاب الصلح الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران نعلم أن غير اليهود لهم نصيب يحملونه من مر الربا هذا، فقد شرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به « ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة. » ولعل نصارى نجران كانوا قد باغوا من التعامل به مبلغاً صعب عليهم فيه تنفيذ هذا الشرط لما تأصل فيهم من اعتياده حتى استفحل أمره فيهم أيام خلافة عمر بن الخطاب وشاعت لهم أموال أفادوها منه وخاف عمر العاقبة فأجلاهم^(٢).

نسرب الربا إلى أهل مكة وتعاملوا به وعرف رجال منهم من أهل الشرف والرئاسة بتعاطيه كالعباس بن عبد المطلب وخالد

(١) البلاذري ج ١ ص ٥٦ (٢) المصدر نفسه ص ٦٦

ابن الوليد وعثمان بن عفان^(١) وغيرهم . ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فشوها قبحها فلم يترفع عنها أحد ، وكانت الضرورة والحاجة شر معوان على تعاطيه وبذلك انحصر الغنى في طائفة معينة وعم الفقر من عداهم .

بلغ اليهود في هذا الميدان شوطاً لم يلحقهم فيه لاحق قط ، لما تركز فيهم من الثراء وما حذقوا من حسن التأتي في تدمير أموالهم ، واستغلال الفقر والسذاجة في العرب فاعتقدوا الأرضين وبنوا الحصون ثم دأبوا في جمع المال وتنميته وإدائته حتى كثرت الرهائن عندهم واشتطوا في طلبها وافتنوا في تنويعها افتناناً شائناً فصاروا يرتهنون الأولاد ويطلبون النساء أيضاً ولا يرعون في سبيل المادة حلفاً ولا آصرة : جاء في سيرة ابن هشام (٣٤١ : ٢) أن أبا نائلة سلكان بن سلامة أتى أحد أشراف اليهود وأغنيائهم ، كعب بن الأشرف وكان أخاه من الرضاعة فقال له : « إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك . » فقال كعب : « أترهنوني نساء كم ! » قال : « كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم ؟ » قال كعب : « أترهنوني أبناء كم ؟ » قال : « لقد أردت أن تفضحنا ، إن

(١) انظر تفسير الخازن عند قوله « وذروا ما بقي من الربا » من سورة البقرة

معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم
وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه الوفاء . »

يريد أبو نائلة بقوله : « على مثل رأيي » : تضايقهم من مجي
الرسول والمسلمين ومزاحمتهم في بلدهم (المدينة) على العيش ،
فلينظر امرؤ كيف لم يشفع شيء عند كعب في سبيل المادة ،
لا مشايعة القوم له (ظاهراً) في هواه وعداوته لرسول الله ، ولا
أخوة الرضاة ، لا شيء إلا المال والرج ، المال وحده هو معبود
اليهود منذ خلقوا إلى يوم يبعثون .

هذا الغلو من اليهود في الربا وتعاطيه منذ القديم هو السبب
في تشنيع القرآن الكريم لفعلتهم وتعنينهم عليها حين يقول :
« فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
وَبَصَدَّيْهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ
وَآ كَلِمَةٍ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا » النساء الآية ١٥٨ ، ١٥٩

أتى الإسلام وطعمة كثير من الجاهليين ومأكلم من الربا
فامتنع قسم منهم من الاتجار لأن الربح قد حصل لهم بأخف
موؤنة وأيسر مشقة : فلا أسفار ولا تعرض لأخطار ولا جهد
ولا سعي . وكف أكثرهم بطبيعة الحال عن الإقراض بلا فائدة

واعتماد المدين إعطاء الربا راضياً ، غير واجد فيه غبنًا ولا شناعة
وقال كثير منهم : « سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح
أو عند المحل لأجل التأخير . » هونوا بذلك على أنفسهم ورأوا
البيع والربا سواء في الزيادة حتى أكذبهم الله وعنفهم أشد
تغنيف بقوله : « الَّذِينَ يَا كُلُّونَ الرَّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ
الرَّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرَّبَا » البقرة ، الآية : ٢٧٥

ولما حرّم الإسلام الربا جملة واحدة كان لا بد من تشريع
حاسم للعلاقات التي سبقت إسلام المتعاملين به والتي كانت لا يخلو
من الارتباط بها من كان يتعاطى التجارة وغيرها من شؤون
الكسب ووقف الناس إزاء مشكلة جديدة : هل يَمْضُونَ عقودهم
على ما عقدوا قبل الإسلام إذا حل الأجل أم يتقيدون بتعاليمه
فيحملون ما كان منها فاسداً حسب هذه التعاليم ؟ وإذا كان
الأمر الثاني فلا بد حينئذ من غبن يلحق الدائن . وقد عرضت
قضية من هذا الشكل فنزل الوحي بالحل القاطع :

ذكر الطبري في تفسيره : أن العباس ورجلاً من بني
المغيرة (لعله خالد بن الوليد المصرح به في تفسير الخازن) كانا
شريكين في الجاهلية ، سلفا في الربا إلى أناس من ثقيف وهم

بنو عمرو بن عمير فجاء الإسلام ولها أموال عظيمة في الربا .
وذكر الخازن أن عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب كانا
أسلفا في التمر فلما كان وقت الجُذاذ قال صاحب التمر لهما :
« إِن أَنْتَا أَخَذْتَا حَقَّكُمَا لَمْ يَبْقَ لِي مَا يَكْفِي عِيَالِي ، فَهَلْ لَكُمَا
أَنْ تَأْخُذَا النِّصْفَ وَتَوْخِرَا النِّصْفَ وَأُضْعَفَ لَكُمَا ؟ » ففعلوا ،
فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما .

وسواء أكانت الحادثة الأولى أم الثانية سبباً في نزول الآية ،
فإن من المعقول أن تتعدد الحوادث على هذا النسق لتفشي
المعاملات فيما سبق على الربا ، وحلول الآجال أجلاً بعد أجل ،
وتحير الدائن والمدين معاً بين إمضاء التعاقد السابق للتحريم أو
الإذعان والكف عما نهى الله عنه ، فقد نزل قول الله فاصلاً في
هذه المسائل وأشباهاها بهذا التشريع الحاسم الذي لا هوادة فيه :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمِجْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِنْ تَابْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »
البقرة الآية ٢٧٨ : ٢٧٩

فسمع العباس وخالد وعثمان وغيرهم وأطاعوا وأخذوا رؤوس

أموالهم . وكتب رسول الله ﷺ يجب عتَابًا عامله على مكة بهذه الآية وقال له في آخرها : « إن رضوا وإلا فآذنهـم بحرب »^(١)
هذا ما كان من الربا في الجاهلية عامة : يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء ، زاده وآخر عنه . إلا أن هناك رباً خاصاً كان من أثقل الأعباء على المعسرين وهو ربا الأضعاف الذي أشار القرآن الكريم إليه بقوله : « لا تأكلوا الرِّبوا أضعافاً مضاعفةً . الآية » آل عمران ، الآية ١٣٠ وذلك أن الرجل منهم في الجاهلية يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل وكان الذي عليه الدين ضائعاً لا يجد ما يؤديه به دينه قال صاحب المال : « زدني في المال حتى أزيدك في الأجل » . فيقول الآخر : « أخر عني دينك وأزيدك على مالك كذا » . فيفعلان ويكون الدين مئة فيصير إلى قابل مئتين مثلاً ، وربما حل الأجل الثاني والذي عليه الدين في إعساره ذاك ، لم يتخلص منه ، فيؤجله الدائن أجلاً ثالثاً ، ويزيد المال الذي عليه وربما فعلوا ذلك مراراً حتى تصير المئة بعد سنين مئات .

وذكر ابن حجر في الزواجـر ما يفيد أن ربا الجاهلية كان الإئساء فيه بالشهور ، وعلى ذلك يسهل علينا إدراك هذا التضعيف

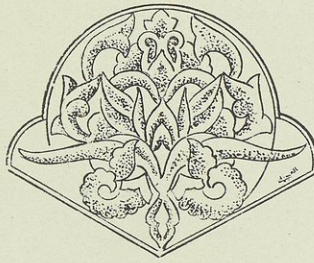
فيه قال : « وربما النسبئة الذي كان مشهوراً في الجاهلية ، لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدرًا معينًا ورأس المال باق بحاله ، فإذا حل الأجل طالب برأس ماله ، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل . »

ذلك تضعيفهم في العين (النقود) وأما تضعيفهم في السن ففي الإبل وقد شرحوا ذلك بما يأتي :

« إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول : (تقضيني أو تزيدني) فإذا كان عنده شيء يقضيه قضي وإلا حوَّله إلى السن التي فوق ذلك : إن كانت ابنة مخاض (وهي التي دخلت في السنة الثانية) يجعلها ابنة لبون (ما دخلت في الثالثة) في السنة ثانية ، ثم حنة (ما أتت عليها الرابعة) ثم جذعة (ما أتت عليها الخامسة) ثم رباعياً ثم هكذا إلى فوق . »

بدأت العلائق التي نشأت عن تعامل الجاهلية تضمحل بقاياها مع الزمن . وقد تشدد الإسلام بما يرتبط منها بالربا تشدداً حازماً ، وورد فيها من الوعيد والتهديد ما لا مجال لبسطه هنا .

وكان خاتمتها ما جهر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة
الوداع ، في خطبته البليغة الماثورة التي كانت فاصلة بين آثار
الجاهلية وبين عهد جديد ، والتي بين فيها أهم الأمور الجسام التي
يريد من أمته التمسك بها . وكان في طليعتها دون شك ، الربا فقال فيه :
« ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أبدى »
به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . »



المحلون والمحرمون والحمس

كان العرب يعظمون أمكنة خاصة وشهوراً معينة ، لا
يسفكون فيها دماً ، ولا يتجاوز بعضهم على بعض حتى يزيلوا
المكان الحرام ، أو ينتضي الشهر الحرام .
وكان من بعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر
الحرم ، فكانت سوق حُباشة وسوق صُحار في رجب ، وحضرموت
في ذي القعدة ، وعكاظ ومجنة وذو المجاز في ذي القعدة وذي الحجة ،
ومعلوم أن الأشهر الحرم أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة
والمحرم ، تضع فيهن العرب سلاحها فلو لقي المرء قاتل أبيه
ما وسعه التعرض له بسوء ، حتى إن تلقبهم رجب بالأصم ، لأنه
لا ينادى فيه : يا صبا حاه^(١) ولا يا لفلان ؛ فينقطع فيه صوت
الأسلحة . وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر
الحرام والبلد الحرام . ولهذا سمت العرب حروب قريش وهوازن

في عكاظ بحروب الفجار لفجورهم باقتتالهم في الشهر الحرام .
ولما ترصدت سرية عبد الله بن جحش عير قريش ، وكانت
تحمل زيباً وأدماً وتجارة من تجارتهم فيها عمرو بن الحضرمي ،
بنخلة بين مكة والطائف ، وظفرت بالعين وقتلت ابن الحضرمي
بعد أن هاب قوم الإقدام على القتل لأنهم كانوا في آخر يوم
من رجب ، وأقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين
وبأسيرين ، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ الخمس
وقال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام »^(١) . وسقط في أيدي
القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وغنهم إخوانهم من المسلمين
فيما صنعوا .

وأيقنت قريش أنها وقعت على ما تعيب به محمداً وأصحابه
عند العرب عامة لما انتهكوا من حرمة الشهر فجعلت تشيع قولها :
« قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ،
وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال » . وأكثروا من
ذلك لما فيه من تهيج العرب وتغيير قلوبها على صاحب الدعوة
وتصويرها له في صورة المستحل الذي لا يرعى حرمة للشهر
المحرم كما لم يرع من قبل حرمة آلهتهم . وتناست قريش ما كانت

صنعت مع النبي وأصحابه من إيذاء وتعنيف حتى اضطروهم إلى
الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة • ثم تناست ما عاملت به المستضعفين
من المسلمين من إقامة في الهجرة نصهرهم الشمس ، ومن إلقاء
الصخور عليهم ، وتهافتهم على هؤلاء ضرباً وإيلاماً حتى يفتنواهم
عن دينهم • ثم تنويعهم أساليب العذاب لهم ولأهلهم • فلما
أشفق المسلمون من صنيع سرية عبد الله بن جحش واستطالة
السنة قرّيش فيهم أنزل الله هذه الآية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ
كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۖ أَلَا تَعْلَمُونَ »

البقرة ، الآية ٢١٧ •

وقال عبد الله بن جحش يردّ على قرّيش :

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإننا وإن غيرتمونا بقتله	وأرجف بالاسلام باغ وحاسد
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب واقد

حمًا وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غل من القد عاند^(١)
قال المرزوقي : « كانت هذه الأسواق منها ما يقوم في الأشهر
الحرم ولا يقوم في غيرها ، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم
ويقوم في غيرها ، لكنه لا يصل إليها أحد إلا بخفير ولا يرجع
إلا بخفير . »

ولا يخفى أن الأمن من أوكد الأسباب في انتظام أمور
التجارة ، فلولا ما أخرج بائع بضاعة ، ولا نظاهر مشترٍ بملك
نقود . ومن هنا كان لقريش تلك الزعامة التجارية لأنها تسكن
الحرم حيث الأمن والسلم ، وحيث لا تحدث أحداثاً بنفسه بالبغي
والعدوان . فكانت تجارات العرب أروج ما تكون حيث
يستتب الأمن وتعم الثقة .

رعاية هذه الحرم على ما تقدم ليست مطردة على إطلاقها ،
بل هي كذلك في الأعم الأغلب ، إذ أن هناك قبائل معدودة
لا تعرف لهذه الحرمات حقاً ، فكانت تسفك الدم ولو في الشهر
الحرام أو البلد الحرام . علمت قريش أمر هذه القبائل فكانت

(١) ذكر ابن هشام أنها تنسب أيضاً لأبي بكر ، ومهما بقل في نسبتها
فإن فيها الجواب الطبيعي الذي لا يعقل إلا أنهم أجابوا به قريشاً .
واقف : هو ابن عبد الله التميمي الذي رمى ابن الحضرمي فقتله ؛ وعثمان بن
عبد الله : أحد الأسيرين ؛ والغل : ما يشد على العنق . والقد : السير من جلد .

تسلك في طريقها على القبائل التي تحفظ لها حرمتها فإذا وردت على من لا يراها تخفرت بخفي .

ونحن مدينون للعرزوقي الذي له الفضل بإطلاعنا على ما لقريش من منزلة سامية في نفوس قبائل العرب وخاصة الذين يكونون على طريقها ، كما علمنا منه القبائل التي لا تجتاز بها قريش إلا متخفرة . كانت قريش في خروجها من مكة قاصدة دومة الجندل إذا « أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع . وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجم عليهم حليف لمضري ، مع تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت . وكانت مضر تقول : قد قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا أبونا إسماعيل من الدين . وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم . فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيء فتعطيهم وتسلمهم على ما أرادوا لأن طيء حلفاء بني أسد . فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز لهم ذلك ربيعة كلها . »

هذا هو نظر أغلب العرب إلى قريش : تعظيم لهم واحترام لمكانهم من البيت ولأنهم سدتته والقائمون بأمر الحاج أيام

الحج . أذعنت لهم بذلك العرب وعرفوا لهم حقوقهم لأنهم قوام الدين الذي دان به العرب قبل الإسلام وهم لهم تبع . وقد استغل القرشيون هذه المكانة القدسية ، فضربوا في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً متاجرين ، لا يعرض لهم ولا لأموالهم أحد .

وكانوا بطبيعة الأمر مسيطرين على الأسواق الثلاثة الكبرى التي تقوم قريباً من مكة وهي عكاظ ومجنة وذو الحجاز . وفيها يجتمع أكبر حفل من بلاد العرب من جميع أطرافها لوقوع هذه الأسواق في أيام الحج وقريباً من أمكنته .

ويظهر أن قريشاً لم تكتمف بما لها من نفوذ في قبائل العرب بل أرادت أن تصبغ نفسها صبغة تمتاز بها منهم في الدين نفسه ، كأنهم طبقة خاصة تتمتع بحقوق ليس لغيرهم أن يتمتع بها ، ورمت من وراء ذلك إلى أن تتمكن هيبتها في نفوس الأعراب الغفل . أقصد بذلك ما يعرف في كتب السير بحديث (الحُمس) :

مادة (حمس) في اللغة تفيد الشدة والصلابة في الدين والقتال . تلتقت قريش بالحمس هي وأحلافها من كنانة وخزاعة وجديلة ومن تبعهم في الجاهلية ، وخلاصة هذا الحديث في بدعتهم تلك أنهم قالوا فيما بينهم :

« نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولادة البيت وقطآن مكة ،

فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف
 له العرب مثل ما تعرف لنا . فلا تعظموا شيئاً من الحِلِّ كما
 تعظمون الحَرَمَ . فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بجرمتكم
 وقالوا : قد عظموا من الحِلِّ مثل ما عظموا من الحَرَمِ . « فأجمعوا
 على هذا الرأي وتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها كما
 يفعل سائر العرب . وهم مع إقرارهم أن الوقوف بعرفة من
 مشاعر الحج ودين إبراهيم ، ومع أنهم يأمرون العرب عامة
 بالوقوف والإفاضة ، ابتدعوا لأنفسهم البقاء في الحرم واعتذروا
 لذلك بقولهم : « نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من
 الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحُصْنُ . » وجعلوا لأنفسهم
 حق تمييز غيرهم بما ميزوا به أنفسهم . ثم ترقوا في الامتياز
 فحرموا على أنفسهم اتقاط الأقط وسل^(١) السمن ما داموا حرمًا .
 كما حرموا الاستظلال بغير بيوت الأدم محرمين كما حرموا
 على أنفسهم أن يدخلوا بيتًا ما داموا محرمين . ثم حظروا
 على غيرهم الأكل من غير طعام الحرم ، فمن جاء بطعام من غير
 الحرم ، وكان حاجبًا أو معتمرًا حرم عليه الأكل منه . ولم

(١) سلاً السمن طبخه وعالجه ، والأقط : شيء يتخذ من الخيض

الغنمي وأقط الطعام : عمله به . « القاموس »

يقتصر تحكّمهم بغيرهم على هذا ، بل تعداه إلى الثياب فحجروا على كل إنسان من غيرهم الطواف بالبيت أول ما يقدمون إلا بثياب الحس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا عراة ، ومن طاف في غير ثياب الحس حرمت عليه بعد الطواف فألقاها ولم ينتفع بها قط . استغلوا سذاجة من حولهم من الأعراب لينفردوا بالحرمة والتقديس فيأمنوا بعدها على تجارتهم ويستفيدوا من هذا التمويه ثراء وبسطة عيش . فلما جاء الإسلام دكت الامتيازات كلها جملة واحدة ونزل قول الله لقريش :

« ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » البقرة ، الآية ١٩٩ .

فشعائر الدين بعد هذه الآية يدعن لها الناس جميعاً بلا تمييز .

واستوى في الحج القرشي وغيره بعد أن كانت قريش تنفرد دون جميع الحجاج إذا خرجوا من مكة يوم التروية وترووا من الماء ، فتنزل الحس أطراف الحرم من نَمرة يوم عرفة . وتنزل الحلة عرفة . وقد أجمع أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف مع الناس بعرفة في سنته التي دعا فيها قبل الهجرة ولم يقف مع الحس في طرف الحرم . فكان هذا مما جلب نظر الناس ، وروى ابن هشام عن جبير بن مطعم أنه قال : « أَضَلَّتْ بَعِيرًا فِي يَوْمِ عَرَفَةَ ، فَخَرَجْتُ أَقْصَاهُ وَأَتْبَعَهُ بَعْرَةَ إِذْ أَبْصُرْتُ مُحَمَّدًا

بعرفة ! فقلت : هذا من الحمس ، فما يقفه ها هنا ؟ افعجبت له ^(١) .
 تزيد قريش في دينها أو في ابتداعها على الأصح ، علم بعض
 العرب الاحتيال ، وما زال الدين - كما هي الوطنية في أيامنا -
 مبتلى بمكر المرتكبين والمحتملين ورواد المنافع . فكان إذا أحدث
 أحد العرب حدثاً وخاف على نفسه وجد في حرمة الشهر وحرمة الحرم
 خير معاذ يعتمد به من أن يناله القصاص . والظاهر أن أمثال
 هذه الحوادث تكررت حتى حلت من حياة العرب الاجتماعية
 محل العادات المستحكمة فقد ذكر الأزرق أنه كان « من
 سنتهم أن الرجل يحدث الحدث : يقتل الرجل أو يلطمه أو
 يضربه فيربط لواء من لواء الحرم قلادة في رقبته ويقول : « أنا
 ضرورة » . فيقال : « دعوا الضرورة بجهله وإن رمى بجمعه ^(٢) في
 رحله » . فلا يعرض له أحد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « لا ضرورة في الإسلام ، وإنه من أحدث حدثاً أخذ بحدته » ^(٣) . اه
 إذا أضفت هذه التزييدات إلى ما في نفوس العرب من نفرة
 للخضوع حتى للدين ، استطعت أن تستسيغ وجود قبائل تستهين

(١) انظر ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) اللواء ما على العود من قشر بالمد والقصر لغة .

(٣) الجعر ما يبس من العذرة .

(٤) اخبار مكة ص ١٣٢ .

بالحرمات وتجاهل مكان قريش فتراها كغيرها من سائر العرب
دماء وأموالاً ، بل تذهب أبعد من ذلك فلا ترعى حرمة شهر ولا
أيام حج . ومن هنا تخوَّف الناس بعض التخوف من ورود
الأسواق عزلاً ، ولو كانت مواسمها في الأشهر الحرم . فإن كنت
علمت أن عكاظ ومجنة وذا المجاز ، الأسواق الكبرى للعرب تقام
في الأشهر الحرم فاعلم أن الأمن فيها هو أكثر حالها والأغلب من
أيامها وأن ما وقع فيها من أحداث استحلَّت فيها حرمتها ، صادر
من لا يرى لها حرمة وهم أقلية قلما يقيم المؤرخون لها حساباً .

انقسم العرب إزاء حرمة هذه الأسواق أقساماً ثلاثة :

١ - فأما قسم فقد استحلوا المظالم فيها في أشهر الحج ، ففعلوا
المناكر وأحلوا الحرام وفتكوا وسرقوا ولم يحفظوا للمكان ولا
للشهر ولا لقريش حرمة ما ، فسموا [المحلِّين] لما استحلوا من الحرم
وهم قبائل من أسد وطي وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن
صعصعة " وأناس من خثعم وقضاعة . وغير هؤلاء أيضاً : ذوئبان
وصعاليك وخلعاء ، ممن نفاهم قومهم وتبرؤوا منهم .

٢ - وأما القسم الثاني فأقوام حفظت للمكان قدسه وللشهر
حرمة وللقوم على البيت منزلتهم ، فكفت عن الفتك والسرقة

وسائر المظالم وأنكرت على المحلين استخفافهم ، ونصبت أنفسها
لنصرة المظلوم وحقق الدماء ومنع الأذى فسموا بـ [الذادة المحرمين]
وهم أغلب العرب .

٣ - والقسم الثالث « أهل هوى شرعه لهم صلصل بن أوس
من بني عمرو بن تميم ، فإنه أحل قتال المحلّين ^(١) . » فيلبسون
سلاحهم ليدفعوا عن الناس أذى المحلين من الفريق الأول . وكان
في هؤلاء أيضاً قبائل من طيء وخثعم ، وناس من بني أسد بن خزيمه .
أما سائر العرب ممن لم نعد ، فهم في صف المحرمين : يضعون
أسلحتهم في الأشهر الحرم و « كان الرجل إذا خرج من بيته حاجباً
أو داجباً (والداج التاجر في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم
قلّد وأشعر ^(٢) فيكون ذلك أماناً له في المحلين . وكان الداج إذا
انفرد وخشي على نفسه ولم يجد هدياً ، قلّد نفسه بقلادة من شعر
أو وبر ، وأشعر نفسه بصوفة فيأمن بها . وإذا صدر من مكة
تقلّد من لحاء شجر الحرم . وكان الداج وغيره إذا أمّ البيت

(١) الأزمّة والأمكنة .

(٢) أهدى ساق الهدى وهو ما يهدى إلى الحرم من النعم . وأحرم دخل
بالحج . وقلّد من تقليد الهدى وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم
أنه هدى فيكف الناس عنه . وأشعر البدنة (الناقة) إشعاراً حزّ سنامها
حتى يسيل منه الدم فيعلم أنها هدى .

وليس له علم بذلك ولا هو في سبيل الحرم أخذ المحلون ما معه .
وكانت العرب جميعاً تنزع أسنتها في الأشهر الحرم ، غير المحلين
والذين يقاتلونهم ، فإنهم كانوا يقاتلونهم حتى في الأشهر الحرم .^(١)
خير تلك الطوائف الطائفة الثالثة التي نعتها المرزوقي بأنها أهل
هوى : إذ لا يكفي أن يكون الإنسان محرماً يرعى ذمام الشهر
والمكان كافاً أذاه عن غيره وهو ينظر إلى المحلين يسفكون الدم
الحرام وينهبون المال الحرام . ليس من البر أن يترك هؤلاء
وانتهاكهم ، بل البر كل البر أن يكون المرء محرماً ثم مدافعاً عن
المحرمين شر هؤلاء المعتدين . وبذلك تستأصل شأفتهم ويحسم ضرهم .
أما كف اليد والاعتصار عليه بينما العين تنظر مكان المستبشرين
ومدى أذاهم في الآمنين البريئين ، فإنه إن لم يكن إثماً لم يكن
براً وإن دان به أكثر العرب .

بقي أمر ، وهو أي الحرمتين العرب ، أكثر رعاية لها : الشهر
أم الحرم ؟ فإن المرء ليجب أن يعرف الواقع ليستطيع أن يتسم
فكرته عن مفاضلتهم بين الحرمتين . ومن يتتبع ما وراء الحوادث
يعرف أن العرب أرعى حرمة الحرم منها حرمة الشهر ولنا
على ذلك أدلة :

(١) الأزمنة والأمكنة .

١ - منها أن حرمة الحرم لا تكلفهم إلا رعاية مكان محدود مدة إقامتهم فيه فهي ميسورة لهم وقل أن حفظ التاريخ انتهاكاً لحرمة الحرم . وليس كذلك حرمة الشهر فإن أمد رعايتها طويل جداً وهو ثلث السنة فيجب عليهم أن يكفوا عن الاعتداء مدة أربعة أشهر في أي بقعة كانوا وهو قيد صعب على طبيعة العربي النفور من القيود

٢ - كثير من القبائل انتهكت حرمة الشهر ولم تجزؤ على انتهاك حرمة الحرم على حين أن ثأرها وشرفها - وأنت تعلم قيمتها عندهم - كانا يتقاضيانها غرض النظر عن حرمة الحرم . كان من هؤلاء القبائل قريش نفسها . فسيمر بك في حرب الفجار التي كانت بين قريش وأحلافها وبين هوازن وقيس وأحلافها ، أن القوم اقتتلوا بعكاظ في الشهر الحرام فاستووا جميعاً في انتهاك حرمة مع أن قريشاً هي القيمة على دين العرب بحكم مكانها من البيت . إلا أن قريشاً لما انسلت من عكاظ حين أتاها نبأ اعتداء أحد أحلافها على هوازني ، خوفاً من هوازن التي كانت متكاثرة في السوق ، علمت هوازن بالأمر فاتبعت قريشاً فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت عنهم هوازن رعاية الحرم . فهم جميعاً يرون للحرم من الرعاية مالا يرون للشهر .

٣ - للعرب أساطير تقص العقاب الشديد الذي نزل بمن لم يبال حق الحرم ، وليس لهم في قوتها أساطير تعاقب من انتهك حرمة الشهر . وقرأ إن شئت حديث إساف ونائلة ^(١) اللذين مسخا صنمين لأنهما لم يحفظا للبيت حرمة وقرأ إن شئت الأحداث التي يرويها ابن هشام (١ : ١٨ فما بعد) في ذلك والأشعار ، وكلها متضافر في بيان تعظيم حرمة البيت والعقاب الشديد الذي حل بمن أراد انتهاكها .

٤ - أمر النسبي وهو تلاعب محض بالتقاليد التي تخص الشهر ، ولم يؤثر لهم مثله ولا قريب منه فيما يخص الحرم . جاء في أمالي القاضي : [أنهم كانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال : « أنا الذي لا أعاب ولا يرد لي قضاء . » فيقولون له : « أنسنا شهراً » أي أخر عنا حرمة الحرم فاجعلها في صفر . وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر (ذو القعدة وذو الحجة والحرم) لا تمكثهم الاغارة فيها . لأن

(١) في كتاب الأصنام للكبي : أن إساف رجل من جرهم يقال له إساف ابن يعلى ، ونائلة بنت زيد من جرهم وكان يمشقها في أرض اليمن ، فحبا فدخلوا الكعبة ، فوجدوا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجر بها فيه ، فسخا . فأصبحوا فوجدوها ممسوخين فوضعوهما ليتعظ بهما الناس . فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها . ثم صارت قريش تنجر عندهما النسائل

معاشهم كان من الإغارة : فيحلّ لهم (نعيم بن ثعلبة) المحرم ويحرم عليهم (بدلاً منه) صفرًا ؛ فإذا كان في السنة المقبلة حرّم عليهم المحرم وأحلّ لهم صفرًا ، فقال الله عز وجل : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ . ١٠٠ الآية » التوبة ، الآية ٣٨ وقال الشاعر :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحِلِّ نجعلها حرامًا ^(١)
هذا وقد وقر في نفوس العرب « أن مكة لا تقر فيها بغيًا ولا ظلمًا ، لا ينبغي فيها أحدٌ إلا أخرجته ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه ^(٢) . » وذهب الزرقاني إلى أنها سميت (بكة) لأنها تبك (تدق) أعناق الجبابرة .

فللحرّم في صدورهم رهبة لا يدانيه فيها غيره .
رأيت أن اسم الحرم الذي تُضاف إليه قریش ، كان خير حارس لتجارته وغيرها . تسير بفضل أمّنة مطمئنة ، تتمتع بالرعاية والحرمة إلى اليمن وإلى العراق وإلى الشام .
وقد ذكر النيسابوري في تفسيره (عند الكلام على الإيلاف)

(١) ١ : ٤ طبع دار الكتب المصرية

(٢) شرح المواهب ١ : ٩٢

أن أشراف مكة لما كانوا يرحلون للتجارة في الشتاء والصيف كانوا
« يأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة
والثياب . وإن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون : هؤلاء
جيران بيت الله وقطان حرمه ؛ فلا يجترئ عليهم أحد . » وظاهر
أن المقصود بملوك النواحي أمراء العرب في اليمن والعراق والشام .
فإن هؤلاء هم الذين يعظمون البيت ؛ لا قيصر وكسرى .
هذا مكان قریش من العرب في الأعم الأغلب ، ولا حكم للنادر .
ولو لم يكن ذلك مستتباً لقریش ما كان هناك من معنى لسعي هاشم
في طرق أبواب الأسواق الخارجية يفتحها لقبيله ، بينما تجارته المحلية
غير آمنة . فهو وإخوته ما شرعوا بمفاوضاتهم التجارية مع دول
الرومان والفرس واليمن والحبشة إلا وقد فرغوا من الاطمئنان إلى
الطرق الموصلة إلى هذه الممالك .

الباب الثاني

أحداث قريش التجارية

- ١ - قريش النجار ج - حلف الفضول
ب - إيلاف قريش د - حرب الفجار



١ - قريش التجار

- ١ -

في سبب تسمية هذه القبيلة قريشاً أقوال مشبوتة في كتب السيرة والأدب تبلغ العشرين عدداً . أما القرش في اللغة فهو الجمع وإليك زبدة هذه الأقوال :

١ - سموا قريشاً لتجمعهم إلى الحرم بعد نفرقهم في البلاد ، وذلك حين غلب على مكة قصي بن كلاب الذي سمي مجمعاً لذلك ، وقال فيه الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر
٢ - أو لأنهم كانوا أهل تجارة وتكسب وضرب في البلاد
ابغاء الرزق ، يتقرشون البياعات فيشترونها ولم يكونوا أهل
زرع وضرع : من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه .

٣ - أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلعتها : فمن
كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ، ومن كان معدماً

واسوه ، ومن كان طريداً آووه ، ومن كان خائفاً جموه ، ومن
كان ضالاً هدوه الخ ..

٤ — أو لأن أباهم النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً
فقالوا نقرش .

٥ — أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا : كأنه جمل قریش أي شديد .

٦ — أو لأن قُصياً كان يقال له القرشي .

٧ — أو سميت القبيلة بمصغر القرش وهي دابة بحرية تخافها
دواب البحر كلها ^(١) .

٨ — أو سميت بقریش بن يَمْلُذ بن غالب بن فهر وكان
صاحب عيرهم أو دليلها ، فكانوا يقولون : قدمت عير قریش ،
خرجت عير قریش ^(٢) .

(١) نسبوا هذا القول إلى ابن عباس . جاء في خزنة الأدب ١ :
١٨٩ (السلفية) :

(سأل عمرو بن العاص عبد الله بن عباس : بم سميت قریش ؟ قال :
« بدابة في البحر تسمى قریشاً ، لا تدع دابة إلا أكلتها ، فدواب البحر
كلها تخافها . » قال المشعر بن عمرو الحميري :

وقریش هي التي تسكن البحر سر بها سميت قریش قریشاً) اه
وكان هذا البيت تعريف لغوي منظوم كما تنظم المتن . والله أعلم .

(٢) انظر مادة قریش في القاموس وشرحه وفي لسان العرب وخزنة
الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية) .

فهذه ثمانية وجوه في هذا الاسم . وكل وجه منها معه شفيع
من معنى أو مناسبة ، ينفذ به إلى القبول .

إلا أن منها جميعاً قولين يظفران على التمهيص ؛ أما الأول
فهو أنه أطلق على النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده
فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهناك مذهب
آخر له شأنه من حيث رواته اثقت ، يرمي إلى أن هذا اللقب
أطلق على حفيده « فهر بن مالك بن النضر » نقله صاحب
المصباح عن السهيلي وشارح القاموس عن ابن الكلبي وقال :
« إنه مرجع في هذا الشأن . » ، وذكر أيضاً في سيرة ابن
هشام . ونحن إذا دققنا في صيغة الرواية عند ابن هشام وصاحب
المصباح وجدناها مبنية للمجهول : « ويقال . . » وبهذا نعلم أن
الراويين ضعفها فكيفيانا بذلك المؤونة ^(١) . وقول الشاعر :

(١) ومع ذلك فقد قال في العقد الفريد (٢ : ٢٠٣) : « إنما
جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك ، فجد قریش كلها فهر بن مالك ،
فما دونه قریش وما فوقه عرب . »

وجاء في خزنة الأدب ١ : ١٩٠ : « قال عبد الملك بن مروان :
سمعت أن قصياً كان يقال له القرشي ، لم يسم قرشي قبله . »

أَبُوكُم قُصَيَّ كَانَ يَدْعَى جَمْعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرِ
الْمُنْقَدِمِ الذِّكْرَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ وَلَدُ النَّضْرِ جَمِيعًا مِنْ قُرَيْشٍ
وَالنَّصْرَ عَلَى فَهْرٍ لَا يَخْرُجُ إِخْوَتُهُ وَأَوْلَادُ عَمِّهِ مِنَ الْقُرَشِيَّةِ .

وَلَا بَدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ هُنَا عَلَى حُجَّةٍ قَوِيَّةٍ وَلَعَلَّهَا قَاطِعَةٌ ، جَاءَتْ
فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ وَهِيَ كَفِيلَةٌ بِالْفُوزِ بِطَأْنِيَّةِ الْبَاحِثِ ، فَقَدْ
ذَكَرَ بَيْتًا لَجَرِيرٍ فِي مَدْحِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يَعْنِي فِيهِ بَرَّةَ بِنْتِ
مَرْأَتِهِ أَسْتَيْمَ بْنِ مَرْوَى أُمِّ النَّضْرِ هَذَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ :

فَمَا أُمُّ الَّتِي وَلَدَتْ قُرَيْشًا بِمُقْرِفَةِ النَّجَارِ وَلَا عَقِيمِ
وَمَا قَرَمَ بِأَنْجَبٍ مِنْ أَيْكُم وَمَا خَالَ بِأَكْرَمٍ مِنْ تَيْمِ (١)

وَجَرِيرٍ مِنْ تَيْمٍ .

وَأَمَّا الثَّانِي فَبَيَانُ السَّبَبِ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَأَيُّ التَّفَاسِيرِ هُوَ الْأَرْجَحُ :
يَسْتَبْعِدُ الذَّهْنُ أَنَّ تَكُونَ دَابَّةَ الْبَحْرِ هِيَ الَّتِي أَوْحَتْ هَذَا
الْاسْمَ ، وَلَوْ رَوِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : لَبُعْدَ الْعَرَبِ حَوْلَ
مَكَّةَ عَنِ الْبَحْرِ وَجَهْلِهِمْ حَيَوَانَهُ . فِي هَذَا الشَّرْحِ تَكْلُفٌ ظَاهِرٌ
كَالَّذِي فِي اسْتِثْقَاةِ الْمَجْمَلِ الْقُرَيْشِ . وَالَّذِي لَا يَجِدُ الْمَرْءَ
غَيْرَهُ مَذْهَبًا يَرْضِيهِ هُوَ أَنَّ تَكُونَ (قُرَيْش) مِنْ الْقُرَشِ

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٩٠ ، والإِقراف : أن تكون الأم عربية
والأب غير عربي والقرم السيد والفحل .

بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال
إذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة . ذكر ابن هشام أن
التقرش التجارة والاكتساب وأن القروش (أيضا) التجارة
والاكتساب وأتى على ذلك بشاهد من كلام العرب . لكن
الجاحظ أزال اللبس في ذلك وأحسن الإيضاح حين قال في صدد
كلامه عنهم :

« وبالتجارة كانوا يعرفون ، ولذلك قالت كاهنة اليمن :
« لله در الديار لقريش التجار » وليس فوقهم قرشي كقولهم هاشمي
وزهري وقيمي لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشاً فينتسبون إليه
ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والقريش . »^(١)

وقد تقدم الدليل آنفاً على أن النضر هو قريش ولا داعي
لتسميته بذلك إلا معنى التجارة والكسب .

وقريش في الأصل طبقتان : قريش البطاح وقريش الظواهر
أما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها وهم
سادة القرشيين ، فيهم بنو هاشم وبنو أمية ومنازلهم الشعب بين أخشي^(٢)
مكة وهم صُباة قريش وصميمها وساداتها وأغنياؤها ، اختطوا
منازلهم في البطحاء ونزلوها .

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٦

(٢) أخشبا مكة جبلاها : أبو قيس والذي يقابله

وأما قريش الظواهر فهم الذين لم تسعهم إلا بطح فنزلوا أعلى
مكة خارج الشعب ، فانتشروا حولها في ظواهرها وهم دون أولئك
شرفاً وغنىً وشأناً . قال في لسان العرب : « وقريش البطاح
أكرم وأشرف من قريش الظواهر » واستشهد لذلك بقول الشاعر
فلو شهدتني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر
وقول الكميت :

فحلت معتلج البطاح ح وحل غيرك بالظواهر^(١)
وهناك قرشيون استوطنوا الطائف وغيرها حيث اتخذوا
الأموال والمزارع فلم ينسبوا إلى ظواهر ولا إلى بطاح . روى
صاحب تاج العروس أن « في قريش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية » .

* * *

أول بانٍ لمجد قريش وموطدٍ لنفوذها هو قصي بن كلاب ،
إذ استنقذ أمر مكة وولاية البيت من جرهم وخزاعة بعد حرب
شديدة وجمع أشقات قومه فأنزلهم حول الحرم وملك أمرهم « فكان
أول بني كعب بن لوئي أصاب ملكاً أطاع له به قومه .
فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف
مكة كله وقطع مكة رباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش

(١) انظر لسان العرب وتاج العروس مادتي : بطح ، ظهر .

منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها . . . فسمته قريش مجمعا لما جمع من أمرها وتيسنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره الخ . . . »^(١)

فأنت ترى أن قصيا مكن دعائم قريش ونظم أمورهم ثم جعل من داره التي اتخذها لنفسه وجعل بابها إلى مسجد الكعبة مجلس شورى لقريش ودار حكومة معا وسماها دار الندوة . وكانت قريش بعده لا تقضي أمرا إلا فيها ، فيها ينظمون غيرهم إلى الشام أو اليمن فلا تخرج غير إلا منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها ، ويتفاوضون في أمر تجارتهم وحرهم وسلمهم . وفيها كان معظم المؤامرات التي ائتمروا بالنبي وأصحابه في بدء الدعوة ، وكانت لهم محكمة يلجأ إليها المتخاصمون ويقضي فيها شيوخهم المقدمون . ولا ريب أن أمور التجارة القرشية بعد الذي صنع قصي لهم اطردها وتقدمها وازدهارها فالتسعت ونمت .

وأراد قصي تثبيت هيبة قريش في نفوس العرب ففرض عليهم خراجا يخرجونه في كل موسم من أموالهم ، فإذا كان الحج قال قصي :

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١١٨

« يا معشر قریش : إنکم جیران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضیف الله وأهله وزوار بيته ، وهم أحق الضیف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى یصدروا عنكم » فكانوا یخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فیدفعونه إليه فیصنعه طعاماً للناس أيام منی فیاكله من لم یكن له سعة ولا زاد^(١) من الحجاج وأهل مكة . وهذه هی الرفادة .

امتدت أيام قصي حتى كبر فعهد إلى ولده عبد الدار باللواء والسقاية والرفادة ، لأنه لم یشرّف في حياته وكان بكره ، فقد بطأ به عمله عن أن یلحق بأخيه عبد مناف الذي بلغ في الشرف والسيادة شأواً بعيداً . فخص قصي عبد الدار بذلك جبراً له حتى یلحق بأخيه . ثم تنازع على الشرف بنو عبد الدار وبنو عبد مناف وتحزب لكل من الفریقین أقوام وأفضى النزاع إلى الاستعداد للحرب وتعاهد عند الكعبة بنو عبد الدار وحلفاؤهم على النصرة فسموا الأَحلاف ، وتعاقد بنو عبد مناف وغمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً فسموا المطيّبين ثم كان سعي بين الفریقین انفرج عن صلح بينهما على أن یكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وأن یكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار . فتحاجز الناس على ذلك حتى أتى الإسلام وهم عليه .

ازدهر مجد قريش التجاري وبلغ أوجه في الحقيقة ، بهاشم بن عبد مناف ؛ لأن تجارة قريش قبله لم تكن تعدو مكة » وإنما كان يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب .^(١) حتى جاء هاشم ففتح في وجوههم ما فتح .

كانت لهاشم دون إخوته الرفاة والسقاية فقام بأمرهما إذ كان أخوه عبد شمس رجلاً سفّاراً مقلّلاً ذا عيال . وهاشم موسر طامح بعيد النظر ، وقد ضرب القرشيون على عهده في الأرض فأكثرُوا الأسفار التجارية . ومن الغريب أن أولاد عبد مناف كلهم حليفو أسفار طوحتهم الغربة فمات كلُّ بناحية أما هاشم فمات بغزة من أرض الشام فسميت به غزة هاشم ، وأما أخوه المطلب فقد مات يرَدّمان من أرض اليمن وأما أخوه نوفل فمات بسلّمان من أرض العراق وعبد شمس مات بمكة .

اضطلع هاشم بأعباء الأمور وأكثّر من الأسفار وهو أول من عقد المعاهدات التجارية لقريش (كما سيأتي قريباً عند الكلام على الإيلاف) فثمّر الأموال وارتفع له ذكر نابه بين قومه واستفاضت له مكارم سار بها الركبان^(٢) . قال ابن سعد :

(١) الأمالي ج ٣ ص ١٩٩

(٢) الطبقات ج ١ ص ٤٣ أوربا

« كان اسم هاشم عمرًا فأصابته قريشًا سنوات ذهبن بالأموال
 فخرج هاشم إلى الشام فأمر بنخبز كثير فخبز له فعمله في الغرائر^(١)
 على الإبل حتى وافى مكة فهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ونحر
 تلك الإبل ثم أمر الطهاة فطبخوا . ثم كفأ القدور على الجفان
 فأشبع أهل مكة . فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم
 فسمي بذلك هاشمًا وقال ابن الزبير في ذلك :

عمرو العلي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
 وقال وهب بن عبد قصي في ذلك :

تحمل هاشم ما ضاق عنه وأعيان أن يقوم به ابن يرض
 أتاهم بالغرائر متأقات من أرض الشام بالبر النقيض
 فأوسع أهل مكة من هشم وشاب الخبز باللحم الغريض
 فظل القوم بين مكالات من الشيزاء حائرًا يفيض^(٢) اه

والظاهر أن هاشمًا لقي مجداً وعزاً ومكانة لم يحظ ببعضها
 أحد فأنار ذلك حسد الأقران له لما انقطعوا دون بلوغ شأوه
 وأورثوا هذا الحسد أبناءهم من بعدهم ولم يشفع لهاشم ما قدم

(١) ٤ ، (٢) الطبقات ١ : ٤٤٤ ، الغرائر جمع غرارة وهي : الجؤال
 (العدل) . متأقات : ممتلئات . الغريض : الطري . والشيزاء ممدود
 شيزى : وهو الخشب الأسود يعمل منه القصاع . والحائر : الودك .

لقومه من خير وما رفع لهم من ذكر وما وطد لهم من تجارات
فإن ابن سعد يروي لنا بعد ما تقدم من صنع هاشم ، أول ما
زرع الشر بين بني أمية وبني هاشم قال : « فحسد هاشمًا أمية
ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان ذا مال فتكلف أن يصنع
صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش فغضب ونال
من هاشم ودعاه إلى المنافرة . فكره هاشم ذلك لسنه وقدره ،
فلم تدعه قريش وأحفظوه . فقال لامية : فإني أنا فرك على خمسين
ثاقبة سود الحديق تنحرها بيطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر
سنين . فرضي أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي . فنفر
هاشمًا عليه ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره
وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه أول
عداوة وقعت بين هاشم وأميه . » ^(١)

جرى بنو قصي على سنة أبيهم في إطعام الحاج إلا أن هاشمًا
امتاز منهم جميعًا فسار بهذه السنة إلى شوط بعيد لم يبلغه أحد
قبله ولا بعده ولا غرو فقد كان من الغنى بالمكان المشهور وأسعفه
في التجارة حظ قلما أتبع لغيره . وعلى يده وأيدي إخوته فتحت
لقريش أسواق في بلاد الروم وفارس والحبشة . فصنع للحاج

ما لم يصنعه أحد . ونحن عارضون لك من ذلك ما وصفه ابن
أبي الحديد ومنبهوك خاصة على شرف هاشم وكمال مروءته في
حرصه على ألا يطعم الحاج إلا ما حل كسبه :

كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره
إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول : « يا معشر
قريش أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها وأعظمها أحلاماً
وأوسطها أنساباً وأقربها أرحاماً . يا معشر قريش أنتم جيران بيت
الله أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ
منكم أحسن ما حفظ منكم جارٌ من جاره فأكرموا ضيفه وزوار
بيته فإنهم يأتونكم شعناً غبراً من كل بلد : فارب هذه البنية ،
لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ألا وإني مخرج من طيب
مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام
فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل . وأسألكم بجرمة
هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله
ومعونتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب »
فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ما تحتمله أحوالها وتأتي به
إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج ^(١) ١٠ هـ .

والمرء - وإن حدثته نفسه فيما روى ابن أبي الحديد - موقن أن هاشماً في الغاية من النبل والشرف وتحري الطيب من المكاسب .
 كان إذا جمع الأموال من قریش يأمر بجياض^(١) من أدم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقي فيها الماء من آبار مكة فيشربه الحاج وكان يطعمهم أول ما يطعم ، قبل التروية بيوم ، بمكة وبني وجمع وعرفة . وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والعمر ويجعل لهم الماء فيسقون بني - والماء يومئذ قليل - في حياض من الأدم إلى أن يصدروا من منى فتقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم .
 لم تكن أمور قریش وخدمة الحجيج لتصرف هاشماً عن تجاراته وأسفاره بل كان بين هذا وذاك يقود قوافل قریش إلى الشام وقد تزوج قبيل وفاته في إحدى هذه الرحلات . والفضل لابن سعد في وقوفنا على بعض تفاصيل العير التي خرج بها هاشم كما له الفضل في معرفتنا بممارسة المرأة العربية للتجارة ومشاركة الرجال في الجاهلية بالخروج إلى الأسواق والاتجار فيها قال :

« خرج هاشم في عير لقریش ، فيها تجارات . وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . فباعوا واشتروا ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف

من السوق ، فرأى امرأة تأمر بما يشتري ويبيع لها ، فرأى امرأة حازمة جلدة ، مع جمال . فسأل هاشم عنها : أأيم هي أم ذات زوج ؟ فقيل له : « أيم كانت تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمراً ومعبداً ، ثم فارقتها . » وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فإذا كرهت رجلاً فارقتة . وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لييد بن خدّاش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار . فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ودخل بها وصنع طعاماً ودعا من هناك من أصحاب العير الذين كانوا معه ، وكانوا أربعين رجلاً من قريش فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم ، ودعا من الخزرج رجالاً وأقام بأصحابه أياماً . وعلقت سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيبة فسمي شيبة . وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى فأقاموا عليه حتى مات فدفنوه بغزة ورجعوا بتركنه إلى ولده .^(١)

ذكر ياقوت أن قبر هاشم بغزة حيث مات ، وأنها لذلك يقال لها غزة هاشم وروى المطرود الخزاعي في رثائه :
مات الندى بالشام لما أن ثوى فيه بغزة هاشم لا يبعد

قال ياقوت : « مات هاشم بغزة وعمره خمس وعشرون سنة وذلك الثبت وقيل عشرون » وفي النفس من هذا التقدير شيء لأن ما حفلت به حياة هاشم وما تم لقومه على يديه يندر أن يكمل لابن خمس وعشرين .

قام بأمر قريش بعد هاشم أخوه الأصغر المطلب بن عبد مناف وكان ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته ^(١) وفضله وقد ضم إليه ابن أخيه شيبه بن هاشم في أحد أسفاره فدخل به مكة مردفاً إياه على بعيه فظنت قريش أنه غلامه فقالوا : عبد المطلب فقال المطلب ويحكم إنه شيبه ابن أخي هاشم ، قدمت به من المدينة . ولما خرج المطلب في رحلة له إلى اليمن مات بردمان وكان آخر من مات من بني عبد مناف نوفل الذي تقدم أنه مات بسلامان من أرض العراق فذكرهم مطرود بن كعب الخزاعي في رثائه فقال :

أربعة — كلهم سيد أبناء سادات لسادات
ميت بردمان وميت بسد — هان وميت بين غزات ^(٢) . الخ

(١) ابن هشام ١ : ١٢٨

(٢) ومن الغريب الطريف أنه أصاب أولاد العباس بن عبد المطلب ما أصاب إخوة هاشم هؤلاء حتى قالوا : أبعد قبور إخوة علي الأرض قبور أولاد العباس : فعبد الله بن عباس الحبر دفن في الطائف ، والفضل =

ثم انتهت السقاية والرفادة من بعده إلى عبد المطلب بن هاشم فأدار أمور قومه وأهم ما صنع لهم حفر بئر زمزم . وقد كان في قريش ذا هيبة ومكانة .

وفي أيامه هددت مكة وتعرضت مكانتها التجارية للهبوط ، إذ قصدتها أبرهة « يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها »^(١) فاعتصمت قريش في شعف الجبال وفي الشعاب تخوفاً من معرة الجيش وأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة مع نفر من قريش يستعدي رب البيت على الأحباش بما لا غرض لنا بذكره هنا ، إلا أننا لا نرى مندوحة عن التعرض للتقدمة التي قدم بها أنيس (سائس فيل أبرهة) ، عبد المطلب إلى أبرهة إذ قال له : « أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب غير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال . »^(٢) وكان أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بغير

= ابن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في طاعون عمواس بالشام أيام عمر ، وعبيد الله بن عباس الجواد مات بالمدينة ، وقتل بن عباس شبيه النبي صلى الله عليه وسلم مات بسمرقند زمن معاوية ، وعبد الرحمن بن عباس قتل بإفريقية زمن عمر . ٥ هـ . ملخصاً عن النوادر للقالبي ص ١٩٧

(١) ، (٢) تاريخ العرب الأدبي للاستاذ رينولد نيكلسون ترجمة محمد

حسن حبشي في الرسالة عدد ١٨٦ : ٦٤

أصابها خارج مكة فأتاه يستردها . وإذا كان مائتا بعير مما يملك
مثل عبد المطلب وهو لم يشتهر بكثرة الأسفار كما اشتهر غيره
من القرشيين ، أممكتك أن تتصور الغنى الذي تمتع به هذا
البطن من العرب .

وعبد المطلب هذا هو الذي رأس وفد قريش الذي ذهب
إلى سيف بن ذي يزن ليهنئه بالملك وبالظفر . وقد لقي الوفد
ورئيسه خاصة من إجلال الملك وإكرامه ما تجد تفصيله في العقد
الفريد (١ : ١٧٥) فارجع إليه ثم . وينسب إلى عبد المطلب
هذه الآيات يذكر فيها حرمة البيت ويعرض لجيش أبرهة :

نحن آل الله في ذمته لم نزل فيها على عهد قدم
إن للبيت لرباً مانعاً من يرد فيه بإثم يُخترم
لم نزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

ثم أفضى الأمر من بعده إلى أصغر أولاده العباس بن عبد
المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثماني سنين .
وبقي الأمر في يده حتى جاء الإسلام .

ومن تمام الوصف أن نختصر هنا عن العقد الفريد توزيع
الوظائف الرسمية على بطون قريش ، في هذه الجمهورية التجارية في
مكة ، التي شبهها « لامنس » بجمهورية البندقية وقرطاجة ، لسيطرة

المالين من أرباب التجارة وأصحاب رؤوس الأموال^(١) :

قال ابن عبد ربه (العقد ١ : ٢٠٣) :

« من انتهى إليه الشرف من قریش في الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وقيم ومخزوم وعدي وجمع وسهم :

١ - فكان من هاشم ، العباس بن عبد المطلب : يسقي الحجيح في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام .

٢ - ومن بني أمية ، أبو سفيان بن حرب : كانت عنده العقاب راية قریش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قریش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ - ومن بني نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة .

٤ - ومن بني عبد الدار ، عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة .

٥ - ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الأسود ، وكانت إليه المشورة . وذلك أن قریشاً لا تجتمع على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه وإلا تخير وكانوا له أعوانا ؟

٦ - ومن بني تميم أبو بكر الصديق . وكانت إليه في الجاهلية الأشناق وهي الديات والمغرم . فكان إذا احتمل شيئاً من الدماء فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٧ - ومن بني مخزوم خالد بن الوليد ، وكانت إليه القبة والأعنة فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب .

٨ - ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية . وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به .

٩ - ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهي الأزلام يستقسم لهم بها إذا أرادوا أمراً من أمورهم العامة .

١٠ - ومن بني سهم الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهم .

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية وهي السقاية والعمارة والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة ، إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة

على حال ما كانت في أوليتهم ، يتوارثون ذلك كائناً عن كائناً .
وجاء الإسلام فوصل لهم ذلك . فكانت سقاية الحاج وعمارة
المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم . والعمارة هي ألا يتكلم أحد
في المسجد الحرام بهجر ولا رقت ولا يرفع صوته ، فكان العباس
ينهاهم عن ذلك . وأما حلوان النفر : فإن العرب لم تكن تملك عليها
في الجاهلية أحداً فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن
خرجت عليه القرعة أحضره صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان
يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير
فأجلسوه على المن . »

* * *

— ٢ —

هذا أمر سراة قريش ورؤسائهم فأما عامتهم فقد أخذوا
يشغلون مركزاً ممتازاً بين قبائل العرب ساعدتهم على بلوغه مقامهم
في مكة حيث البيت والحرم ، إذ كانوا يقومون بسدانة البيت
وما يحتاج إليه من خدمة وعناية . فكانت العرب تعرف لقريش
شرفها ومكانتها وغناها كما تعرف لها زعامتها الدينية وسيطرتها
على مكة وإدارتها .

والقرشيون من بين عامة سكان الحجاز أغنياء مهرة في أمور

التجارة لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار «ومن لم يكن من قريش تاجراً فليس بشيء» . فكانوا ينظمون غيرهم في الشتاء إلى اليمن حيث يبتاعون سلع الهند والحبشة المستفيضة هناك فيحملونها إلى الحجاز ، وعيراً في الصيف إذ يرحلون بما حملوا من الحبشة والهند وما عندهم أيضاً من محصول بلادهم كالتمر والأدم ، إلى الشام فيفرغون في أسواقها : غزة وبصرى وغيرهما ، ما في أحمالهم ويأخذون بدلاً منها ما في الشام مما لا يكون بالهند ولا بالحبشة .

وكانوا يسيرون قوافل عظيمة معها حامياتها وأدواتها ومعهم الأدلاء يسيرون بين أيديهم . أما الحاميات فأكثر ما تكون من بني غفار ومن إليهم ، ممن يتقاضون على مرافقة العير وحمايتها جعلاً من قريش . هذا عدا عبدان قريش ومواليها وأحلافها .

اختلاط القرشيين بالروم والفرس والحبشان جعلهم يتميزون من سائر العرب بميزات أفادوها من هذا الاختلاط ، فتعلم فريق منهم الكتابة من الحيرة ونشروها لما رجعوا إلى بلادهم فكان في مكة والطائف عدد غير يسير يحسنون الكتابة ^(١) وكان أكثر كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم . ومن هنا كان القرشيون

(١) انظر بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ وما بعدها

أقرب العرب من علم وثقافة وتهذيب ، لمخالطتهم هؤلاء الأجانب المتحضرين وقبسهم شيئاً من تعاملهم في بيوعهم وأنظمتهم في تجارتهم حسبما كانوا يرون في الأسواق التي كانوا يحطون رحالهم فيها . وهذه الأسواق وإن لم تكن في الدرجة الأولى بين أسواق الرومان ، ولا أهلها سابقين في مضمار الحضارة كثيراً ، لم تخل من آثار بعيدة في التحضر استفاد منها تجار مكة شيئاً يعتد به في السياسة والاقتصاد . بل لقد تأثروا برحلاتهم هذه ببعض المعتقدات أيضاً فقد ذكروا أن عبادة الأصنام طارئة على أهل مكة من الشام وأن عمرو بن لحي - فيما زعموا - أول من نشر عبادة الأصنام حول الكعبة حين حمل معه صنماً من أصنام وجدها في جنوب الشام فنصبه في الكعبة .

فأنت ترى أن هذه الرحلات أثرت حتى في معتقدات العرب ومن القريب المألوف أن يحمل الرحالون من البلاد التي ينزلونها شيئاً من طرائقها في العادات والدين والأخلاق والعروض والأزياء يتحدثون عنه إذا ردتهم أسفارهم إلى بلادهم ، فيعجبون منه ذويهم وجيرتهم ممن لم يكن له بتلك البلاد عهد . وما أكثر ما يحاول الإنسان تقليد من يملأ عينه .

أفادت قریش من هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالأمم التي

سبقتهم ، كثيراً من الباقية والكياسة إلى ما عرفت به من الفصاحة
المشهود لهم بها ، حتى إن العرب كانت تعرض شعرها على قریش
وعرض علقمة الفحل عليهم شعره فوصفوه بِسِطِ الدهر ، وثقفت
ألوأناً من الدهاء والاحتيال ، لا يحسنها إلا من رسخت قدمه في
التجارة وأسبابها وضروب تعاطيها ، حتى إذا دار الزمان وقضي
للعرب أن تكون لهم دولة ذات سياسة داخلية وخارجية ، كان
أقطاب هذه الدولة وأركانها ، أولئك التجار الذين يعرفون كيف
يتأتون للأمور ويتلطفون لمواجهة الصعاب وتذليل العقبات وحل
المشكلات من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وأبي سفيان ومعاوية
وعمر بن العاص وزياد والمغيرة ، وتلك الطبقة الممتازة من أكابر
التجار في الجاهلية وكبار أهل الحل والعقد في الإسلام .

ومتى رميت برجل ذي ذكاء ومواهب ، في قطر تجاري
كالشام أو العراق (قبل الإسلام) فاختلط بالتجار ، وقاسى محيطاً
غير محيطه ، تفتحت تلك المواهب ، وانجلت عن نبوغ كبير
ما كان لينكشف لو جمد صاحبه في محيطه الضيق ، بين شعاف
مكة وبطاحها . إن شئت فانظر إلى هذا الاحتيال المضاعف الذي
أتاه المغيرة بن شعبة وضحك به على كل خمار في الحيرة (إن
كان ليعجز عن أقل منه أقطاب فضائح « ستافسكي » رغم ما

يجهزهم به العصر العشرون من وسائل وعدد .) ولعل في هذه القصة التي سأوردها لك بياناً شافياً لهذا الدهاء التجاري الذي تمرست به قريش وامتازت به من العرب قاطبة :
قال المغيرة بن شعبه :

« أول ما عرفني به العرب من الدهاء والحزم ، أني كنت في ركب من قومي ، في طريق لنا إلى الحيرة فقالوا لي : « قد اشتهمنا الشراب وما معنا إلا درهم زائف . » فقلت : « هاتوه وهلموا زقين . » فقالوا : « وما يكفيك لدرهم زائف زق واحد ! » قلت : « أعطوني ما طلبت وخلاكم دم . » ففعلوا وهم يهزؤون من قولي .

فصبت في أحد الزقين شيئاً من ماء ثم جئت إلى خمار فقلت له : « كل لي ملء هذا الزق . » فملأه . فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته إياه . فقال : « إن ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً ، وهذا درهم زائف ! » فقلت : « أنا رجل بدوي وظننت أن هذا يصلح كما ترى ، فإن صلح وإلا نخذ شرابك . » فاكتمال مني ما كاله وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيه من الماء . فأفرغته في الزق الآخر وحملتها على ظهري وخرجت . فصبت في الزق الأول ماء ودخلت إلى خمار آخر فقلت : « إني

أريد ملء هذا الزق خمرًا فانظر إلى ما معي منه ، فإن كان عندك مثله فأعطني . » فنظر إليه (وإنما أردت ألا يستريب بي إذا رددت الخمر عليه .) فلما رآه قال : « عندي أجود منه . » قلت : « هات . » فأخرج إليّ شرابًا فاكئلته في الزق الذي فيه الماء ثم دفعت إليه الدرهم الزائف ، فقال لي مثل قول صاحبه فقلت : « خذ خمرك . » فأخذ ما كال لي وهو يرى أنني خلطته بالشراب الذي أريته إياه . وخرجت فجعلته مع الخمر الأول . ثم لم أزل أفعل ذلك بكل خمار في الحيرة حتي ملأت زقي الأول وبعض الآخر . ثم رجعت إلي أصحابي فوضعت الزقين بين أيديهم ورددت درهمهم .

فقالوا : « ويحك ! أي شيء صنعت ؟ » فحدثتهم فجعلوا يعجبون وشاع لي الذكر في العرب بالدهاء حتى اليوم ^(١) « هذا احتيال لا يخترعه إلا عقل تاجر ماهر ، ولم يجرفته وأسرارها وبالنش وضروبه . أحسنه قریش وشركاؤها كما أحسنت ضربًا آخر من اللباقة وحسن التأتي مع الدول المجاورة التي تاجروا في بلادها ، فكانوا بهذه الكياسة ، ينجون من عقاب المخالقات التي يرتكبونها وعواقب المغامرات التي يفتحمونها . ولما

أرادت قريش أن تفتح لها أسواق فارس ولم تكن ترتادها كما
ترتاد أسواق الشام ، كان لا بد في سبيل الوصول إلى ذلك من
مغامرات ومخاطرة وتعرض للأذى وكانت الحاجة تخلق لها مغامرين
أذكياء منها أو من شركائها يصلون برفقهم ودهائهم إلى ما يريدون
مع السلامة والغنيمة . ونحن ذاكرون لك هنا شاهداً ، مهما يكن
حظ التزيد فيه فإن ما يخلص منه بعد الامتحان صالح لأن يعطيك
صورة صحيحة عن فطنة القوم في أمور التجارة والاحتيال لها
والجراحة فيها :

ذكر الرواة أن أباسفيان خرج في جماعة من قريش يريدون
العراق بتجارة ، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال لهم :
« إنا من مسيرنا هذا لعلنا نخطر ، ما قدومنا على ملك جبار لم
يأذن لنا في القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر ؟ ولكن
أيكم يذهب بالخير فإن أصيب فنحن براء من دمه وإن غنم فله
نصف الربح ؟ »

فقال غيلان بن سلمة : « دعوني إذن فأنا لها . » فدخل
الوادي فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول :
ولورآني أبو غيلان إذ حسرت عني الأمور إلى أمر له طبق
كتمال رعب ورهب يجمعان معاً حب الحياة وهول النفس والشفق

إِما بقيتَ على مجد ومكرمة أو أسوة لك فيمن يهلك الورق
ثم خرج في العير ، وكان أبيض طويلاً جعداً ضخماً فلما
قدم بلاد كسرى تخلق ولبس ثوبين أصفرين وشهر أمره وجلس
بباب كسرى حتى أذن له ، فدخل عليه فخرج إليه الترجمان
وقال له : « يقول لك الملك : ما أدخلك بلادي بغير إذني ؟ »
فقال : « قل له : لست من أهل عداوة لك ، ولا أتيتك جاسوساً
لضد من أضدادك ، إنما جئت بتجارة تستمتع بها ، فإن أردتها
فهي لك وإن لم تردها وأذنت لي بذلك رددتها . » فتكلم كسرى
فلما سمع صوته غيلان سجد . فقال الترجمان : « يقول لك الملك
لم سجدت ؟ » فقال : « سمعت صوتاً عالياً حيث لا ينبغي لأحد
أن يعلو صوته إجلالاً للملك ، فعلمت أنه لم يقدم على رفع
الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظاماً له . » فاستحسن كسرى
ما فعل وأمر له بمرقعة توضع تحته ، فلما أتي بها رأى عليها صورة
الملك فوضعها على رأسه ، فاستجبه كسرى واستحمله وقال
للترجمان : « قل له إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها . » قال : « قد
علمت ، ولكنني لما أتيت بها رأيت عليها صورة الملك ، فلم يكن
حق صورته على مثلي أن يجلس عليها ، ولكن كان حقها التعظيم ،
فوضعتها على رأسي لأنه أشرف أعضائي وأكرمها علي . »

فاستحسن فعله جداً ثم قال له : « ألك ولد ؟ » قال : « نعم »
 قال : « فأيهم أحب إليك ؟ » قال : « الصغير حتى يكبر
 والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يوثوب » فقال كسرى : « زه
 ما أدخلك عليّ وذلك على هذا القول والفعل إلا حظك ، فهذا
 فعل الحكماء وكلامهم ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم ، فلا
 غذاؤك ؟ » قال : « خبز البر » قال : « هذا العقل من البر لا
 من اللبن والتمر . » ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وكساه
 [وبعث معه من الفرس من بني له أطماً بالطائف فكان أول
 أطم بني بها ^(١)] . فهذا نمط مما بلغ إليه القوم .

مكّانة قريش من العرب وقيامها على الدين كلفاها مغارم
 كانت تؤديها عن طيب نفس ، ويتعاون أفراد هذا الحي على
 الإنفاق في كل ما يعود على مكة والبيت وأهله بالفخر
 والتكرمة . ولنا على ذلك دليان مشهوران هما خير ما يمثل لنا
 تضامن هذا الحي في المكارم ، وما يتكلف من بذل وخدمة

(١) انظر الأغاني ١٢ : ٤٦ ولغيلان هذا شأن في العرب ، فالمرزوقي
 [٢٧٤ : ٢] عده من حكام قيس وذكر أن له ثلاثة أيام : يوم ينشد الناس
 بشعره ويوم يحكم بين الناس ويوم يقعد للناس فيه فيزار وينظر إلى سروره
 وجهاله . فلا تعجب بعد هذا إن حدثتك نفسك بتزيد أضيف إلى أخباره .

في سبيل تقوية منزلته من نفوس العرب وفي سبيل تعظيم حرمة البيت وأهله وحفظ قدسيته في قلوب القبائل كافة :

أما الأول فالرفادة التي كانت من مناقب قريش خاصة ، مما تفاخر به أحياء العرب قاطبة وهي - كما ذكرنا في موضع آخر - شيء تترافد به قريش في الجاهلية تخرج فيما بينها مالا تشتري به للحاج طعاماً وزيبياً . « ولعل في هذا الأمر شيئاً وراء إكرام حجاج البيت الحرام ، وما إلى ذلك من أمور تتصل بشعائر وعقائد تمت إلى الدين ، وهذا الشيء هو إغراء العرب بحج تلك الأسواق التجارية والإقبال عليها حتى تغص بالبائعين والشارين ، فتأمن قريش على أرباحها وتكفل من ذلك رواج تجارتها التي هي قوام أمورها في الحياة . فالغرض الحقيقي - فيما يبدو لي - تجاري أكثر منه دينياً . ولا يفسر ذلك أحسن تفسير إلا الحوادث التي رافقت البعثة ، وما لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أمره من الألاقي والأذى . وما كانت قريش - وهي ما هي حصافة عقول - لتعمى عن نور الإسلام لو لا أنها خافت على زعامتها التجارية والدينية أن يدكها الإسلام ويذهب ريمها ، وهي إنما تسلطت على نفوس العرب السذج بتلك الخرافات التي جعلت من أصنام الكعبة آلهة مقدسة لِفَقِّ حولها أباطيل وقصص اتخذت

مع الزمن شكل العقائد ، وجعلت من قریش قوَّاماً على هذا الدين الذي دانته العرب في الجاهلية .

وأما الأمر الثاني فما كانت تتشارك فيه من كسوة الكعبة جاء في (أخبار مكة للأزرقي ص ١٧٤) :

« إن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتّى ، كانت البدنة تُجلّل الحبرة والبرود والأكسية ، وغير ذلك من عصب اليمن ، وكان هذا يهدى للكعبة سوى جلال البدن ، هدايا من كسى شتّى : خزّ وحبرة وأنماط تعلق فتكسى فيه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة . فإذا يلي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك ، وكان يهدى إليها خلوق ومجمر ، وكانت تطيب بذلك في بطنها ومن خارجها . »

ويظهر أن الحرص على شرف هذه الكسوة كان بالغاً ، وكان مما تباهي به قریش سائر العرب حتى كان في الأفراد من اشترأ للاستئثار بهذه المكرمة وحده بلا شريك ، ففي ص ١٧٥ من الكتاب المذكور :

كانت قریش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ

أبو ربيعة بن المغيرة بن عمرو بن عبد الله بن مخزوم ، وكان
يختلف إلى اليمن يتجر بها ، فأثرى في المال فقال لقريش :
« أنا أكسو وحدي الكعبة سنة ، وجميع قريش سنة . »
فكان يفعل ذلك حتى مات : يأتي بالحبرة الجيدة من الجند
فيكسوها الكعبة فسمته قريش العدل ، لأنه عدل فعله بفعل
قريش كلها ، فسموه إلى اليوم العدل ويقال لولده بنو العدل .
لم تنج قريش من ألسنة العرب ، ولم تخل ممن نفس عليها
مكانها أو حقد عليها استئثارها بالغنى من أفناء العرب الذين
يقدمون مكة فيعانون من تجارها عنتاً وإرهاقاً ، عدا ما يسامون
من الهزء أحياناً ، ومن أداء الربا المضاعف لهؤلاء . وكان اشتغال
التجار بتجارتهم وانكبابهم على شؤونها قد صرفهم بعض الصرف
عن معالجة شؤون الحرب كما يعالجها أمثالهم من غير التجار .
ولاحظ ابن سلام أن الذي قلل شعر قريش عدم اشتغالها بالحروب
« فلم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمن
وأهل الطائف ^(١) » . وعمان والطائف أيضاً بلدان تجاريان . ولما
أرادت أن تباهي الأنصار ولم يكن لها أيام ولا أشعار جعلت
« تزيد في أشعارها ^(٢) » . عرف بعض العرب ذلك من أمرها
والبدو يحقرون التجارة بطبعهم ككل الأمم التي تعيش من الغزو

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٢ . (٢) ص ٩٨ المصدر نفسه .

والسلب فصاروا يعيروهم بها ، وطارت لهم أشعار في ذلك ،
منها ما يحقر التجارة نفسها ، ومنها ما يقصد إلى قريش مباشرة ،
وانظر إن شئت قول القائل يريد مكة :

ولا مرتع للعين أو متقنص ولكن تجراً والتجارة تحقر
وقول ابن الزبيري :

ألهى قصياً عن المجد الأساطير

وقولها رحلت غير أتت غير

ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها
لأنكبابها على التجارة وشغلها عن الحروب من دون سائر العرب ،
عرف ذلك من أمرهم القاصي والداني ، جاء في تاريخ الطبري
عند كلامه على فتوح سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية
في العراق ما يأتي :

« سأل النعمان بن قبيصة الطائي ، وكان على مرابطة كسرى
عن سعد بن أبي وقاص ف قيل له : « رجل من قريش » فقال :
« أما إذ كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال ، إنما
قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ولا يخرجون من
بلادهم إلا بخفير^(١) إلا أنه لما عانى من شدة بأسهم ما عاناه علم

أَنْ فِي جُلُودِ أُولَئِكَ التِّجَارِ مَغَاوِيرَ حَرْبٍ وَمِذَاوِيدَ حَقٍّ .^(١)
كَانَ لَهُوْلَاءُ الْقَرَشِيِّينَ مَعَارِفٌ فِي بِلْدَانِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ وَفَارِسَ
وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَنْظُمُ وَفُوداً تَقْدُ عَلَى مَلُوكِ النُّوَاحِي ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ
عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ كَانَ يَعْرِفُ مِصْرَ وَغَزَةَ وَالشَّامَ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ وَيَعِزِّي
نِجَاحَهُ فِي فَتْحِ مِصْرَ إِلَى إِجَادَةِ مَعْرِفَتِهِ بِهَا . وَلَمَّا كَانَ أَمَامَ غَزَةَ
دَخَلَ عَلَى حَاكِمِهَا بِصِفَةِ مُوَفِّدٍ وَعَرَفَهُ الْحَاكِمُ وَأَمَرَ حَاجِبَهُ سِرّاً
بِقَتْلِهِ لَوْلَا أَنَّ نَبِيَّهُ عَرَبِيٌّ نَصْرَانِيٌّ كَانَ يَعْرِفُ عَمْرُوّاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ
حِينَ كَانَ يَتَاجَرُ وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ . وَعَرَفَ مِنَ الْقَرَشِيِّينَ تِجَارَ
كِبَارَ ذَوُو أَسْفَارَ بَعِيدَةٍ كَثِيرَةٍ ، فَأَبُو سَفْيَانَ كَانَ « تَاجِراً يَجْهِزُ
التِّجَارَ بِمَالِهِ وَأَمْوَالِ قَرِيشٍ إِلَى أَرْضِ الْعَجَمِ »^(٢) وَلَعَلَّ أَوَّلَ عِيرٍ
طَرَقَتْ بِلَادَ فَارِسَ الْعِيرَ الَّتِي كَانَ هُوَ صَاحِبِهَا ، وَالَّتِي دَخَلَ بِهَا غِيلَانَ
مُخَاطِراً كَمَا تَقْدُمُ . ثُمَّ كَانَتْ لَهُ عَوْدَاتٌ إِلَى فَارِسَ وَدَخَلَ وَافِداً
مَرَّةً عَلَى كَسْرَى وَأَهْدَى إِلَيْهِ « خَيْلاً وَأَدَمَاقَ بَقِيلِ الْخَيْلِ وَرَدَّ الْأَدَمَ »

(١) [لَيْسَ غَرِيباً أَنْ يَحْقِرَ بَعْضُ الْعَرَبِ حِينَئِذِكَ التِّجَارَةَ ، وَإِنَّمَا الْغَرِيبُ أَنْ تَسْتَعْمَرَ
هَذِهِ النِّعْمَةَ فِي النُّفُوسِ حَتَّى الْقَرْنَ الرَّابِعَ الْمَجْرِيَّ وَقَدْ تَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ
الْأَرْضِ فَيَقُولُ شَاعِرٌ مِثْلُ الْمُتَنَبِّئِ :

وَلَا مِنْ فِي جَنَازَتِهَا تِجَارٌ بِكُونَ وَدَاعِهَا نَفْضُ النُّعَالِ]

(٢) الْإِغْنَانِيُّ ٦ : ٣٤٣ طَبَعَ دَارُ الْكُتُبِ .

قال أبو سفيان : « أدخلت على كسرى فكأن وجهه وجهان من عظمه . فالتقى إلي مخدة كانت عنده فقلت : واجوعاه ! هذه حظي من كسرى بن هرمز ؟ فخرجت من عنده فما أمر على أحد من حشمه إلا أعظمها حتى دفعتمنا إلى خازن له فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب ^(١) . »

وكان يخرج إلى اليمن أيضاً ويتصل بطبقات أهلها وأخبار يهودها كما يتصل غيره فيعلمون من الأخبار والسياسة ما لا يعلمه غيرهم وقرأ في الأغاني كيف يشرح لك الحرب بين هرقل وفارس وكيف انتصر هرقل وكيف خرج من حمص ليصلي بيت المقدس شكراً لله . وهو حديث طويل مستوفى في كتب السيرة هو والحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بأس في أن أنقل هنا أول هذا الحديث لعلاقته بموضوعنا قال أبو سفيان :

« كنا قومًا تجارًا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا . فلما كانت الهدنة [هدنة الحديبية] بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت في نفر من قریش إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منه

غزة ؛ فقد منها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من
الفرس ١٠٠ الخ^(١) »

واقراً أيضاً ما كان بينه وبين العباس وحبر من أخبار اليهود
في متجرهم باليمن (أغاني ٦ : ٣٤٩) فستعرف من كل ذلك أن
هؤلاء التجار كانوا على اتصال بما كان يجري في زمنهم من
أحداث سياسية ، شديد الاهتمام بذلك لما يعود على علائقهم
بالبلدان وعلى تجارتهم . وكانوا ينقلون إلى بلادهم بعض ما يجدون
في متاجرهم الخارجية من طرف وغرائب . ولعلمهم استفادوا من
بعض الأنظمة الاجتماعية التي وجدوا عليها الروم أو فارس . بل
ما يدرينا أن دار الندوة نفسها اقتباس مغير مصغر ، عن مجامع
الروم الدينية والمدنية فقد كانت مجلساً منظماً « لتشاور قریش
وتعقد الأولوية في حروبهم . ولا ينكح رجل من قریش إلا فيها
ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها ، ولا يعذر غلام
إلا فيها^(٢) » ولا تدرع جارية من قریش إلا فيها يشق عليها درعها
ثم تدرع وينطلق بها إلى أهلها ولا تخرج غير من قریش إلا
منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها . » وهذا عبد الله بن جدعان أتى

(١) الأغاني ٦ : ٣٤٥ [دار الكتب]

(٢) مدنية العرب في الجاهلية والاسلام - محمد رشدي : ص ٥٨ وبعذر غلام : يحن .

العرب بطعام لا عهد لهم به : وفد على كسرى فأطعمه الفالودج
فسأل عن صنعه وحمل معه غلاماً يحسن له عمله ، فصار يطعم أهل
مكة منه . وهو من سراة مكة وأجوادهم وأحد أغنيائهم الكبار
و « وضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى مناديه : ألا
من أراد الفالودج فليحضر ، فحضر الناس ^(١) » وقال فيه أمية بن
أبي الصلت يصف طعامه هذا :

له داع بمكة مشمعل وآخر فوق دارته ينادي
إلى رُدُح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد ^(٢)

(١) ، (٢) الاغاني ٨ : ٣٣٠ اشمعل القوم في الطلب إذا بادروا فيه وتفرقوا
ورُدُح جمع رداح وهي الجفنة العظيمة . والشيزى خشب أسود تتخذ منه القصاع
جاء في الأمالي ٣ : ٣٨ : قال أمية بن أبي الصلت : أتيت نجران
فدخلت على عبد المدان بن الديان ، فاذا به على سريره ، وكان وجهه قمر ، وبنوه
حوله كأنهم الكواكب ، فدعا بالطعام فأتي بالفالودج فأكلت طعاماً عجيباً ثم
انصرفت وأنا أقول :

ولقد رأيت القائلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بني الديان
ورأيت من عبد المدان خلائقاً فضل الأنام بهن عبد مدان
البر يلبك بالشهاد طعامه لا ما يعلننا بنو جدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه إلى اليمن من جاءه من يعمل الفالودج
بالعسل ، فكان أول من أدخله مكة ففي ذلك يقول ابن أبي الصلت :
« له داع ١٠٠ البيتين »

ولعل الفالودج الذي كان صنعه الغلام الفارسي بمكة لعبد الله بن جدعان لم
يكن لذيذاً في معدة الشاعر أمية كما كان فالودج نجران .

وممن كان يواصل أسفاره في التجارة أبو طالب والعباس عما
النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخرج أبو طالب ابن أخيه محمداً
مرتين إلى الشام في تجارة مرة وهو فتى لا تتجاوز سنه الخامسة
عشرة ومرة وهو شاب في سن الخامسة والعشرين .

وقد تجر أبو بكر إلى الشام وتجر عمر إلى غزة وفيها استغنى
في الجاهلية على ما قال ابن حوقل^(١) ، وقل أن تجد قرشياً ذا شأن
في الجاهلية والإسلام إلا كان تاجراً واستفاض لهم غنى عريض
وثروة واسعة حتى كثر منهم الأجواد وغزرت عطاياهم وقصدهم
العفاة وأصحاب الحاجات وكان من ذلك ما نقرؤه من أخبار
جودهم الكثيرة في العقد الفريد والأغاني وغيرهما من الأمهات .
ولم تكن النساء القرشيات لتقصر عن الرجال في هذا المدى
بل كان منهن من اتسعت ثروتها من التجارة حتى فاقت كثيراً
من الرجال . ولعل السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين خير
مثال نقدمه على ذلك : فقد كانت من أكبر تجار قريش وأكثرهم
مالاً وأوفرهم غنى ، وكانت في حسب ومقام رفيع في قومها ،
مع مزايا في أخلاقها طيبة . كانت تستأجر الرجال في مالها
وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم . ترسل بأموالها إلى الشام وإلى

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٣ طبع ليدن .

عكاظ وحباشة وغيرهما من أسواق العرب . وكثيراً ما كانت ترجع هذه الأموال برمج وافر . وذكروا أن عير خديجة كعامة عير قریش^(١) . ولما بلغها عن محمد بن عبد الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج إلى الشام ، ولعل الحقيقة ما ذكره الزرقاني شارح المواهب من أن الرسول نفسه استشرف للسفر بمال خديجة فقد ذكر :

[أن أبا طالب قال له : « يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ؛ وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك . » فقال محمد : « لعلها ترسل إليّ في ذلك . » فقال أبو طالب : « إني أخاف أن تولي غيرك . »]

وبلغ خديجة ما كان من محاورتهما فقالت لمن بلغها : « ما علمت أنه يريد هذا . » ثم أرسلت إليه وقالت له : « دعاني إلى البعثة إليك ما يبلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ،

وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك . » فذكر ذلك
لعمه فقال : « إن هذا لرزق ساقه الله إليك » وكان عمره صلى
الله عليه وسلم في هذه الرحلة خمساً وعشرين سنة .

كانت قريش تنظم كل سنة عيراً بتجارة إلى الشام ، وكانت
هذه القوافل تزيد شأنًا عامًا فعامًا .

ولما بلغ أذى قريش من المسلمين ما بلغ ، حتى اضطر هؤلاء
إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم الهجرة الكبرى إلى المدينة ، واعتز
المسلمون وقوا . . . كان أول أمر ينتصفون به لأنفسهم ،
ويحملون أعداءهم من قريش بسببه على الكف من كيدهم وأذاهم
لمن في بلدهم من ضعفة المسلمين ، هو التعرض لتجارهم ، لعلمهم
أن ذلك أبعث على الرعب وأبلغ في النكاية بهم ، فأرسل
الرسول صلى الله عليه وسلم سرية عليها عبد الله بن جحش أمير ،
لتعرض لعير قريش ، وكانت راجعة من الشام فترصدها بموضع
بين مكة والطائف يعرف بنخلة ، وكان في العير العلاء بن
الحضرمي ، فلما مرت بهم حملوا على من فيها واحتجزوا الأموال
وكانت زيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش . فقتل من حامية
القافلة من قتل ، وأسر من أسر وقوى الله المسلمين بما غنموا من

عدوهم الذي أخرجهم من ديارهم وأبنائهم ، وبلغ الخبر قريشاً
فكانت الأذية منهم بالغة .

وكان السبب في استدراج المسلمين قريشاً إلى المعركة الحاسمة
بين الإسلام والشرك في بدر الكبرى تجارياً أيضاً : فإن قريشاً
أقبلت لها عير من الشام عليها أبو سفيان في ثلاثين راكباً ،
وكان فيها معظم أموالهم ، قدرها المؤرخون بخمسين ألف دينار ،
وقالوا : « لم يبق قرشي ولا قرشية له مثقال إلا بعث به في العير .
وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرها فتجهز ليتعرض لها ، ولكن أبا
سفيان أخذ على الساحل فنجابها بعد أن أرسل إليهم نذيراً ضمضم
ابن عمرو الغفاري يستنفرهم إلى العير . فجدع هذا أنف بعيره
وحول رحله وشق قيصره من قبل ومن دبر وصرخ في أهل
مكة : إن محمداً مع أصحابه قد عرض لعير قريش ، يا معشر
قريش ! اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها
محمد في أصحابه ، ما أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث . . .
فنهضوا وقالوا : « أليظن محمد وأصحابه أن تكون كعير
ابن الحضرمي ، كلا والله ، ليعلمن غير ذلك . » وخرجوا ألفا بين
فارس وراجل ، كل من قدر على النهوض نهض ومن لم يستطع
أرسل بماله وسلاحه من يقوم مقامه . وكان كل ذي خطر إما في

العر مع أبي سفيان ، وإما في النفير إلى بدر ، وصاروا بعد ذلك إذا استصغروا أحداً قالوا : « لا في العير ولا في النفير » فأرسلوها مثلاً في الناس .

ثم نجت العير ، والتقى الجمعان في بدر الكبرى وكان من أمرهم ما يعلم الجميع .

وليس يصور لنا ذلك الغنى المستفيض إلا الأخبار التي أثرت عن كبار القرشيين في الجاهلية والإسلام ، ولا بأس في ذكر عبد الله بن جدعان مثلاً في ذلك :

فقد تقدم أنه كان يبسط الموائد في مكة يطعم الناس الفاوذج وله جفنة عظيمة يأكل منها الفارس على فرسه ، وفي الحديث : « كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عمي ^(١) » ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك فقد كان يتخذ القيان يغنيه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضي عن الناس ديونهم ، وله شاعر هو أمية بن أبي الصلت ، وكان يلقب بجاسي الذهب ، وما أجد حاجة إلى التنبيه على بطلان خرافة الكنز التي ذكروها ليرروا وجود كل هذا الغنى عنده ، فليس من كسب له ولا لقومه سوى التجارة ، وما عرفنا أن رمال الجزيرة مما تبطن الكنوز .

(١) صكة عمي : حين اشتداد الحاجة .

وأصحاب السير يقدمون لنا حساباً نستطيع أن نعتمد عليه
هنا في معرفة أرباحهم التجارية لنقدر نحن بعد ذلك الأمد الذي
للفوه في الثروة قالوا : إن قريشاً لما رجعوا من هزيمة بدر إلى
مكة ، وقد أصيب أصحاب القليب ورجع أبو سفيان بعيره
(سأله) مشى جماعة من أشرف قريش ممن أصيب آبائهم وإخوانهم
وأبنائهم يوم بدر فقالوا : « يا معشر قريش : إن محمداً وترككم
وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربته » يعنون عير أبي سفيان
ومن كانت له في تلك العير تجارة ، والعير - كما تقدم من عادتهم -
تنزل أول ما تنزل في دار الندوة حتى يتفق أصحابها على إخراجها
للبيع ، فائتمر القرشيون وشركاؤهم أن ينفقوا ربح هذه العير
على تجهيز جيش يحاربون به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكانت
ألف بعير موقرة بما قيمته خمسون ألف دينار ، وكانوا يربحون
بكل دينار ديناراً - على ما نقل الزرقاني - فيكون ما أنفق على
هذا الجيش خمسين ألف دينار أو - على رواية المقل - خمسة
وعشرين ألف دينار . وهو على كل حال مبلغ ضخم جداً ،
وكان عدد من استأجرهم أبو سفيان من الأحابيش فقط ألفين . .
وفي هذا الحادث نزل قول الله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ . الآية » الأنفال ، الآية ٣٦ .

وخلق بمن كانت أرباحهم بهذا المقدار أن يثروا في المدة الوجيزة الثراء الكبير . ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ من العباس الفداء يوم بدر فكان مقداره عشرين أوقية من ذهب ، وأن عثمان بن عفان وحده جهز جيش العسرة (تبوك) ألف بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ولما كانت الفتوحات زاد غناه بما لا يقدر حتى إن ابن سعد صاحب الطبقات ليروي (٣ : ٥٣) أنه « كان له عند خازنه يوم قتل (٣٠٦٥٠٠٠٠) درهم و (١٥٠) ألف دينار فانتهبت وذهبت وترك ألف بعير بالربذة ، وترك صدقات كان تصدق بها بيرايس وخير ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار . »

وليس ما يروى في تقدير ثروة عبد الرحمن بن عوف بالقليل فقد ذكر ابن سعد^(١) عنه أنه : « قدم المدينة فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فقال له سعد : أخي أنا أكثر أهل المدينة مالا فانظر شطر مالي فخذ ، وتحتي امرأتان فانظر أيتما أعجب إليك حتى أطلقها لك . » فقال

عبد الرحمن : « بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلو في على السوق . »
 فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله
 أن يلبث فجاء وعليه ردع (لطح وأثر طيب) من زعفران فقال
 له رسول الله صلى الله عليه وسلم « مهيم » فقال : « يا رسول الله
 تزوجت امرأة » قال : « فما أصدقته ؟ » قال : « وزن نواة من
 ذهب . » قال : « أولم ولو بشاة . » فقال عبد الرحمن : « فلقد
 رأيته ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً . » وحسبك
 هذا دليلاً على مهارتهم في الاتجار وخبرتهم بطرق الكسب .
 أما تركته فكانت « ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة
 فرس ترعى بالبقيع . . . وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس
 حتى مجلت أيدي الرجال منه . وترك أربع نسوة ، فأخرجت
 امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً ^(١) » وقد باع مرة أرضاً له بأربعين
 ألف دينار ، فتصدق بها كلها ، وتصدق مرة بسبعائة جمل
 بأحماها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل الله بخمسائة فرس عربية ^(٢)
 « وأوصى في السبيل بخمسين ألف دينار ^(٣) » .

« وكان الزبير بن العوام كثير المتاجر والأموال قيل : كان

(١) ابن سعد ٩٦ والمجل أن يكون بين الجلد واللحم ماء من العمل .

(٢) الذهبي . (٣) ابن سعد ص ٩٦ .

له ألف مملوك يؤدون الخراج فربما تُصدق بذلك في مجلسه ،
وقد خلف أملاكاً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم ^(١) .

« وأرسل سعد بن أبي وقاص إلى مروان ، بركة عين ماله
خمسـة آلاف درهم ، وترك يوم مات (٢٥٠٠٠٠) درهم ^(٢) » ومهما
تسقط من هذه الأرقام مما تقدّر أنهم كسبوه من غنائم الحرب
فسيبقى لك بعد ذلك مقادير وأموال طائلة .

فهذا دون شك غنى واسع ، ودنيا عريضة ، وتوفيق عجيب
أتيح لهؤلاء التجار ، وإن كلمة عبد الرحمن بن عوف « لورفعت
حجرأ لرجوت أن أصيب تحته ذهباً » لتشرح لك مدى التوفيق
التجاري الذي أحرزوه بما اتقنوا من هذه المهنة ، وما تفننوا في
أساليبها وطرقها .

واظن هذا القدر كافياً في الدلالة على مبلغ اهتمام قریش
بالتجارة حين جعلوها ديدنهم ومعاشهم وهجيراهم في مجالسهم
وأسمارهم ، الكبير منهم والصغير والرجل والمرأة سواء ، كل
يساهم في العير بما يستطيع ، وله من الربح على قدر ماله . كانوا
يذهبون راحلين إلى اليمن أو إلى الشام أو إلى العراق ، كل

أسرة ترسل من أفرادها من استطاع ، ولا يكادون يعرفون
في العرب بعمل غير التجارة * .

* [أضاف الزمن على تاريخ قريش هذا ثوباً من التقديس لمكان النبوة
منهم ، فكان كثير من علماء المسلمين ومتكلميهم يسبغون على قريش ألواناً
من الإجلال والتعظيم لما تكنه قلوبهم لنفر النبي صلى الله عليه وسلم ، وصرنا
نسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر
ومثل قول أبي تمام :

تلكم قريش لم تكن آباؤها تهفو ولا أحلامها تنقسم
حتى إذا بعث النبي محمد فيهم غدت شحناؤهم تنضم
عزبت عقولهم وما من معشر إلا وهم منهم ألب وأحزم
ومن الخير للقارئ أن يطلع على هذه النظرة ليكون الإمامه محيطاً
شاملاً ، وليرى فيما سدرجه له امتداداً لنظرة عرب الجاهلية إلى قريش
النظرة الدينية التي أسهبنا في وصفها ، وإليك أقوالاً لرجال ثلاثة مختلفين ،
تمثل في الجملة آراء الناس حتى القرن الرابع ، أما من بعدهم فتبع لهم في ذلك :

١ — قال العنبي : شهدت مجلس عمرو بن قتبة وفيه ناس من القرشيين

فتشاجروا في موارث وتجادوا ، فلما قاموا من عنده أقبل علينا فقال :
« إن لقريش درجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالاً تخضع لها رقاب
الأموال ، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة ، وألسنة تكل عنها الشفار
المشحوزة ، ولو احتفلت الدنيا ما تزينت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضاقت
بسمة أخلاقهم . » (العقد الفريد ٢ : ٢٠٨) .

٢ — قال الجاحظ : قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ،

وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها
وقدبيرها ، وكيف إيجازها وتخيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف
الحليم ، وحدة أذهانها إذا اكل الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها
في اللأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حب
المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ،
وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ، ودعاؤها إليه ،
وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعرافها ، وكيف وصلوا قديمهم بمحدثهم ،
وطريفهم بتأديهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة
صدر أحدهم إلا على قدر بعد غرره ، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه ، وهل
خله إلا كيقين غيره .

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها ، وكيف نماؤها وبهاؤها ، وكيف
سرورها ونجاتها ، وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداتها .
فالعرب كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبتها ،
وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الأرض وزينة الدنيا ، وحي العالم ،
والسنام الأضخم والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر
شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم
وينبوع العلم ، وثعلان ذو الهضاب في الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع
الأناة والحزم ، والصفح بعد المقدرة . وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم ،
وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان ، وكالذهب
لا يعرف بالنقصان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمان ، ومنهم الثقلان
والأطيان والسبطان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وذو قرونيها ، وسيد
الوادي ، وساقى الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والخبر ، والأنصار
أنصارهم ، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم .

والفاروق من فرق بين الحق والباطل ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو يضاف إليهم . وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم يبق لنبى نبوة إلا بعد التصديق به ، والبشارة بجميعه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون » زهر الآداب ١ : ٩٤ .

وقال أيضاً : « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهي معلوم وعليها معتمد ، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ، ولقد بلغت بسالتهم ووصفت لك جلادتهم ، ونعتت لك أحلامهم ، وثقت لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبذلهم ومواساتهم . » رسائل الجاحظ ، الرسالة السادسة في مدح التجار وذم عمل السلطان .

٣ — قال الثعالبي بعدد مناقب فريش أهل الله : « ومنها ثبات جودهم وجزالة عطايهم ، واحتمالهم المؤن الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة ، ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة التي هي صناعتهم ، والتجار هم أصحاب التزويج والتكسب والتدنيق ، وكان في اتصال جودهم العالي على الأجواد ، من قوم لا كسب لهم إلا من التجارة عجب من العجب ، وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسي واستحلل الأموال ، فلما زهدوا في المغموس لم يبق مكسبة سوى التجارة ، فضرَبوا في البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة ، والمقوفس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خطاء ، فكانوا مع طول ترك الغزو إذا غزوا كالأسود على برائنها ، مع الرأي الأصيل ، والبصيرة النافذة . . . » ثمار القلوب للثعالبي ص ٩

ب- ايلاف قريش

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ »

إيلاف قريش، [وإذا شئنا التعبير بلغة عصرنا قلنا المعاهدات التجارية] مستفيض الشهرة في كتب السير والتاريخ والأدب .
وقد أخبر به القرآن الكريم . وهو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قبل الإسلام .

وفي تحديد معنى الإيلاف مذاهب ، منها :

١- أنه الدأب ، فسر به بذلك ابن سعد صاحب الطبقات .

ومنها :

٢- أنه ربح مخصوص جعله هاشم لروءساء القبائل فيحمل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق إليهم إبلًا مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ويكفي قريشاً الأعداء^(١) . ومنها :

٣— أنه العهد وشبه الإجازة والخفارة قاله صاحب القاموس .
ومن التفصيل الذي سندسوقه لك تعرف أن المعاني الثلاثة
تجتمع في الإيلاف معاً .

ذكر الثعالبي أن قريشاً « كانت لا تتاجر إلا مع من ورد
عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم ،
لا تبرح دارها ولا تجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم والحب
لحرمهم والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم .
وكانوا بؤادٍ غير ذي زرع كما حكى الله عن إبراهيم حين قال :
« رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ »^(١) . » إبراهيم ، الآية : ٣٧

فكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك ، وأبعد في
السفر ، ومرة بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله ،
هاشم بن عبد مناف . وكانت له رحلتان : رحلة في الشتاء نحو
العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من أرض الحبشة ،
ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم .

وأبى رواية الأخبار إلا أن يجعلوا لهاتين الرحلتين بدءاً يكون
لها كالسبب والعلة فرووا عن ابن عباس :

« أن السبب في هاتين الرحلتين هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم خمسة ، خرج هو وعياله إلى موضع ، وضربوا على أنفسهم خباءً حتى يموتوا ؛ إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والجاعة . فدخل أسد على أمه يبكي ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً . ثم أتى ترب أسد مرة أخرى وشكا إليه الجوع . فقام هاشم خطيباً في قريش فقال :

« إنكم أجدبتم جدباً ثقلون فيه وتذلون . وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع . » قالوا : « نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف . »

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم . فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش . وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي^(١)

(١) بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ ، والكافي الغني .

وكان هاشم يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل ورؤساء العشائر لخصلتين : « إحداهما أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً كبنى طي وخثعم وقضاة . وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له ... فكان الإيلاف صلاحاً للفريقين إذ كان المقيم راجحاً والمسافر محفوظاً فأخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها . »

وقول الله : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ . » يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف ، والخوف الذي كانوا عليه ممن يرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال وهو قوله عز ذكره : « تَخَافُونَ أَنَّ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ » يعني في تلك الأسفار ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم وأمنهم . لأن الله يقول : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا » مع قوله : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » وقوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ . »

وقد عم مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف لأن جميعهم قد فعل ذلك فقال :

يا أيها الرجل المحوّل رحله هلا حلت بآل عبد مناف
المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف^(١)
سفرين سنهما له ولقومه سفر الشتاء وسفرة الأصيل
وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب قال
الشاعر وهو يردّ على بني أسد ما يدعونه من قرابة قريش :
زعمتم أن إخوتكم قريش لهم ألف وليس لكم إلف
أولئك أومنوا خوفاً وجوعاً وقد جاعت بنو أسد وخافوا. اهـ
وهناك قول بتفسير الإيلاف غير صحيح جاء في شرح ابن
أبي الحديد وهو قوله : « إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل
ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها مكة » والأمر على العكس
فالمستفيد من الإيلاف مادة هم رؤساء القبائل ، ومكة لم يؤثّر
أن اعتدى على حرمتها أحد من العرب فبلغ منها .

وقد آن أن نذكر الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي
عقدها هاشم وإخوته المطلب وعبد شمس ونوفل مع العرب والروم
والحبشة وفارس فأخرجوا بذلك تجارة قريش من طابعها المحلي

(١) لهذا البيت روايات ، والتي هنا من سيرة ابن هشام

وأفقهها المحصور إلى الآفاق الأجنبية فصارت لقريش العلاقات الخارجية مع الدول المعروفة حينئذ وأثرت هذه العلاقات في حالاتها الاجتماعية أثراً بعيداً نحن متعرضون له بعد قليل .

ومتى عرفنا ما أسدى أولاد عبد مناف لقريش وللعرب من أياد تبيناً مدى الصدق في قولة ابن عباس :

« والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لهم العير لهاشم ، والله ما شدت قريش رحلاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم . »

ونحن فيما سنعرض عليك من حديث ، عيال على القالي الذي انفرد دون غيره من أصحاب الأمهات بتفصيل تلك الأحلاف ولا بد من تنبيهك إلى أن العرب كثيراً ما تسمي عامل الشام قيصر وهو المراد في حديث القالي ، ولعل عامل أنقرة هو المراد أيضاً من قيصر أنقرة فيما روى ابن سعد في طبقاته إذ قال :

« كان اسم هاشم عمراً وكان صاحب إيلاف قريش . وإيلاف قريش دأب قريش وكان أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل إحدهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه ، ورحلته في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ

(أنقرة) فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه ^(١) . »

ولا ينبغي أن تستغرب ما تقرأ في رواية القالي من اهتمام قيصر بهاشم فإن الروم كانوا يهتمون بمن ينزل أرضهم من العرب الغرباء وليس من المعقول أن يكون أمرهم هملاً فالغالب أن هناك موظفين وعيوناً من العرب أو ممن يعرفون العربية يوافون العامل بأخبار الطرء والتجار الأجانب قال أبو علي القالي « الأماي ٣ : ١٩٩ » :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ،

إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى :

١ - ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر ،

فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك

لقيصر فقبل له : « هاهنا رجل من قریش يشتم الخبز ثم يصب

عليه المرق وينرغ عليه اللحم . » وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز . فدعا به قيصر ، فلما رآه وكماله

أعجب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه .

فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : « أيها الملك ! إن قومي
تجار العرب ، فإن رأيت أن نكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم
فيقدموا عليك بما يُستطَرَف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم
فهو أرخص عليكم . » فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم .
فقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحجّ من أحياء
العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً — والإيلاف أن يأمنوا عندهم في
أرضهم بغير حلف ، وإنما هو أمان الطريق — على أن قريشاً
تحمّل إليهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويؤدون إليهم رؤوس
أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل
الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا
بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ويوفّيهم إيلافهم الذي
أخذ لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلام قراها . ومات في
ذلك السفر بغزة .

ب — وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من
ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل
هاشم . وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمى الفيض
وهلك بردمان من اليمن .

ج — وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة ، فأخذ

إيلافاً كفعل هاشم والمطلب وهلك عبد شمس بمكة فقبّره بالحجون .
 د - وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ
 عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مرّ به من العرب .
 ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان .
 واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها . فبنو
 عبد مناف أعظم قريش على قريش منه في الجاهلية والاسلام . اهـ
 يمتاز هذا الخبر مما تقدمه بالدقة فقد عرفنا أن صاحب القاموس
 فسر الإيلاف بالعهد . وما يتبادر إلى الذهن من ذلك حقوق
 متقابلة وحلف دائم فقصر الإيلاف هنا على أمان الطريق فقط .
 وخرجنا من رواية القالي بأربع معاهدات تجارية ، إلا أن
 الفكر ليستشرف لمعرفة نصوص هذه المعاهدات ويتوقع تفصيلاً
 أكثر . أما الكتاب الذي أشار القالي إلى أن قيصر كتبه لهاشم
 فإننا لم نجد له ذكراً بعد موت هاشم ، فيما بين أيدينا من المصادر .
 وهو - إن صح وقوعه - من الخطر بمكان ، بل هو مما يجب
 أن يعرض عليه بنو هاشم بالنواجد ففيه لهم نخر كبير وهم
 الحريصون على قيد كل صغيرة وكبيرة مما يدخل في باب المفاخرة
 فمن العجيب سكوت الأخباريين عن ذكره في المناسبات التي
 كثيراً ما تعرض .

يزيد ابن سعد في طبقاته ، فيذكر لنا شيئاً مما في عهد
قيصر ، ويذكر أيضاً كتاباً آخر أرسله قيصر إلى النجاشي يوصيه
بهم ولم يشر إلى شيء من مضمون هذا الكتاب قال (طبقات
١ : ٤٥) : « كان هاشم رجلاً شريفاً وهو الذي أخذ الحلف
لقريش من قيصر لأن تختلف آمنة . وأما من على الطريق (يعني
قبائل العرب) فالفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء
على أهل الطريق . فكتب له قيصر كتاباً وكتب إلى النجاشي
أن يدخل قريشاً أرضه . »

وفي شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٥٨) أن هاشماً سأل قيصر
أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمناجر وأن يكتب لهم كتب
الأمان فيما بينهم وبينه ففعل . والغموض الذي في الرواية المتقدمة
يكتنف هذه أيضاً فليس فيها صيغة هذا الأمان ولا شروطه .
ومهما يكن من شيء فالإلى هؤلاء الإخوة الأربعة ، يرجع
الفضل كله في تسمير تجارة قريش وبنائها على أسس قوية حتى
اتسعت فصارت شبه دولية بعد أن كانت موضعية لا تعدو
الأسواق القريبة من مكة . فهم في الحقيقة أبطال قريش ورجالاتها
في الاقتصاد وهم دعائمها التجارية التي قامت تلك الثروة العريضة
بمساعيهم وكفاءتهم ، وليس بقليل أن تفتح أربع ممالك أسواقها

لقوافل قريش وتجاراتها . وما أنا إلى الغلو إذا زعمت أن فضل هذه الأحلاف امتد حتى زمن الإسلام وأن المسلمين الأولين ما اختيرت لهم الحبشة مهاجرين إلا لاعتيادهم الرحلة إليها متاجرين وإلا لمعرفتهم بها وبأهلها لكثرة ارتيادهم إياها وحمدهم مقامهم فيها وحسن ما يلقون من معاملة طيبة .

في الخبر بعد ، إشارة إلى كرم هاشم وكثرة إنفاقه على إخوانه وأن أفعاله نمت على أصله وسيادته وشرفه ، كما فيه تصريح بأسلوب الروم وأسلوب العرب في أكل اللحم والمرق وكيف عجب الروم من الثريد لأنه طراز لم يألوه .

* * *

ذكروا أن اللام في قوله تعالى أول السورة : « لا إيلاف قريش » للتعجب فالمعنى : اعجبوا لا إيلاف قريش ، وآخرون علقوها ومجرورها بالفعل فقالوا إن المعنى : فليعبدوا رب هذا البيت لا إيلافهم . فجعلوا الفاء في الفعل زائدة لتحسين اللفظ وتقوية المعنى كما في قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » وجعلوا « إيلاف » الثانية توكيداً للأولى .

وقد امتن الله عليهم بإيمان خوفهم من الغارات والحروب والقتال

وغير ذلك من الأمور التي يخافها كل عربي غيرهم حتى إن الرجل منهم ليصاب في حيٍّ من أحياء العرب فإذا قال حرمي (أي من أهل الحرم) أطلقوه وكفوا عن ماله إكراماً له .

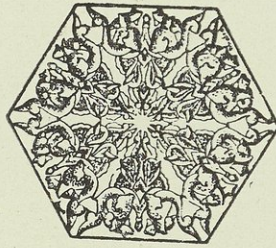
وقد أَمَّنَ الله أهل مكة من خوف آخر هو جيش أبرهة أصحاب الفيل حين ردهم الله عن مكة والبيت بعد أن اعتصم أهلها بالشعاف والهضاب . وأَمَّنَ عليهم حين أنقذهم من جوع السنين التي أصابهم قحطها من قبل . فذكر ابن عباس وعكرمة ^(١) أن الله أمرهم في هذه السورة بالإقامة بمكة لعبادة رب هذا البيت . إذ كفاهم مؤونة رحلتهم بعد أن كانوا لا يكادون يوتاحون في صيف ولا شتاء .

لخص صاحب القاموس ما تقدم حين عرض لتفسير الإيلاف فقال :

« والإيلاف في التنزيل (العهد) وشبه الإجازة بالخفارة وأول من أخذها هاشم من ملك الشام ، وتأويله أنهم كانوا سكان الحرم ، آمنين في امتيارهم ونقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يُتَخَطَّفُونَ من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : « نحن أهل حرم الله » فلا يتعرض لهم أحد ... وكان هاشم يوءلّف إلى الشام ،

(١) راجع أقوال المفسرين في ذلك .

وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس .
وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجمال (عهود)
هوئلاء الإخوة ، فلا يتعرض لهم . وكان كل أخ منهم أخذ
جبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له . «



ج - حلف الفضول

ما نظر القرشيون إلى حلف ولا عهد ، نظرهم إلى حلف الفضول فهو يظفر منهم برعاية مقدسة وتبجيل وشرف قلما كان بعضه لأي حلف آخر .

هو حلف تجاري بمقدماته ونتائجه ، حفظ سمعة قریش وصال ازدهار أسواق مكة ، وأسدل عليها ستاراً من الإيصال والأمن وحماية الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر وكادت حوادث الاعتداء على حقوق الضعفاء تزداد حتى أوشكت أن تززع ثقة الأعراب وتجار النواحي بأسواق مكة .

ولم تنحصر ثمرته فيما سبق الإسلام بل استمرت فيه وازدادت به تأييداً وقوة ومنعة ، أثنى عليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم واعتز به ، ولما هتف الهاتف به بعد نحو ثمانين سنة من عقده استجاب الناس له كأن عهدهم به أمس ، فكان جديداً لم تخلق جدته تلك السنون الثمانون التي تمخضت عن أعظم الحوادث

الكبار : ظهور الشريعة الإسلامية ، وفتوح العرب وانقراض فارس وانكماش الروم . أهاب الداعي بأصحابه (وقد مات أكثرهم) فهب أبناؤهم متحفزين لنصرته حتى خافت القوة الحاكمة وأذعن والي المدينة ، ورُد الحق إلى صاحبه . ولقد بلغ من شرفه واقتماعه تلك المكانة من نفوس الناس أن استشرف خليفة عظيم كعبد الملك بن مروان ليعده الناس ممن دخل فيه ، فلما لم يظفر بذلك نددت منه حسرة غير خفية .

* * *

كان يهبط مكة من همل الأعراب وسُدَّاجهم ، وضعفاء المتكسبين وأرباب السلع ، أخلاط كثيرة ، وهم لا ناصر لهم يحميهم ولا منعة فيهم ، يؤثمون أسواق مكة موقنين بأن أمن الحرم يسعهم جميعاً . فلم يكونوا يتوقعون أن أحداً تحدّثه نفسه بتكدير صفائه . لكن الواقع انكشف عن أنه لم تكن مكة لتخلو من أناس بطرين ، يستهينون بالضعيف ولا يعفون عن هضمه وسلبه . وكان يحدث حينئذ ما يحدث دائماً في كل زمان ، من استغلال السذاجة في هؤلاء الغرباء : تارة بغبنهم في الثمن وتارة بمظلمهم بالديون وآونة بغشهم وأخرى بالاستهتار بهم . وكانت تمتلئ هذه الحوادث حتى تصل إلى أسماع أشرف مكة

فينكرونها في أنفسهم . إلا أنها - في الظاهر - تعددت حتى لم يعد يصح السكوت عليها ، وحتى خشي على البلد أن يفشو له ذكر سيء فسعى الأشراف بعضهم إلى بعض وعقدوا الحلف وأكدوه ونصبوا أنفسهم لحمايته .

أما السبب المباشر لعقد هذه الحلف فما ذكروا ^(١) من أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعة من العاصي بن وائل السهمي (وهو قرشي) فظلمه بالثمن فذكر ظلامته في شعر له وهو :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته يبطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا لأرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لشوب الفاجر الغدر

فتداعت لذلك قريش واجتمعت إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فدخلوا دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاقدوا بالله : ليكون مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه . فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . اهـ
شهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فتى فلما

أكرمه الله بالرسالة حمد أثره وكان به جدلاً مغتبطاً حتى روي عنه قوله :

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ؛ ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت . »
 وكان هذا الحلف منصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنة من عام الفيل فتكون سن رسول الله حينئذ عشرين سنة ^(١) .
 وذكروا في سبب تسميته حلف الفضول ، أنه أشبه حلفاً وقع لثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل . وأقرب من هذا المذهب إلى الواقع ما ذكره صاحب القاموس من أن سبب تسميته بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه .

وهذا هو الصحيح لوضوحه وقربه ولأن ثمرة الحلف كله هي رد الفضول لأهلها .

ومن يتدبر الأسباب التي تكلفها الرواة فجعلوها كمقدمات لعقده ويمحصها يجد أن الداعي الأول له حرص قريش على سمعة بلدهم التجارية أن ثلم بين العرب فتزعزع ثقتهم بقريش وبلدهم . وليس يظفر من كل تلك الأسباب المذكورة بالقبول إلا ما تقدم

فإن الحوادث وحالة مكة وأمور قریش يومذاك تؤيده كل التأييد .
ومن البعيد أن يعقد مثل هذا الحلف من أجل ظلامة الزبيدي
هذا ، من غير أن نتكرر الحوادث المشابهة لها حتى نفاقم الأمر
وألف رجال كثيرون إتيان المظالم .

عظمت قریش أمر حلف الفضول واهتمت به كل الاهتمام
ولم ينقطع أمره بالإسلام بل ظل مستمراً أقوى ما كان قط
وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولو أدعى به في
الإسلام لأُجبت » ويحلو لي هنا أن أبين للقارئ امتداد هذا
الحلف التجاري في حياة المسلمين وتمسكهم به فابن هشام يروي :
أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كان والياً على المدينة ، ولأه
عليها عمه معاوية . وكان بين الوليد وبين الحسين بن علي منازعة
في مال كان بينهما بذي المروة . وكان الوليد تحامل على الحسين
في حقه لسلطانه يومئذ فقال الحسين : « أحلف بالله لتنصفني من
حقي أو لاخذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول . » وكان عبد الله بن
الزبير حاضراً مجلسهما هذا فغضب للحسين وقال يتهدد الوليد :
« وأنا أحلف بالله ، لئن دعا به لأخذن سيفي ثم لأقومن معه
حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . »

وبلغ هذا الخبر المسوّر بن مخزّمة بن نوفل فقال مثل ما قال ابن الزبير ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك ...

فلما بلغ كل هذا الوليد بن عتبة خاف مغبتها وأنصف الحسين من حقه ^(١) .

فأنت ترى كيف كان القوم سراعاً إلى تنفيذ هذا الحلف وكيف تهيؤوا لنصرته وللاستجابة لمن دعا به وهو أثر غير قليل . وأي معاهدة تمضي فتبقى لها مثل هذه القوة بعد أكثر من سبعين سنة من عقدها !

بل لقد تحمس لها الصحابة أشد التحمس وكان اندفاعهم لصيانتها أقوى مما تقدم ، لقد تحفّزوا للقيام بوجه خليفة ذي سلطان قاهر و كادت تكون فتنة لولا أن أذعن معاوية كما أذعن واليه عتبة ، ومن الخير أن أنقل لك صورة هذا الاندفاع لتتعرف مدى بلوغها من قلوب القوم : جاء في شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٦٤) ما يأتي :

« كان بين الحسين ومعاوية كلام في أرض للحسين ، فقال له الحسين : اختر مني واحدة من ثلاث خصال : إما أن تشتري

مني حتي وإما أن ترده عليّ ، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر
وابن الزبير حكماً ، وإلا فالرابعة وهي الصيلم^(١) . قال معاوية :
وما هي ؟ قال : أهتف بحلف الفضول ... ثم قام فخرج وهو
مغضب ، فمر بعبد الله بن الزبير فأخبره فقال عبد الله : والله لئن
هتفت به وأنا مضطجع لأقعدنّ ، أو قاعد لأقومنّ ، أو قائم
لأمشينّ ، أو ماش لأسعينّ ، ثم لتنفذنّ روعي مع روحك أو
لينصفنك ...

فبلغت معاوية فقال : لا حاجة لنا بالصيلم . ثم أرسل إليه :
« أن ابعث فانتقد مالك فقد ابتعنا منك . »

ومما لا شك فيه أن موقف غير ابن الزبير لو استفحل الأمر
سيكون مثل موقفه ومعاوية أدهى من أن يؤلّب عليه من لم
ينفض يده بعد من تألفهم ، ومن لا تزال السيوف التي حاربوه
بها على عوائقهم ، لما ينقض على إغمارها كبير زمن وما هي بحاجة
لتشهر إلى كبير أمر ...

وانظر هذه الحسرة الخفية من يعسوب الأمويين عبد الملك
ابن مروان ، على أن أمية لم تدخل الحلف ، وتأمل كيف أراد
بصورة غير مباشرة أحد سراة بني نوفل ، على أن يتملقه فيشهد

(١) الداهية والأمر العظيم .

له بدخول أمة ونوفل فيها وكيف لم يستطع هذا إلا أن يجهر
له بالحق لقرب العهد بأصحاب الفضول ولأن الذين يعرفونها
ويعرفون عاقدتها لم يموتوا بعد قال ابن هشام :

« كان محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد
مناف من أعلم قريش ، فدخل على عبد الملك بن مروان حين
قتل ابن الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك ، فلما دخل عليه
قال له : « يا أبا سعيد : ألم نكن نحن وأنتم (يعني بني عبد شمس
ابن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف) في حلف الفضول ؟ »
قال محمد : « أنت أعلم ! . » قال عبد الملك : « لتخبرني يا أبا
سعيد بالحق من ذلك . » فقال : « لا والله ، لقد خرجنا نحن وأنتم
منه . » قال : « صدقت . »

كانت قريش إذن ذات مشا كل تجارية فقامت لها هذه الحلف مقام
الحاكم التجارية والقوة التنفيذية معاً فكان سلطانها مهيباً في النفوس ،
وكانت خير وازع لمن تحدته نفسه بظلم وإن تمتع بالسلطان ،
وكانت أحسن ضامن لحقوق الضعفاء ممن عدموا المنعة والنصير .

د - حرب الفجار

أفردت هذا البحث وإن كان حقه أن يذكر في أحداث سوق عكاظ ، لخطره وبعد أثره ولأن هذا الفجار كان في حقيقته نزاعاً على النفوذ التجاري والأدبي ، بين قريش وأحلافها وبين هوازن القبيلة المعروفة بعددها وبطشها .

وقعت هذه الحرب و كان بود قريش ألا تقع ، لملها إلى السلم الضروري لتجارتها وكانت تجنب إلى السلم في كثير من أمورها وخاصة مع قبيلة هوازن التي لها القوة والمنعة حول عكاظ . فإن قريشاً ترهب جانبها وتجنب ما يعكر الصفو بينها وبين هوازن حرصاً على سلامة الموسم وعلى تجارتها فيه . يدلنا على ذلك أن عبد الله بن جدعان كان طرد مئة ناقة لكلاب بن ربيعة فأرسل كلاب إلى قريش : « إن سفهكم أغار علي وطرد لي مئة ناقة ، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ولي عليكم ترة . » وكانت عكاظ في وسط أرض قيس بن عيلان . قال ابن جدعان : « وإن قريشاً ائتمرت بقتلي ، لئلا أجني عليهم

الجرائر فيطلبون بسببي وهم تجار لا يستغنون عن بلد .^(١) «
وهذا صريح في إشفاق قریش من كل ما يعكر أمن تجارتها
وقد أذعنت للتهديد حتى كادت تسلم أحد أفرادها ، وهو شيء
لا تسمح به العرب أبداً حتى تفنى عن آخرها . وبهذا عرفوا ،
وما كانت قریش لتخرج على ذلك لولا الضرورة الملحة ولولا
أنها تهدد موردها الوحيد وهو التجارة .

أيام الفجار أربعة . وإنما نريد هنا الكلام على الفجار الآخر
أي الرابع لأنه هو الذي أدى إلى الحروب ، وهو الذي كان
سببه التزاحم على الكسب والتجارة . أما بقية الأيام فسنمر بها
عند الكلام على عكاظ .

وقد سميت بالفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم وهي الشهور
التي تعظمها العرب وتحرم فيها القتل والقتال فيما بينها . فلما خرج
المتحاربون فيها على شريعة العرب كانوا فاجرين بذلك . وأيامها
خمس تفرقت على أربع سنين . وها نحن أولاء نأتي عليها
بالتفصيل الممكن معتمدين فيه على الأغاني وبلوغ الأرب وعلى
العقد الفريد خاصة .

سفرها :

من الصعب تعيين سنة هذه الحروب لما ورد فيها من تضارب الروايات ، فقد أجمعت المصادر على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضرها بنفسه ثم افترقت فرقتين : فابن هشام ومن تابعه يجعلون سن الرسول لما حضرها أربع عشرة سنة ومنهم صاحب العقد الفريد الذي يروي في ذلك حديثاً هذا نصه : « كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة . » وابن إسحق ومن تابعه — ومنهم صاحب القاموس والأصفهاني وابن سعد — جعل سنه حينئذٍ عشرين سنة . وهناك غموض آخر اشترك فيه الفريقان معاً وهو أن أيام الفجار الآخر تفرقت على أربع سنين ففي أيتهن كان عمره أربع عشرة أو عشرين ؟ وأنا لم أهتم بعد إلى الحق الذي لاحق غيره في هذه الروايات . ونبله صلى الله عليه وسلم على أعمامه فسر بوجهين : أما صاحب العقد الفريد فقال : أنبل بمعنى أناولهم النبل وهو خلاف ما ذهب إليه ابن هشام في سيرته من أن معناه أنه كان يرد عنهم نبل عدوهم . إلا أن تعدية الفعل بـ (على) ترجح التفسير الأول فقد جاء في القاموس : نبل عليه : لقط له النبل . وروى الحديث (في مادة فجر) — وكذلك رواه ابن سعد — على

هذه الصيغة : « كنت أنبل على عمومي يوم الفجار ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أني لم أكن فعلت . »
فإن يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حضر الأيام جميعها وكانت سنه أول ما هاجت خمس عشرة سنة - على إحدى روايتي ابن هشام - أمكن التوفيق بين الروايات على وجه التقريب فتكون الحرب قد وضعت أوزارها وقد أشرفت سنه على العشرين . فكان يلتقط السهام في أولها ويرمي بنفسه في آخرها . فعلى الرواية الأولى تكون الحرب قد وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاما وتوافق سنة (٥٨٥) للميلاد المسيحي .

سبب الحرب :

من عادة النعمان بن المنذر ملك الحيرة أنه يرسل كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة (وهي الجمال تحمل المسك والطيب) بجوار رجل شريف من أشراف العرب ، يحميها له حتى تصل إلى السوق فقباع فيها ويشترى له بثمانها أدم من أدم الطائف . ولا يقوم عادة بعبء حمايتها إلا رجل منيع ، لقومه عدد وعزة . وكان الذي يحيرها في الغالب سيد مضر ^(١) .
فلما جهز النعمان اللطيمة لهذا العام (٥٨٥ م) قال : « من

يحيرها ؟ » وكان بحضرته أناس من أشراف القبائل ، فانبرى له البرّاض بن قيس الضمري وكان فتاكاً يضرب بفتكه المثل فقال : « أنا أجيرها على بني كنانة . » فقال النعمان : « ما أريد إلا رجلاً يحيرها على أهل نجد وتهامة . » فقام عروة الرحّال أحد أشراف هوازن وكبرائهم فقال :

« أكلب خليع يحيرها لك ؟ أبيت اللعن ، أنا أجيرها لك على أهل الشيخ والقيصوم » يريد عامة العرب . فخطبها عليه البرّاض وقال : « أعلّ بني كنانة تجيرها يا عروة ؟ » قال : « نعم وعلى الناس كلهم . » فخي البراض إذ عدها استهانة به واستخفافاً بقومه ، وأضمرها في نفسه غدرة شنعاء .

دفع النعمان اللطيمة إلى عروة فخرج بها . فتبعه البرّاض وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه شيئاً لأنه منيع بين قومه من غطفان ، حتى إذا بلغوا (فدك) نزل عروة في أرض يقال لها « أواره » فشرب الخمر وغتته قينة ثم قام فنام .

اغتم الفرصة البرّاض ، وانسل إليه في خبائه ، فلما رآه عروة ناشده واعتذر إليه وقال : « كانت مني زلة » فلم يفد الاعتذار شيئاً ولم يخفف مما يضطرم في صدر البراض من الحقد ، فانقضّ على عروة فقتله وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة مني ضلّة
هلاً على غيري جعلت الزلّة
فسوف أعلو بالحسام القلّة

ثم أنشد :

وداهية يهال الناس منها شددت لها بني بكر ضلوعي
هدمت بها بيوت بني كلاب وأرضعت الموالي بالضروع
جمعت له يدي بنصل سيف نخرت يمد كالجدع الصريع^(١)
واستاق اللطيمة إلى خيبر ، وبعث رسولاً مستعجلاً إلى حرب
ابن أمية يخبره أنه قتل عروة فليحذر قيساً^(٢) ، فتبعه رجلان من
غطفان يريدان قتله ، فكان هو أول من لقيهما فعرف ما قصدا
إليه فنوى التعجيل بهما ، فقال لهما : « من الرجلان ؟ » قالا :
« من غطفان وغني » قال البراض : « ما شأن غطفان وغني
بهذه البلدة ؟ » قالا : « ومن أنت ؟ » قال : « من أهل خيبر »
قالا : « ألك علم بالبراض ؟ » قال : « دخل علينا طريداً خليعاً

(١) أرضعت الموالي بالضروع : ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللؤم ورضاع
الضروع وأظهرت فسالتهم ، وهذا كما يقال لثيم راضع أي يرضع اللؤم من ثدي
أمه . والقلّة من كل شيء : أعلاه .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لزيدان ١ : ٢٤١

فلم يؤوه أحد بخير ولا أدخله بيتاً . » قال : « فأين يكون ؟ »
قال : « فهل لكما به طاقة إن دلتكما عليه ؟ » قال : « نعم »
قال : « فانزلا » فنزلا فعقلا راحلتيهما . قال البرّاض : « فأيكما
أجراً عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟ » قال الغطفاني : « أنا »
قال : « فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما . » ففعل .
وانطلق البرّاض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة
في جانب خير ، خارجة عن البيوت فقال البرّاض : « هو في
هذه الخربة وإليها يأوي . فأنظرنني حتى أنظر أئتم هو أم لا . »
فوقف له الرجل ودخل البرّاض ثم خرج إليه وقال : « هو نائم
في البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت . فهل
عندك سيف فيه صرامة ؟ » قال : « نعم » قال : « أرني سيفك
أنظر إليه أصارم هو ؟ » فأعطاه إياه ، فهزه البرّاض ثم ضربه
به فقتله . ووضع السيف خلف الباب .

وأقبل على الغنوي فقال : « ما وراءك ؟ » قال البرّاض :
« لم أرَ أجبن من صاحبك ، تركته قائماً في الباب الذي فيه
الرجل — والرجل نائم — لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه . » قال
الغنوي : « يالهُفاه ! لو كان أحد ينظر راحلتينا . » قال البرّاض :
« هما عليّ إن ذهبتا . » فانطلق الغنوي والبرّاض خلفه حتى إذا

جاء الغنوي باب الخربة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله . وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق .

يوم فتلّة :

بلغ قريشاً خبر البرّاض وقتله عروة وفزعوا أن تبلم بذلك هوازن فتدّهمهم وكانوا في عكاظ في الشهر الحرام فخلصوا نجياً (وانفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك فأتوه وأخبروه فأجاز مالك بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا) . لكنّ فريقاً منهم خافوا أن يكون قومهم بمكة في ضيق فأنسلّوا من عكاظ وهوازن لا تشعر بهم وتوجهوا نحو مكة رجاء أن ينصروا إخوانهم إن كان حزّبهم أمر . وكان من عادة العرب إذا وفدت على عكاظ أن تدفع أسلحتها إلى عبد الله بن جدعان ، وكان هذا سيداً حكيماً مثيراً من المال ، فتبقى عنده أسلحة الناس حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم فيردها عليهم إذا ظعنوا . فلما كان من أمر البرّاض ما كان قال حرب بن أمية لابن جدعان : « احتبس قبلك سلاح هوازن . » فقال عبد الله : « أبالقدر تأمرني يا حرب ؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى فيها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها

شيئاً . ولكن لكم مئة درع ومئة رمح ومئة سيف تستعينون بها . » ثم صاح ابن جدعان في الناس : « من كان له قبلي سلاح فليأت وليأخذه . » فأخذ الناس أسلحتهم .

وبعث ابن جدعان وحرب بن أمية وهشام والوليد ابنا المغيرة إلى أبي براء سيد قيس : « إنه قد كان بعد خروجنا حرب وقد خفنا نفاقم الأمر فلا نكروا خروجنا . » وساروا راجعين إلى مكة (أغاني ١٩ : ٧٦) ، فلما كان آخر النهار بلغ أبا البراء قتل البراض عروة فقال : « خدعني حرب وابن جدعان . » وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في إثر القوم فأدركوهم في نخلة قبيل الحرم ، فناوشوهم شيئاً من القتال يسيراً حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت هوازن عنهم ونادوهم : يا معشر قريش ! إنا نعاهد الله أن لا نبطل دم عروة الرحال أبداً أو نقتل به عظيماً منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل . » ونادى رجل من بني عامر :

لقد وعدنا قريشاً وهي كارهة بأن تجيء إلى ضرب رعايل^(١)
فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه : قل لهم : « إن موعدكم قابل في هذا اليوم . »

(١) ثوب رعايل : ممزق بال .

وتعرف هذه الواقعة بيوم نخلة وقد تعطلت السوق فلم تقم
تلك السنة . فقال خدّاش بن زهير يذكّر قريشاً بها ويعيرهم ،
وكانت العرب تسمي قريشاً (سَخِينَة) لأنّها السخينة وهي طعام
رقيق يتخذ من دقيق :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم
إذ يتقيناه هشام بالوليد ولو أنا ثقفنا هشاماً شالت الجذم
لما رأوا خياننا تزجي أوائلها آساد غيل حمى أشبالها الأجم
ولو اسللاً وعُظم الخيل لاحقة كما تخب إلى أعطانها النعم^(١)
بين الأراك وبين المرج تبطحهم زرق الأسنة في أطرافها السهم
فإن سمعتم بجيش سالك شرفاً وبطن مرّ فأخفوا الجرس واكتموا
وهذا غاية في التعبير وفي وصف شدة الحرب حتى صار الأخ
يفتدي نفسه بأخيه .

يوم سُمَظَة :

سُمَظَة موضع في عكاظ نزلته كنانة بعد عام من يوم نخلة
حسبما اتعدوا هم وهوازن . فاحتشدت كنانة قريشها ، وعبد منافها

(١) عَظْم الخيل : معظمها . تخب : تسرع . والأعطان : مبارك الإبل حول
الماء ، أو هي كالأوطان للناس .

والأحايش ومن لحق بهم ، وسلّح يومئذ عبد الله بن جدعان مئة
 كيّ بأداة كاملة سوى من سلّح من قومه . وعلى إحدى مجنبتى
 كنانة عبد الله بن جدعان ، وعلى الثانية كريز بن ربيعة ، وأمر
 الجميع إلى حرب بن أمية الذي كان في القلب . أما هوازن
 وأحلافها فأمرها إلى مسعود بن معتب الثقفي . واعتزل فريق من
 الحيين فلم يشهدوا الحرب .

ثم تناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة
 أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت
 هوازن وصابرت ، فانقضت كنانة واستحرق القتلى فيهم ، فقتل
 منهم تحت رايته مئة رجل ، ولم يقتل من قريش يومئذ أحد
 يذكر ، وذلك قول خدّاش بن زهير :

فأبلغ إن عرضت بنا هشاماً	وعبد الله أبلغ والوليدا
أولئك إن يكن في الناس خير	فإن لديهم حسباً وجودا
هم خير المعاشر من قريش	وأوراهم إذا قدحت زنودا
بأنا يوم (شمظة) قد أقمنا	عمود الدين إن له عمودا
نجأوا عارضاً برداً وجئنا	كما أضمرت في الغاب الوقودا
فعانقنا الحكمة وعانقونا	عراك النمر واجهت الأسودا
ونادوا يا لعمرؤ لا تفروا	فقلنا لا فرار ولا صدودا

فولّوا نضرب الهامات منهم بما انتهكوا المحارم والحدود^(١)
فلم أر مثلهم هزموا وقلّوا ولا كذيانا عنقاً مذودا

* * *

يوم العيلاء :

عاد الأحياء المذكورون من هوّلاء وأولئك فالتقوا من قابل
في اليوم الثالث من أيام عكاظ بالعيلاء إلى جنب عكاظ فاقتتلوا
على التعبئة التي تقدمت .

فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على قريش وكنانة . فأصبحت
قريش وقتل أحد صناديدها العوام بن خويلد ، والد الزبير بن
العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله مرة بن معتب
الثقيفي ، فقال في ذلك رجل من ثقيف يفتخر بقتله لما له من الخطر :
منا الذي ترك العوام مجندلاً تنتابه الطير لهما بين أحجار

وفي هذا يقول شاعر هذه الحروب من هوازن . خدّاش بن زهير :
ألم يبلغكم أنا جدعنا لدى العيلاء خندف بالتميّاد
ضربناهم بيطن عكاظ حتى تولّوا طالعين من النجاد

(١) انظر خزانة الأدب ، وابن سلام ص ٥٣ . أبلغ بحذف نون التأكيد
الخفيفة وإلقاء فتحة البناء على آخر فعل الأمر . والزياد : الدفاع .
والعنق : الجماعة ، والإيمراع في السير .

ويقول :

ألم يبلغك ما لقيت قريش وحي بني كنانة إذ أبيروا
دهمناهم بأرعن مكفر فضل لنا بعقوتهم زئير^(١)

* * *

يوم شرب :

ثم التقوا على رأس الحول في اليوم الثالث من عكاظ أيضاً
بشرب ، وشرب من عكاظ . ولم يكن بين الفريقين يوم أعظم
منه ، صدقوا فيه الحملة ، وصبروا حفاظاً وحمية ، وقد أبلت فيه
قريش بلاء حسناً . وكان الذي أحماهم أن لهوازن عليهم يومين
ذهبوا بفخرهما . فخافط قريش وكنانة وصابرت بنو مخزوم وبنو
بكر ، وقيد ثلاثة من شجعان قريش وأشرافها أنفسهم وقالوا :
« لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو نظفر » وهم أبو سفيان
وحرب ابنا أمية ، وأبو سفيان بن حرب والد معاوية . وكان
على الفريقين رؤسائهم السابقون ، واستمر القتال بهذه الشدة
حتى انهزمت هوازن وقيس كلها رغم عددها وعدتها ، إلا بني
نصر فإنهم صبروا مع ثقيف ، وذلك لأن عكاظ بلدهم ، لهم
فيه نخل وأموال إلا أنهم لم يغنوا شيئاً ثم انهزموا أيضاً وقتلت

(١) أبيروا : أهلكوا . العقوة ما حول الدار ، الحملة .

هوازن يومئذ قتلاً ذريعاً . وذهبت بفخر هذا اليوم كله كنانة
وقريش ، فارتفعت أصوات شعرائهم تخلد هذا النصر المؤزر ، وما
لها لا تفعل ، وقد لقيت خزيًا كبيراً من شعراء هوازن ، وما
شأن شاعر تفقده أمته يوم الحاجة ، وأي غناء لشاعر لا قوم له ،
فقال أمية بن أسكر الكناني :

ألا سائل هوازن يوم لا قوا فوارس من كنانة معلمينا
لدى شرب وقد جاشوا وجشنا فأوعب في النفير بنو أبينا^(١)
وقال :

قومي اللذو بعكاظٍ طيروا شرراً من روس قومك ضرباً بالمصاقيل^(٢)
وقال جذل الطعان :

جاءت هوازن أرسالاً وإخوتها بنو سليم فهابوا الموت وانصرفوا
فاستقبلوا بضراب فض جمعهم^٣ مثل الحريق فمأعاجوا ولا عصفوا
وقال عبد الله بن الزبيري شاعر قريش (والمشرकिन فيما
بعد) :

ألا لله قوم و لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد مناف مدره الخصم

(١) وعب : جمع .

(٢) اللذو : لغة في الذين . والمصاقيل : السيوف .

وذو الرمحين أشباك من القوة والحزم
فهذارت يذودان وذامن كشب يرمي^(١)

(١) وثمة هذه الأبيات :

أسود تزدهي الأقرا ن متاعون للهضم
وهم يوم عكاظ منعوا الناس من الحزم
وهم من ولدوا أشبوا بسر الحسب الضخم
فإن أحلف وبيت الله لا أحلف على إثم
لما من إخوة بين قصور الشام والردم
بأزكى من بني ربيعة أو أوزن في الحلم

أبو عبد مناف الفاكه بن المغيرة . وريطة هذه التي عناها هي أم بني المغيرة وهي بنت سعيد بن سعد بن سهم ، ولدت من المغيرة هشاماً وأبا ربيعة والفاكه . وذو الرمحين هو أبو ربيعة بن المغيرة لقب به لقتاله في هذه الحرب برمحين . وأشباك : حسبك . والمدره : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم . تزدهي الأقران : تستخف بهم . وأشبى فلان : إذا ولد له ولد كيتس . والردم مكان بمكة يضاف إلى بني تميم وقربة بالبحرين .

هذا وقد اختلف في قائل هذه الأبيات ، ف قيل : ابن الزبيري . وقيل : عمر ابن أبي ربيعة حميد ذي الرمحين ، وقد كشف الأصفهاني عن حقيقة ما يخبره الطريف المشهور قال : قال أبو نهشل : جئت أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الوارد ذكره في الأبيات ، قصده أطلب منه مغرمًا فقال : يا خال ! هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة (الأولى) وقال سمعت حساناً ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : « أعوذ بالله أن أكذب على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول : سمعت عائشة تنشدها فقلت » . فقال : « لا ، إلا =

يوم الحريرة :

وهو آخر أيامهم . ثم انشقوا على رأس الحول بالحريرة وهي حرّة إلى جنب عكاظ مما يلي مهبّ جنوبها ، وعلى كل قوم رؤسائهم السابقون . فاقتتلوا قتالاً شديداً كان شؤماً على قريش وأحلافها قتل فيه من كذانة ثمانية نفر وقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب جد معاوية . وكان يوماً لهوازن نفره ونصره . فلعلع صوت شاعر هوازن بهذه الصاعقة المجلجلة :

إني من النفر المحمرّ أعينهم أهل السوام وأهل الصخر واللوب^(١)
الطاعنين نحور الخيل مقبلة من كل سمراء لم تغلب ، ومغلوب
وقد بلوتم فأبلاكم بلاؤهم يوم الحريرة ضرباً غير مكذوب

= أن نقول : سمعت حسناً بنشدتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله جالس . « فأبى عليّ وأبى عليه ، فأقننا لذلك لا نتكلم عدة ليال ، فأرسل إليّ فقال : قل أبياتاً تمدح بها هشاماً — يعني جده ابن المغيرة — وبني أمية . » فقلت : « ستمهم لي . » فسأهم وقال : « اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك . » فقلت : « ألا الله . . . الأبيات . » ثم جئت فقلت : « هذه قالها أبي . » فقال : « لا ، ولكن قل : قالها ابن الزبيري . » قال : فهي إلى الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبيري . وقيل هن لعمر بن أبي ربيعة والله أعلم .

(١) اللوب : جمع لابة وهي الحرّة .

لاقتهم منهم أساد ملحمة ليسوا بدارعة عوج العراقيب
فلاآن إن تقبلوا نأخذ نحوركم وإن تباهاوا فإني غير مغلوب
وقال الحارث بن كلدة الثقفي :

تركتم الفارس البذاخ منهم تمج عروقه علقاً عبيطاً
دعست بنانه بالرمح حتى سمعت لمتنه فيه أطيطة
لقد أرديت قومك يابن صخر وقد جشمتهم أمراً شطيطة
وكم أسلمت منكم من كي جريحاً قد سمعت له غطيطة^(٢)

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقي الرجل ، والرجلان يلقىان
الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً . فلقى ابن محمية بن عبد الله الدبلي
زهير بن ربيعة أبا خراش فقال زهير : « إني حرام جئت معتمراً »
فقال له : « ما تلقى طوال الدهر إلا قلت : أنا معتمر » ثم قتله .
انقضت هذه الأيام الخمسة في أربع سنين . ثم تداعى الفريقان
إلى السلم على أن يذروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا
على الصلح .

(١) البعير البذاخ : الهدار المخرج لشقشقته . والبذخ في الأصل الكبر
والعلو . العلق العبيط : الدم المتجمد . دعس : طعن . الأطيطة : صوت .
الغطيطة للبعير : هديره ، وللنائم : صوته .

عقدوا على ذلك الموائيق . وبقيت هذه الأحداث للذكرى
والفخر ، يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قومه ، ويتغنى بما كان
لهم من محامد . وانظر إن شئت أن ترى آثار ذكرها في مثل
قول الشاعر :

وإن قصياً أهل عز ونجدة وأهل فعال لا يرام قديمها
هم ممنوعوا يومي عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها^(١)
أو قول عاتكة بنت عبد المطلب تخلد نصر قومها في هذه
المقطوعة الرائعة :

سائل بنا في قومنا وإيكف من شر سماعه
قيساً وما جمعوا لنا في جمع باق شناعه
فيه السنور والقنا والكبش ملتمع قناعه
بعكاظ يعشي الناظر ن إذا هم لمحو شناعه
فيه قتلنا مالكاً قسراً وأسلمه رعاه
ومجدلاً غادره بالقاع نهنسه ضباعه
هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيد من يجيرها
من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته ، سبباً مغرياً في هذه الحروب .

(١) الشول : النوق التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر نجف لبنها ،
الواحدة شائلة . والهجان : الإبل الكرام . والقروم : الفحول .

وأي بدعٍ في هذا فإننا ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب
في حقيقتها تطاحنًا على النفوذ الاقتصادي وتكاد أحداث القرن
العشرين كلها تكون حول التنافس التجاري إن لم يكن بصورة
جلية فمن وراء ستار .

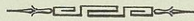


الباب الثالث

أسواق العرب

ا : في الجاهلية

ب : في الإسلام



أسواق العرب

أنشأ العرب - ومركزهم التجاري ما قدمنا - أسواقاً لهم
يتبايعون فيها .

ولعل هذه الكلمة - كما ذكر ابن سيده - اشتقت من
سوق الناس بضائعهم إليها ، ولا يستدعي وجودها في اللغات
السامية أن تكون كلمة السوق العربية مأخوذة منها ، فلعل الواقع
هو العكس . وليس من لزوم في هذا الاستقصاء المتكلف ما دامت
هذه الأخوات من أم واحدة .

فمن هذه الأسواق ما كان يقتصر على ما يجاوره من القرى
وما ينزل بساحبه من القبائل كسوق هجر وحجر اليمامة والشحر
وغيرها ، ومنها ما كان عاماً تفد إليه الناس من أطراف الجزيرة
كلها كعكاظ . ولكل مدينة بطبيعة الحال أسواق وإنما المقصود
هنا الأسواق الموسمية منها ، التي لها أيام معينة تقوم فيها ويومها
الناس . فإذا كان لأحدى هذه الأسواق موقع جغرافي ذوبال ،
كأن تكون على ساحل البحر مثل سوق عدن وصنعاء وعمان . .

كان شأنها ممتازاً من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة كحجر
أو كحضر موت ، لشيوع الاتجار فيها مع الجيران من هند
وحبشة و فرس في الأولى واقتصار الثانية على القبائل المتاخمة لها .
فتتميز الأسواق التي على فُرْض البحر بوجود النزال الأجانب
وتأثر أصحابها باختلاطهم بهؤلاء وما يستتبع ذلك من تغيير في
العادات والرقى والصبغة فليس من المعقول أن تكون أحوال
سوق صنعاء مثلاً مشابهة كل المشابهة الأحوال التي لسوق هجر .
كان يلي أمر الناس والنظر في شؤونهم التجارية في بعض
هذه الأسواق أمراء يعشرون الناس كأكيدر في دومة الجندل
والمندر بن ساوى في سوق حجر ، وهناك رؤساء يهبطون
الأسواق لجمع الإتاوة وأشرف يتوافون بتلك السوق التي هي
في الغالب تحت سيطرة أمير من الأمراء ليستوفوا نصيبهم من
الربح ، الذي عينه لهم ذلك الأمير . . . بل إن بعض الأسواق
كانت تقع إلى سلطان دولة أجنبية كسوق المشقر الذي تحكم
كسرى بأهله وتجارته ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على
الأسواق سوقاً فسوقاً .

أما عروض التجارة التي كانت تُحْمَل إلى الأسواق فلا
تعدى التمر والزبيب والأدم والورس والغالية والبرود وبعض

خروب الحيوان كالمواشي والأنعام والخيل حتى القروء
أحياناً .

وكانت هَجَرَ أشهر البلدان بتمرها وعُمان يحمل إليها الورس
ويعالج فيها . وكانت لطائم النعمان تسير إلى عكاظ ، ولطائم
كسرى إلى المشقر ، تأتي كل سنة فتباع ويشترى بأثمانها الأدم
والتمر . وكان يقوم بحمايتها عرب الحيرة ما دامت في مناطق
نفوذهم ، فإذا فصلت نحو عكاظ كان لا بد لها من حام منيع
الجانب عزيز القبيلة ليحجزها على عامة القبائل . وقد استفاد العرب
من هذه الحماية فوائد مادية جليلة .

حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى
العرب وكان لا عهد لهم بمثلها ، فتغالى أشرافهم بالثياب والبرود
والسلاح والطيب . بل إن الرواة ليزكرون أن خمراً حملت من
بصرى وغزة من بلاد الشام إلى سوق مجنة قرب مكة ، ويظهر
أن العرب اعتادت استجادة الخمر والافتتان بشربها واستطابتها من
معادنها المشهورة كالبلدين المذكورتين وأذرعَات وأندرين وغيرها ،
شاع ذلك في الرجال والنساء . وسيمر بك عند الكلام على
عكاظ أن امرأة أرسلها زوجها إلى عكاظ بسمن ومعها راحلتان
فشربت الخمر بثمر السمن فاستطابتها ثم باعت راحلتها فشربت

بشمنهما ثم رهنّت ابن الرجل وشربت أيضاً^(١) . ونحن نعلم أنّ
كثيراً من الشعراء والفتيان كانوا يتمادحون بالانفراق على الخمر
والتردد على أصحاب الحوانيت والجلوس إليهم واذكر إنّ شئت
أبيات عنّرة :

ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	قرنت بأزهر في الشمال مقدم
فإذا شربت فإني مستهلك	مالي وعرضي وافر لم يكلم ^(٢) . . .

(١) وأبعد من هذا الخبر في الغرابة والطرافة ما رواه القالي في أماليه (١٥٠: ١)
قال : اشترى أعرابي خمرًا بحجة صوف فغضبت عليه امرأته فأنشأ يقول :

غضبت عليّ لأن شربت بصوف	ولئن غضبت لأشربن بخروف
ولئن غضبت لأشربن بنعجة	دهساء مائة الإناء سحوف
ولئن غضبت لأشربن بناقة	كوما نامية العظام صفوف
ولئن غضبت لأشربن بسابح	نهد أشم المنكيين منيف
ولئن غضبت لأشربن بواحد	ولأجعلن الصبر منه حليفي

الدهساء : شقراء خفيفة الشقرة إلى سواد . والسحوف : التي لها طبقتان من
الشحم . والكوما : الناقة العظيمة السنام ، ونابذة العظام : سميتها . والصفوف :
التي تصف رجلها عند الحلب . والسابح : الفرس

(٢) الهواجر جمع هاجرة : وهي حر نصف النهار . والمشوف : الإناء المجلو .
والمعلم : عليه علامة . والأزهر : الأبيض ، ويعني به الإبريق . المقدم : ما عليه
الفدام وهي المصفاة .

أو قول الأعشى : « وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني الخ »
والظاهر أن حب الخمرة تغفل في نفوس عامة العرب وغمرت
مجانيتها أسواقهم وعكفوا عليها حتى ما يستطيعون لها تركاً .
وإن الأعشى الشاعر هذا ، أراد أن يقصد النبي صلى الله عليه وسلم
بالمدينة فيسلم ، وأشفق مشركو مكة من هذا السلاح أن ينضم
للاسلام فصدوه عن وجهه ذاك ، وكان أقوى عامل في رده
ما أخبروه من أن الإسلام يحرم الخمرة ولم يكن بالشاعر قدرة
على تركها فصرفه ذلك عن قصده وقفل راجعاً فأدر كنه المنية
ولم يكتب له الإيمان . وخير ما نستدل به على استفاضتها في
أسواقهم وإدمانهم لها أن الأخباريين يعدون في الجاهلية كلها
أشخاصاً لا يبلغون العشرة حرّموا على أنفسهم الخمر ^(١) فتميزوا

(١) روى القالي في أماليه (١ : ٢٠٤) :

« حرّم رجال الخمر في الجاهلية تكمراً وصيانة لأنفسهم ، منهم عامر بن الظرب

ابن ٠٠٠ بن قيس بن عيلان وقال في ذلك :

سألة للفتى ما ليس في يده ذهابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرّق ترب القبر أو صالي
مورثة القوم أضغاناً بلا إحن مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

وحرّم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك :

لعمرك إن الخمر مادت شارباً اسالبة مالي ومذهبة عقلي
وتاركتي من الضعاف قواهم ومورثتي حرب الصديق بلا تبلى =

= وحرم صفوان بن أمية الكناني الخمر في الجاهلية وقال في ذلك :
 رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريما
 فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما
 وحرم عفيف بن معد يكرب عم الأشعث بن قيس الخمر وقال :

وفائلة هلم إلى التصابي فقلت عفت عما تعلمينا
 وودعت القراح وقد أراني بها في الدهر مشغوماً رهيناً
 وحرمت الخمر عليّ حتى أكون بقعر ملحود دفيناً
 وقال أيضاً :

فلا والله لا ألقي وشرباً أنازعهم شرباً ما حيتُ
 أبى لي ذاك آباء كرام وأخوال بعزم ريت
 وحرم سويد بن عدي الطائي ثم المعني الخمر وأدرك الاسلام فقال :
 تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي منادي الصبح قاما
 كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى
 وحرمت الخمر وقد أراني بها سداً وإن كانت حراماً اه .
 — التبل : الثأر . وقوله أقسمت بالله أسقيها : يريد لا أسقيها . وكذلك فلا
 والله أشربها : أي لا أشربها . والملحود : القبر .
 والسدك : المولع بالشيء .

هذا وقد جاء في الأغاني [٨ : ٣٣٢ دار الكتب] ما يأتي :
 « ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما فيها
 من الدنس ؛ ولقد عابها ابن جدعان قبل موته فقال :

شربت الخمر حتى قال قومي ألت عن السفاه بمستفيق
 وحتى ما أوسد في مييت أنام به سوى الترب السحيق
 وحتى أغلق الحانوت رهي وأنست الهوان من الصديق
 =

بهذا الوصف من سائر العرب ولم يكن لتمييزهم هذا من قيمة لولا فشوها في قبائل العرب فشواً قوياً جعلها في حكم الضرورة التي لا مندوحة عنها .

يغشى هذه الأسواق عامة العرب لما تقدم من أن شغل أكثرهم التجارة ومن لم يتاجر قصدها للكسب والشراء حتى صار غشيان السوق والمشى فيها ، هما والاتجار ألفاظ مترادفة ، في البخاري :

« استأذن أبو موسى على عمر فلم يؤذن له فرجع ، ففرغ عمر فقال : « ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له . » قيل : « قد رجع . » فدعاه فقال (أبو موسى) : « كنا نوؤمر بذلك . » فقال عمر : « تأتيني على ذلك بالبينة . » فانطلق (أبو موسى) إلى مجلس الأنصار فسألهم فشهد أبو سعيد الخدري فقال عمر : « أخني هذا عليّ من أمر رسول الله صلى الله عليه

= وكان سبب تركه الخمر أن أمية بن أبي الصلت شرب معه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب ، فقال له : ما بال عينك ؟ فسكت . فلما ألتح عليه قال له : أنت صاحبها أصبتها البارحة . فقال : أو بلغ مني الشراب الحد الذي أبلغ معه من جليسي هذا ؟ لا جرم لأدبته لك دبتين ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام أن أذوقها أبداً ، وترك من يومئذ . » اه
وهذا نص في أن كبراء قريش في الجاهلية كانوا يشربونها جميعاً .

وسلم؟ ألهاني الصفق في الأسواق .» يعني الخروج إلى التجارة^(١) .

وكان في جملة ما احتج به المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم : « ٠٠٠ فإذا لم نفعل هذا لنا فخذ لنفسك : سل ربك ٠٠٠ فليجعل لك جنائاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلتبس المعاش كما تلتبس ٠٠٠ الخ^(٢) » وحكى الله عنهم قولهم هذا فقال :

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ »
وقال في المرسلين : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ٠٠ » فكفى بالمشي في الأسواق عن التجارة ، ووُصف صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق^(٣) . ولأن العرب لا تحتشد لشيء احتشادها في هذه الأسواق ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصدها أول دعوته ويعرض نفسه على القبائل في هذه المواسم .

(١) طبع ليدن : كتاب البيوع ٨ :

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٩

(٣) البخاري كتاب البيوع (٢٢) . والسخاب : كثير اللغط والجلبة .

كان أعظم ما يحدو العرب في الجاهلية على قصد تلك الأسواق ما قدمت لك من قيام كثير منها في الأشهر الحرم .
ولشيوخ الأمن حرمة الشهر ولأن مواسم بعض الأسواق كعكاظ ومجنة وذو الحجاز تقع في أيام حجهم وهي أعمر أسواق العرب بمختلف القبائل يأتونها من كل أوب ومعهم خيرات بلادهم وتلك ميزة لا تتمتع بها بلدة غير مكة ولا قوم غير قريش ، وقد امتن الله عليهم بذلك فقال :

« أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ . »

القصص ، الآية : ٥٧

وقال : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ . » العنكبوت ، الآية : ٧٧

وافقت هذه المواسم زمن الحج ^(١) واختلط أمرها بشعائره

(١) ما زال الحج الموسم الأكبر للتجارة في الاقطار العربية الكبرى ؛ في أيامه تنشط الحركة التجارية ويكثر البيع والشراء وتستنفذ المخازن العربية بضائعها يستهلكها الحجاج الذين بقصدونها من القاصية أجناساً شتى ، فصيونيون وأتراك وبخاريون وفرس وهنود وأفغان وقفقاسيون ومغاربة و . . . وتعظم منهم الأرباح ونفيض على البلاد عامة سحائب خير وسعة من العام إلى العام . تستوي في ذلك جميع البلدان العربية ، فمصر كالشام والعراق كالحجاز لوقوع الأولى على طريق الحاج المغربي ولأن الشام والعراق طريق الحاج المشرقي . ولا تسأل =

(فنى وعرفة وعكاظ ومجنة وذو المجاز مواسم الحج) فإذا انفضوا من ذي المجاز تروّوا من الماء ونادى بعضهم بعضاً: «ترووا من الماء» لأنه لا ماء بعرفة يومئذ ولا بالمزدلفة ، ولهذا سمي اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية . وكانوا في الجاهلية لا يتبايعون في منى ولا في عرفة ، يخصون هذين المكانين بالحج الخالص ، لا يخلطونه ببيع ولا شراء ؛ فلما جاء الإسلام فكأنهم تأثّروا أن ينجزوا في المواسم فأنزل الله تعالى قوله :

= عن البجوبة التي يرتع فيها أهل الحجاز في موسم الحج إذ تنقاطر عليه كل تلك الأمم ويرج أهله في هذه الأيام القلائل معاش سنتهم كلها .
بقي الأمر على هذا حتى عهد قريب ، أي قبل عشرين سنة ، إذ انقطع بحلول الحنة الكبرى ببلاد العرب : فوزعت بين الفونجة ، وانحجز الحجاج عن ورود هذه الأقطار لأن الحاج المغربي أو المشرقي يمر على دول كثيرة قبل أن يصل إلى الحجاز . فإن كان معه فضل من مال ، استنزفته تلك الدول فلا يصل إلى الحجاز إلا ببلغة لا تكاد تكفيه وحده ؛ فيضطر المسكين إلى أن يسلم أمره إلى الشركات الأجنبية التي نصبتهادولها تمتص دم الحجاج وتسلبهم أموالهم وتذيقهم الموت ألواناً . فحزمت بذلك بلادنا من موارد وأرزاق عدا ما خسرت من المنافع الاجتماعية . فمات العراق كما مات الحجاز ومات الشام منذ نصب هذا المعين . ثم عكف الاجنبي على ما بقي في البلاد من أثاره خير يتمششها ويتعرقها حتى جردت الأرض وصوح التبت فما ثمة من قائم ولا حصيد :
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ »
البقرة ، الآية ١٩٨ وزاد ابن عباس في قراءته « فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ »
والفضل هو الرزق والكسب والاتجار ، وكذلك كان يتلوها
أَبِي تَلَاوَةً ^(١) .

والغريب أَنَّ هذه الأسواق ، كما يقصدها طالب الربح
والشراء ، يقصدها طالب الأمن والفداء ، فكم أوى إليها
من خائف يطلب من يحميه فيجده ويلجأ إليه ويأمن ، وكم من
رجل حمل معه فداء أسيره ففكه من أسرهِ . وكم من سادات

(١) انظر البخاري كتاب البيوع ٥ . وأخبار مكة للأزرقي ص ١٣٠
وتفسير الخازن . نقل في هذا التفسير عن أبي أمامة التميمي قال :
« كُنْتُ أَكْرِي فِي هَذَا الْوَجْهِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ لِي : « إِنَّهُ
لَيْسَ لَكَ حِجٌّ » فَلَقِيتُ ابْنَ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهُ : « إِنِّي رَجُلٌ أَكْرِي فِي
هَذَا الْوَجْهِ وَإِنْ أَنَا بِقَوْلُونَ لِي لَيْسَ لَكَ حِجٌّ » قَالَ ابْنُ عُمَرَ : « أَلَيْسَ
تَحْرُمُ وَتَلْبِي وَقُطُوفُ بَالِيتٍ وَتَقْيِضُ مِنْ عَرَفَاتٍ وَتَرْمِي الْجِمَارَ ٠٠ ؟ »
فَقُلْتُ « بَلَى » قَالَ : « فَإِنْ لَكَ حِجٌّ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ مِثْلِ الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى
نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ »
الْآيَةُ » فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَأَهَا عَلَيْهِ وَقَالَ :
« لَكَ حِجٌّ » ٠ ١ ٥

تحمّلوا ديّات ودماء فكانوا سبب الصلح بين قبيلين كبيرين .
وإذ أن أكثر هذه الأسواق حوليّة تقوم أياماً معلّومات في
كل عام ، كان من المعقول أن تكون ميداناً لغير البيع
والشراء ؛ كان فيها نثاشد أشعار ، وكان فيها تفاخر وتكاثف ،
وتنافر ومقارعة ومعاظمة . . فيفوز في هذا أقوام ويخسر
آخرون ، وتحتفل العرب لها الاحتفال اللائق بها . وكان لهم
حكام معلومون يفضون المشاكل بين القبائل ، ولهم محكمّون
يحتكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم ، كما لهم في هذه
الأسواق خطباء .

يغشى الناس الأسواق إذن لما رب شتى ، وغايات متباينة ؛
فمن طالب قاتل أبيه يريد ليعرفه حتى يتربص به السوء فيما بعد ،
ومن ملتمس حماية شريف من عدو ألد ، ومن باغ زوجاً ، أو
مستطيل بعز ومنعة ، أو جالس ليأتيه أتباعه بإتاوة ، ومن عارض
سكّ قتيل لبيعه فيظفر به أهل القتيل ، ومن فرسان يتقنعون ،
وبغايا ضرب عليهن القباب ، وشبان يتعرضون للمبرقات من
النساء إلى آخر ما هناك مما سيمر بك مفصلاً وخاصة عند
الكلام على عكاظ .

ولا يقل شأنًا عن النشاط التجاري في أسواقنا تلك ، أثر

هذا الاختلاط في اللغة والدين والعادات ، فإن قيام قريش عليها
الأعوام الطويلة قبل البعثة ، مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان
الأعلى ، لأن لغات القبائل عامة يمنية وعمانية وشامية وعراقية
ونجدية وتهامية . . . تطرق مسامعها على الدوام فتختار منها ما يحسن ،
وتنفي ما يقبح . وقامت على هذا الاصطفاء زمناً كافياً حتى
خلصت لها هذه اللغة الممتازة ، وتهيأت لينزل بها القرآن
الكريم ، على أفصح وجه وأبلغه وأتمه كمالاً وسلاسة وجمالاً .
وكان الشعراء الذين ينظمون لينشدوا بعكاظ ، يتوخون
اللغة المجمع على فصاحتها ، والتي صار لها من النفوذ والشيوع
ما للغات العامة اليوم . فكان لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين
لهجات الجزيرة كلها حتى اليمن والحيرة وغسان .

أما العادات فما أمرها بالذي يحتاج إلى شرح وتبيين ؛ فإن
كل اختلاط بين فريقين لا بد أن ينتهي بأثر في كل منهما ،
فاليمني يقبس شيئاً من أخلاق الحجازي ، والنجدية يحمل ألواناً
من عادات العماني أو الحيري وهلمّ جرّاً .

وكذلك قل في الدين ، بل إن أثر هذا الاختلاط في الدين
أبلغ ، لقيام الجميع بمناسك واحدة يؤمهم فيها قريش أهل الحرم .
فأعظم آثار الأسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى

بين القبائل العربية من عامة الأقطار . وأريد أن أنبه بصورة خاصة إلى الفوحيد اللغوي ، الذي كان للشعراء والحكام فيه أبلغ الأثر ، في انتقاء الألفاظ والأساليب وشيوعها بواسطة الرواة في القبائل . وإذا شئت أن أختصر ذلك كله بكلمة واحدة قلت : إن نهضة الشعر مدينة للأسواق ، بل مدينة لعكاظ خاصة . عرف لها هذا الأمر منذ الجاهلية حتى اليوم .

فلما كان الإسلام ضعف الشعر ، وانصرف العرب إلى الفتوح ، واشتغلوا بالقرآن والسنة وفهم أحكام الشريعة ، فضول أمر عكاظ وخمل ذكرها ، وانقضى عصر الفتوح وليس لعكاظ عشر شأنها الأول ... حتى إذا أنشئ المربد استمر أمر عكاظ على التناقص ، وأخذ مربد البصرة يحل مكانها ويتم رسالتها في الأدب والشعر ؛ بل زاد عليها بما استجد الإسلام وحالة العرب الاجتماعية المتحضرة ، من صنوف في الأدب وألوان في الاجتماع . وأصبح المربد مرتاداً لعلوم الأدب والنحو واللغة والأخبار والنوادر و ... يأخذون عن أعرابه الذين لم تخلطهم لوثة العجمة ، ما يجعلون منه مادة علمهم وينبوع ثقافتهم .

ولما رسخت قدم المسلمين في المدينة ، وتمت لهم المدن الكبرى والعواصم العظيمة المثالية في الحضارة ؛ أفل نجم هذه الأسواق

إذ لم يعد لها من داع . وكانت لم تنزل قائمة في الإسلام وعاشت ما يزيد على مئتي سنة . فعكاظ التي أنشئت قبل الهجرة بأكثر من سبعين عاماً . أهملت سنة ١٢٩ للهجرة ، وآخر ما انقضى من الأسواق سوق حباشة ، تركت عام ١٩٧ للهجرة .

وقد آن لنا بعد هذه المقدمة أن نعرض لك معلومات عن أشهر الأسواق في الجاهلية والإسلام ، متوسعين ما أمكننا التوسع ، في الكلام على عكاظ في الجاهلية وعلى المربد في الإسلام ، إذ هما أعظم سوقين قامتا للعرب . في الأولى ترى أحوال الجاهلية من عامة نواحيها في بيعها وشرائها ودينها واجتماعها وسياستها وحربها وسلمها ، وفخرها وأدبها ولغتها وشعرها وعاداتها . وقد حرصت على أن أحافظ على عبارة كبار المؤلفين الذين استقيت هذه المعلومات من كتبهم كالأصفهاني والطبري وابن عبد ربه وابن سعد وابن هشام . . . إلا ما رأيت أن الحاجة تضطرني فيه إلى شيء من التعديل يسير ، وفي الثانية ترى كذلك أحوال العرب في الإسلام بالتفصيل المتقدم . واعلم أن حوادث المربد التي سأعرضها عليك يختلف زمن وقوعها بين سنة ست وثلاثين للهجرة وأواخر القرن الثاني الهجري .

لسنا نجد اتفاقاً بين قدامى المؤلفين في عدد هذه الأسواق ولا

في تحديد أزمنتها ، فبينما نرى القلقشندي (في صبح الأعشى) يعدها
ثمانية (١ : ٤١٠) نرى اليعقوبي في تاريخه ، والبغدادى في خزانته (٤ :
٣٦٠ السلفية) يعدانها عشرة ثم يختلفان عليها فيذكر كل منهما بعضاً
ويترك بعضاً ونراها عند الرزوقي تبلغ سبع عشرة سوقاً (الأزمنة
والأمكنة) ثم يأتي الألوسي فيذكر منها في بلوغ الأرب أربع عشرة .
أما الهمداني فنحن معه في حيرة لأنه يقول في كتابه صفة
جزيرة العرب (ص ١٧٩) : « أسواق العرب القديمة وقد
ذكرناها ، عدن ، مكة ، الجند ، نجران ، ذو المجاز ، عكاظ ،
بدر ، مجنة ، منى ، حجر اليمامة ، هجر البحرين ، الروض ،
روضة دعمي ، روضة الأجداد . . . الخ ثم يسرد أعلاماً تبلغ الخمسين .
فطالعت الكتاب المطبوع كله فلم أجده للأسواق التي قال إنه
ذكرها — ذكراً أبداً .

ولما رجعت إلى ياقوت في كثير من هذه الأعلام لم أجدها ذكراً
البتة . فأيقنت في نفسي أن في هذه الطبعة تشويشاً فإن عدّه الأسواق
ينتهي في السطر الثاني عند قوله (هجر البحرين) ثم يستأنف كلاماً
جديداً عن الرياض بادئاً بروضة دعمي ثم ينتقل خلاله إلى المياه ،
وجميع هذه في الكتاب المطبوع تحت عنوان أسواق العرب . وكان
على الناشر (المستشرق الأوروبي) أن يتنبه إلى تغير البحث فيفرد

كل بحث تحت عنوان خاص ولا يحشرها جميعاً في جريدة الأسواق .
وسند كر لك في هذا الكتاب الأسواق المهمة التي ترحل
إليها العرب حاذفين منها مالا خطر له وقد بلغنا بها العشرين سوقاً .
نستطيع أن نقسم هذه الأسواق أقساماً ثلاثة :

١ — أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تدار بنظم خاصة وتتضاءل
فيها الصبغة العربية كما نرى في الحيرة وهجر البحرين وعمان وغيرها
من المواطن التي ترين عليها السيطرة الفارسية . وكما نرى في بصرى
وأذرعات وغزة وأيلة وغيرها مما يدار بالإدارة الرومانية . والذي
ينظر في هذه الأسواق عمال عرب يعينهم ولاية الفرس وولاية الرومان
وهؤلاء العمال الذين يتولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها .

٢ — أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع
الزمن تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام
والدين والزواج والحقوق . . . ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها .
وهي مرآة العرب في الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف كل ما كان
عليه العرب تقريباً في معاملتهم وعلائقهم بعضهم ببعض . وهي في
أما كن لا أثر للنفوذ الأجنبي عليها ونمثل لهذا القسم بعكاظ .
ولا عاشر في هذا القسم والعرب يتبايعون فيه ببيع خاصة بهم .
٣ — أسواق ذات صبغة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي وهي التي

تكون على البحر كعدن وصحار ودبي . وفي هذه يجتمع تجار
الحبشة والهند والصين وفارس ويضوّل فيها الطابع القومي بمقدار
ما يقوى شأنها التجاري .

ومن الواجب أن ننبه هنا إلى أن أسواقاً كثيرة كانت ولم يذكروها
المؤلفون لأنهم اقتصروا على الأسواق الموسمية التي تكون من
العام إلى قابل والتي تقصد من بعيد ، إذ من البديهي أن كل بلدة
لها سوق ولها متاع أو محصول تختص به ، ومن القريب جداً أن
يكون لكل قبيلة سوق محلية تقوم في وقت معين ، فكثيراً
ما نجد حول كل ماء سوقاً صغيرة يقيمها الضاربون حوله كما نجد
مثل ذلك في المحطات الصغرى التي تكون بين البلد والبلد وكما
نجد أيضاً في كل مكان يسميه العرب روضة .

وإنما عني العلماء بالأسواق الكبرى العامة ولم يأنهوا لتلك
الأسواق الضئيلة بل إنهم أهملوا أسواقاً كبرى تكون في المدن
لأنها لا يرحل إليها إلا القليل منهم من صاحب حاجة أو غرض معين .
فنجدهم أغفلوا مثلاً ذكر دارين وهي فرضة بالبحرين بها سوق
يحمل المسك من الهند إليها . واشتهرت هذه شهرة فائقة بتجارة
العطر حتى صار معنى الداري (نسبة إلى دارين) هو العطار
نفسه وحتى جاء في الحديث : « مثل الجليس الصالح مثل الداري »

إِنْ لَمْ يَحْذِكْ (يُعْطِكْ) مِنْ عَطْرِهِ عَلَقَكَ مِنْ رِيحِهِ . » قالوا :
« الداري : العطار . » وقال الشاعر :

فلما اجتمعنا في العِلايِّ بيننا ذكي أتى من أهل دارٍ من تاجرهِ
وهناك أمتعة اشتهرت بتجويدها قرى مخصوصة كَرْدِينَةٍ وهي
قرية على شط البحر في المشرق تنسب إليها الرماح فيقال الردينيات
للمراح المصنوعة هناك كما يقال للمراح المصنوعة في الخط بالبحرين :
(الخطية) .

فلا شك أن مثل هذه الأماكن المشهورة يقصدها تجار هذا
الصنف أو الراغبون فيه ، وتقوم له شبه أسواق دائمة إلا أنها
غير عامة وهي قاصرة على ضرب واحد فقط ، فلهذا لم يعبأ بها
المؤلفون .

ثم نجدهم أغفلوا مواضع مهمة تقوم فيها أسواق قد لا تقل
شأنًا عن التي أفردوها بالذكر كالطائف وكأسواق العراق
و كالسوق التي يقيمها النبط في المدينة أحيانًا . فإننا نعلم أن الطائف
مدينة قديمة جاهلية وهي « بلد الدباغ يدبغ بها الألب الطائفية
المعروفة » ولأهلها زراعة وتجارة وغنى ، وربما قاربوا قريشاً في
شأنها التجاري . أما العراق فالظاهر أن للعرب فيها أسواقاً
يرحلون إليها كما يرحلون إلى التي في الشام وخاصة الحيرة فإن

شهرتها في تاريخ العرب وأديهم تنم عن مكانتها التجارية . ولقریش رحلات إلى سوق الحيرة وفيها تعلموا الكتابة ومنها انتشرت في العرب . وصاحبها النعمان يجهز سنوياً لطائمه إلى عكاظ وإلى اليمن . حتى إنا لنجد في بعض النصوص ما يدل على أن ضرائب منظمة تستوفى في أسواق العراق مما يباع قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ماباع امرؤ مكس درهم
قال صاحب المخصص^(١) : « المكس انتقاص الثمن في البيعة ومنه أخذت الماكسة لأنه يستنقصه . » وقيل : « المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية . ويقال للعشار صاحب المكس . » اهـ

أهملوا كل هذا كما أهملوا أسواقاً ثانوية تقام في نجران وبدر ومنى وأمثالها كثير لما قدمنا من فقدان الصبغة العامة فيها .

وهذه جرائد بأسماء الأسواق وترتيبها عند كل من المؤلفين الستة الذين أشرت إليهم آنفاً وكلها تبدأ بسوق دومة الجندل في ربيع الأول مع ذكر مواقيتها إن كان لها مواقيت وذكر عاشرها الذي يجي الضرائب فيها إن كان لها عاشر :

١ - اليعقوبي

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	ربيع الأول	غسان أو كلب
٢ المشقر	جمادى الأولى	تيم : رهط المنذر بن ماوى
٣ صحار	١ رجب	
٤ دبي		الجلندى
٥ الشحر		مهرة
٦ عدن	١ رمضان	
٧ صنعاء	١٥ رمضان	الآبناء
٨ حضرموت		كندة
٩ عكاظ		
١٠ ذو المجاز		



٢- صفة جزيرة العرب : للهمداني

<u>السوق</u>	<u>الزمن</u>	<u>العاشر</u>
١	عدن	
٢	مكة	
٣	الجند	
٤	نجران	
٥	ذو المجاز	
٦	عكاظ	
٧	بدر	
٨	محنة	
٩	منى	
١٠	حجر اليمامة	
١١	هجر البحرين	



٣- الأزمنة والامكنة : للمرزوقي

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	ربيع الأول	أكيدر (وأحياناً) قنافة السكلابي
٢ المشقر	٣٠-١ جمادى الآخرة	بنو عبد الله بن زيد: رهط المنذر بن ساوى
٣ صحار	١ رجب	الجلندى
٤ دنى	٣٠ رجب	«
٥ الشحر	١٥ شعبان	
٦ عدن	١-١٠ رمضان	الابناء
٧ صنعاء	١٥-٣٠ «	
٨ حضرموت	١٥ ذي القعدة	
٩ عكاظ	١٥ «	
١٠ ذو المجاز	١-٨ ذي الحجة	
١١ مَحَنَّة		
١٢ نطاة خيبر		
١٣ حجر		
١٤ بصرى	بعد الحج	
١٥ دير أيوب	بعد سوق بصرى بـ	٣-٤٠ ليلة
١٦ أذرعات		
١٧ الأسقي		

٦- صبح الأُعشى : للقلقشندي

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ دومة الجندل	١ ربيع الأول	أ كيدر أو رؤساء كلب
٢ هجر	ربيع الآخر	المنذر بن ساوى
٣ عمان		
٤ آدم وقرى الشحر		
٥ عدن		
٦ حضر موت		
٧ صنعاء		
٨ عكاظ		



٥ - خزانة الأدب : للبغدادى [نقلا عن صاحب قبائل العرب]

<u>السوق</u>	<u>الزمن</u>	<u>الوالي أو العاشر</u>
١ دومة الجندل	١٥-١ ربيع الأول	
٢ المشقر	١ جمادى الآخرة	
٣ صحار	١٥-١٠ رجب	
٤ الشحر	١٥ شعبان	
٥ صنعاء	١٥ رمضان	
٦ حضرموت	١٥ من ذي القعدة	
٧ عكاظ	١٥-٣٠ «	
٨ ذو المجاز	١-٨ من ذي الحجة	
٩ نطاة خيبر		
١٠ حجر	١٠-٣٠ المحرم	

٦- بلوغ الأرب : للألوسي

الزمن	السوق	الوالي أو العاشر
ربيع الأول	دومة الجندل	١
ربيع الثاني	هجر	٢
جمادى الأولى	عمان	٣
جمادى الثانية	المشقر	٤
رجب	حُباشة	٥
١٠-١٥ رجب	صحار	٦
شعبان	الشحر	٧
١-١٥ رمضان	عدن	٨
١٥-٣٠ «	صنعاء	٩
١-٢٠ من ذي القعدة	عكاظ	١٠
ذو القعدة	حضر موت	١١
٢٠-٣٠ من ذي القعدة	محنة	١٢
١ من ذي الحجة	ذو المجاز	١٣

فهذه ست وعشرون سوقاً فإذا حذفنا منها خمسة انفرد بها
الهمداني وهي : بدر والجند ومكة ومنى ونجران ، واثنين انفرد
بهما المرزوقي وهما آدم والأسقي ، وأضفنا إليها سوقاً مهمة أغفلها
كلهم وهي سوق الحيرة وأضفنا كذلك السوق التي أنشئت في
الإسلام وهي المربد ، بقي لنا إحدى وعشرون سوقاً استعرض
لها جميعاً بما تقتضيه مكانتها . أما الأسواق الضئيلة الشأن فهي
صورة مختصرة عما سنتحدث عنه ، وأما الخطيرة كمكة والمدينة
فهي دائمة وليست بموسمية وفي ذكر الأسواق المتاخمة لها غنى عن
التعرض لها .

هذا والذي نلاحظه في اختلافهم في تاريخ قيام الأسواق أن
العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معيناً لإقامة السوق
ويوماً لتقويضها ، بل يتقدم هذا اليوم في بعض السنين ويتأخر في
بعض وقد يُهرع أقوام إلى السوق قبيل مياعدها وقد يتخلف
آخرون بعد انقضائها إذا لم تنته أعمالهم وقد تختلف العادة سنة
عن سنة ، فمن هنا كان هذا التفاوت اليسير .

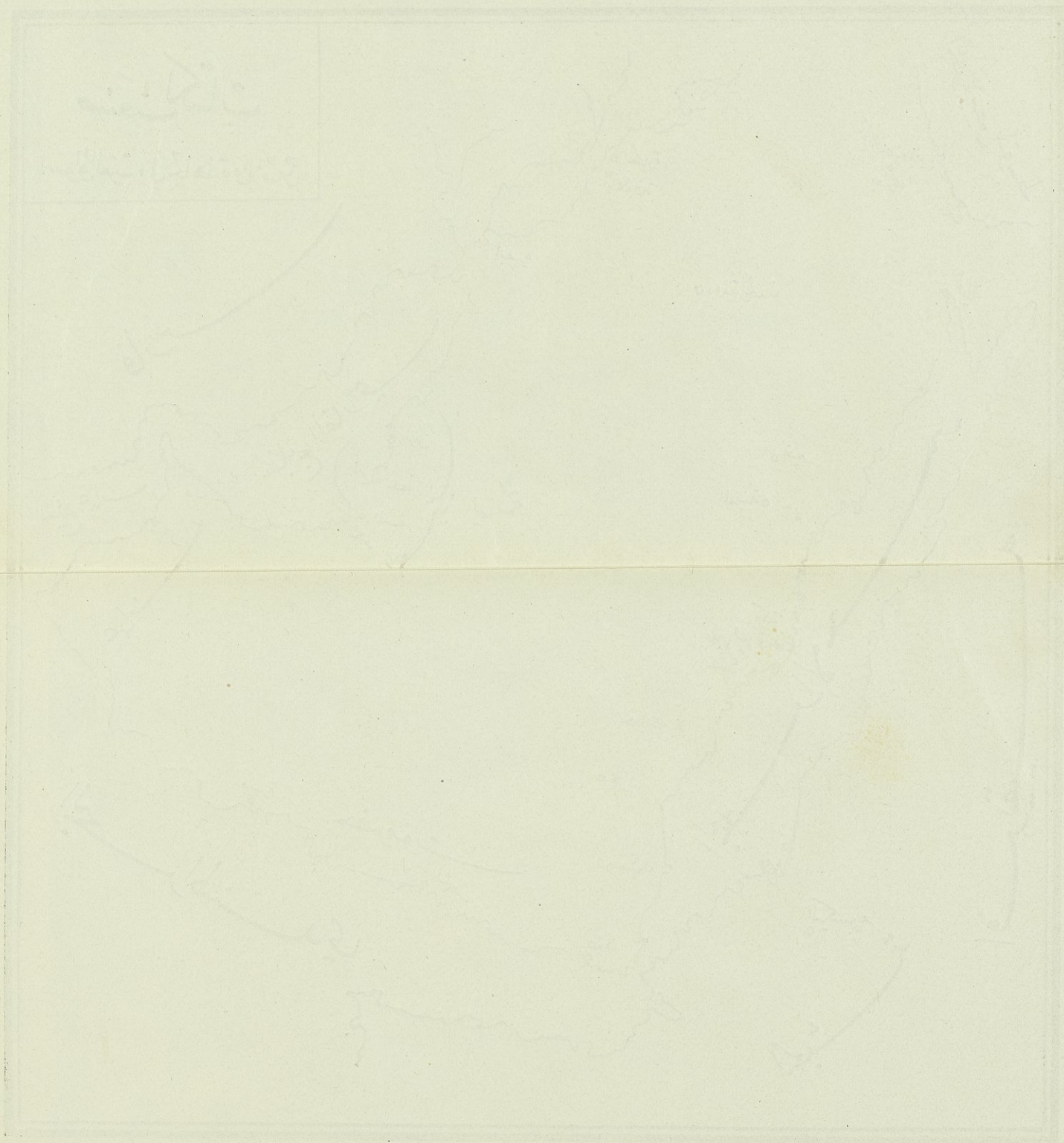
جهد و ل عام و حواف العرب عند الوفين الستة

الاسواق	(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)	(٦)
مرتبة على حروف الهجاء	للبيعوني ٣١:٣-٣١٤	صفة جزيرة العرب للرحماني	الأزمنة والأمكنة للحرزوني ١٦١:٢-١٧٠	صبح الأعشى للقلقشندي ٤١٠:١-٤١١	خزانة الأدب للبنبردي ٣٦٠:٤-٣٦٢	بلوغ الأرب للروسي ٢٦٤:١-٢٧٠
أدم	١		١٦	٤		
أذرعات	٢		١٧			
الأسقي	٣		١٥			
بدر	٤	٧				
بصري	٥	٢				
الجند	٦					
جبابشة	٧					
حَبَرُ البامة	٨					
حضرموت	٩	١٠	١٣	٦	١٠	١٥
دبي	١٠		٤			
دومة الجندل	١١		١٤			
دير أبوب	١٢		١٠			
ذو الحجاز	١٣		٥			
الشحر	١٤		٥	٤	٨	١٣
صُحَار	١٥		٣			
صنعا	١٦		٧	٧	٣	٦
عدن	١٧		٦	٥	٥	٨
عكاظ	١٨	٩	٩	٨	٧	١٠
عُمان	١٩					
مجنة	٢٠	٨	١١			
الشقر	٢١					
مكة	٢٢	٢				
مني	٢٣	٩		٣		
نجران	٢٤	٤				
نظاة خير	٢٥					
هجر	٢٦	١١	١٢	٢	٢	٢

صنعت لكتاب

اسواق العرب في الجاهلية والاسلام





أسواق العرب

١- في الجاهلية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

سوق دومة الجندل

دُومة الجندل ويقال دوما الجندل كلاهما بالضم^(١) ، بلد يقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسي والمدينة ، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريباً . بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة لعدم استقامة الطريق بينهما . وهي في غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن « مارد » المشهور ، وإلى غربها عين تشج فتسقي ما به من النخل والزرع . وكانت خربة وروى ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها : « أن أكيدر صاحبها وإخوته كانوا ينزلون دُومة الحيرة ، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فإِنَّهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل ، فأعادوا

(١) ونقل الفتح فيها صاحب النهاية ، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمنون وأصحاب الحديث يفتحون . وهذا ودومة الجندل هي التي تعرف اليوم — على ما نقل لنا — بـ (الجوف) .

بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة^(١) . »

وقال ياقوت : « كان فيها قديماً حصن مارد ، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل . وقريب منها جبلا طي^٢ وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب . »

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرض قوافل التجارة الذاهبة بين المدينة والشام ويظلم من يمر بهم من الضافطة (الذين يجلبون الميرة والطعام) ثم قوي شرهم حتى شاع أن في عزمهم الدنو من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس واستخلف على المدينة وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويكن النهار ومعه دليل من بني عذرة حتى بلغوا دومة الجندل ففترقوا وألقي الرعب في قلوبهم وأخذ من نعمهم وشأنهم ورجع ولم يلق كيداً .

والظاهر أن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتى اضطر الرسول إلى أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف وأوصاه حين دفع إليه اللواء بقوله : « خذه^(٢) يا بن عوف فاغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا

ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم . »
وقال له : « إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم . »
سار عبد الرحمن حتى بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلى
الإسلام فأسلم رئيسهم الإصبع بن عمرو الكبي وأسلم معه ناس
كثير من قومه وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي على الجزية
هو ومن معه .

إلا أن أكيدر صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه
للسابلة من تجار المدينة ولعل لمكانة سوق دومة الجندل وكثرة
التجار بها وعدم تعريج أحد من المدينة عليها دخلاً في هذا
التعرض الذي لا يبعد أن يكون للمنافسة التجارية أثر فيه غير
قليل ، وأراد الرسول إقرار الأمن في تلك الربوع فدعا خالد بن
الوليد وبعثه على رأس سرية إلى أكيدر هذا ، فلما بلغ الركب
خصاية دومة الجندل وجدوا صاحبها في نفر من قومه يتصيدون
فأسروا أكيدر وقتلوا أخاه ورجعوا إلى المدينة بأسيرهم ، فحقن
له رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه وصالحه على الجزية ثم خلى
سبيله ورجع إلى بلده وقد كتب له رسول الله هذا الكتاب :
« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله لا أكيدر دومة
حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن

الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها : أن لنا الضاحية
من الضَحَل والبُور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح
والخافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ،
ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ،
تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقتها ، عليكم بذلك عهد
الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر
من المسلمين ^(١) .

وهذا الصلح تجاري بنتيجته لما ضمن من منافع للمسلمين ،
كما هو تجاري بسببه أيضاً إذ لولا تعرض أهل دومة لمن يجتاز
بقرهم من التجار ما اضطر الرسول إلى إرسال سراياه لتأمين
الطريق وتأديب أهل العيث والفساد .

وبقي القوم على صلحهم حتى كانت سنة اثنتي عشرة للهجرة

(١) انظر الواقي وشرح المواهب للزرقاني ٣: ٣٦١

الضاحية: البارز من أطراف الأرض . والضَحَل: الماء القليل . والبُور: الأرض
التي لم يؤخذ خراجها . والمعامي وأغفال الأرض : ما لا أثر لهم فيها من عمارة
أو نجوها . والحلقة: الدروع والسلاح . الخافر والبراذين والحمير .
والحصن: دومة الجندل . والضامنة: النخل الذي معهم في الحصن . والمعين:
الظاهر من الماء الدائم . ولا تعدل سارحتكم : لا تنجى مواشيكم عن الرعي ولا
تحتسروا إلى المصدق (عامل الزكاة) والفاردة : ما لا تجب فيه الصدقة .

ففتحها خالد عنوة في خلافة الصديق وظفر العرب بأكيدر خارج
دومة فأمر خالد بقتله ^(١) . وكان صاحب صلحهم أكيدر ذا شهرة
في قبائل العرب توازي شهرة حصنه دومة الجندل وشهرة حصن
المشقر . والعرب تنظر إلى أصحاب الحصون نظرة إعظام وإعجاب
بقوتهم ، ولما ذكر لبيد فعل بنات الدهر لم يعظ قومه إلا بأصحاب
الحصون فكان أكيدر دومة هذا أحد من ضربهم مثلاً فقال :
وأعصفن بالدومي من رأس حصنه وأنزلن بالأسباب رب المشقر
يعني بالدومي أكيدر ، وذكر دومة الجندل يشغل صفحات
غير قليلة من تاريخ المسلمين لأنه فيها التقى الحكمان عمرو بن العاص
وأبو موسى الأشعري وكان منهما ما هو معروف .

تنزل قبائل العرب في الجاهلية هذه السوق في أول يوم من
ربيع الأول للبيع والشراء وكان يجمع فيها بيع الحصاة (وقد
تقدم في الكلام على بيوع الجاهلية) .

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة
طي . وكانت كلب أكثر العرب قنّاً فكانوا يفتحون في هذه
السوق حوانيت من شعر يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم . وكانوا
— على عادة بعض العرب — يكرهون فيها فتياتهم على البغاء

ويأخذون لأنفسهم كسب أولئك البغايا من إمامهم . فلما كان
الإسلام وحرّم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالى :
« وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » ، تنزّه
العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله
عما كان منهم قبل الإسلام .

يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب وكان رؤساء
السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان ، أي الحيين غلب
خضع له الآخر . وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها
قال الألوسي :

« كان أكيدر صاحب دومة الجندل يورع الناس ويقوم
بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف الشهر . وربما غلب على
السوق بنو كلب فيعشرهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بني
كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر .

فكان إذن بين أكيدر وقبيلة كلب ثنافس شديد على
الاستيلاء على هذه السوق ومكسها ، فأكيدر يتولى أمرها حيناً
ويعشر من بها ، والكلبي حيناً يستأثر بالحكم فيها والاضطلاع
بشؤونها . أما الغريب حقاً فهو ما ذكره المرزوقي من حل لهذا
الخلاف والتطاحن بين الملكين وهو إن صح - وليس يبعد -

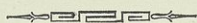
أطلعنا على صورة طريفة من عقلية القوم وعاداتهم قال :
« وكان ملكها (يعني سوق دومة الجندل) بين أكيدر
العبادي من السكون ، وبين قنافة الكلبي . وكان غلبة الملكين
بأن يتحاجيا !! فأيهما غلب صاحبه بما يلقي عليه تركه والسوق
يفعل بها ما يشاء . ولم يبع فيها أحد من الشام ولا أهل العراق
إلا بإذنه ، ولم يشتر فيها ولم يبع حتى يبيع الملك كل شيء يريد
بيعه مع ما كان إليه من مكسها . »

فأنت ترى أن الأمر ذو خطر وفوائد كثيرة يستحق هذا
التطاحن عليه .

يدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الأول وتغص
بمن يؤمها من أطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة . وهي من
الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون في سيرهم إليها نصباً
كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن ، ولا
يحملهم على ذلك كله إلا ما تغريهم به هذه السوق من ربح
وفائدة قال المرزوقي :

« كانت قريش تخرج إليها قاصداً من مكة ، فإن أخذت
على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع وكانوا إذا

خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب
حلفاء بني تميم فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى
يخرجوا على طي فتعطيهم وتدلم على ما أرادوا لأن طيئاً حلفاء
بني أسد ، فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمور ؟ مرثد
من بني قيس بن ثعلبة فتجيز لهم ذلك ربيعة كلها ^(١) .
ثم نفتر حركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر ، إذ
يفترق أهلها وموعدهم إليها من قابل ، شهر ربيع الأول .



سوق المشقر

المشقر حصن بالبحرين لعبد القيس وهو قريب من هجر .
وأهله أزد يمانون كما سيأتي في الكلام على سوق عمان ، جاء في
مراصد الاطلاع :

« المشقر حصن بين نجران والبحرين ، يقال إنه من بناء
طسم ، وهو على تل عال ، يقابله حصن بني سدوس ، ويقال إنه
بناء سليمان ، وقيل هو حصن بالبحرين لعبد القيس ، يلي حصناً
آخر لهم يقال له الصفا قبل مدينة هجر ، والمسجد الجامع بالمشقر ؛
وبينهما نهر يجري إلى جانب مدينة محمد بن الغمر يقال له العين .»
فالظاهر من هذا الكلام أن هذا الحصن وثيق البنيان ، ذو خطر ،
حتى رفعوا نسبة بنائه إلى سليمان ، ومعظم العاديات يردّها بعض
رواة الأخبار من العرب إلى سليمان ، وحتى ضرب به المثل في
المنعة والإحكام قال المخبل :

فلئن بنيت لي المشقر في صعب نقصر دونه العصم^(١)

(١) العَصَم جمع أعصم : وهو من الوعول ما في ذرائعنه أو في أحدهما
بياض وسائر أسود أو أحمر .

لَتَتَّقِينَ عَنِي الْمَنِيَةَ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَعِلْمِهِ عِلْمٌ
وَشَهْرَةُ الْحَصَنِ مُسْتَفِيزَةٌ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ ذَكَرَهُ كَثِيرُونَ
مِنْهُمْ فَمَنْ ذَكَرَهُ الْأَعَشَى الْقَائِلُ :
فَإِنْ تَمَنَعُوا مِنَّا الْمَشْقَرِ وَالصَّفَا
وَذَكَرَهُ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِي فِي مَرَثِيَّتِهِ لَبْنِيهِ فَقَالَ :
حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرُوءَةٌ بِصَفَا الْمَشْقَرِ كُلِّ يَوْمٍ تُقَرَّعُ

* * *

تَقُومُ فِي الْمَشْقَرِ سَوَاقٌ لِلْعَرَبِ تَبْتَدِئُ مِنْ أَوَّلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ
وَتَسْتَمِرُّ إِلَى سَلْخِهِ فَتَنْفُضُ وَيَغَادِرُهَا النَّاسُ إِلَى جُمَادَى مِنْ
قَابِلٍ ، وَيَنْزِلُهَا أَخْلَاطٌ مِنْ جَمِيعِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ « وَكَانَتْ أَرْضُهَا
مُعْجَبَةٌ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا . » فَلَهَا صِفَاتٌ هَجَرٌ وَخَصْبٌ
إِذْ هِيَ جَزْءٌ مِنْهَا ، وَقَدْ عَلِلَ الْمَرْزُوقِيُّ اخْتِلَافَ قَبَائِلِ النَّاسِ فِي
هَذِهِ النَّوَاحِي بِقَوْلِهِ :

« وَكَانَتْ لَا تَقْدَمُهَا لَطِيمَةٌ إِلَّا تَخْلَفُ مِنْهُمْ بِهَا نَاسٌ ، فَمَنْ
هَنَّاكَ صَارَ يَهْجُرُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ غَيْرِهِمْ »^(١)
وَكَانَ يَبْعُهُمْ فِي هَذِهِ السُّوقِ بِالْمَلَامَسَةِ وَالْإِيْمَاءِ وَالْمَهْمَةِ خَوْفٌ
الْحَلْفِ وَالْكَذِبِ !! وَقَدْ مَرَّ بِكَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْبُيُوعِ فِي مَحَلِّهِ .

(١) الْأُزْمَنَةُ وَالْأَمْكَنَةُ ٢ : ١٦٣ .

كثُر ذكر المشقر في كتب الأدب ، فكان امروء القيس الشاعر ينزله ، وفيه كانت وقعة من الوقائع المشهورة في أيام العرب : إذ حاصر كسرى بني تميم فيه ، وأغلق عليهم بابه ، ثم قتل المقاتلة ، وسبى الذراري بعد أن امتنعوا فيه مدة وذكّر صاحب الأغاني ما يستدل منه على أن كسرى كان له النفوذ على هذه السوق (شأنه في سوق هجر وعمان) يقيمها متى شاء ويعطلها متى شاء قال :

« أمر كسرى بالطعام فادخر في المشقر ، وقد أصابت بني سعد سنة شديدة ، والطعام عنهم محبوس ، وكان المشير على كسرى بذلك هودّة ، وكان له عليهم تارات فقال لكسرى : أيها الملك : « احبس الميرة عنهم ، فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فأينهم يأتونها ، فتصليهم عند ذلك خيلك . » ففعل كسرى وحبس عنهم الأسواق في سنة مجدبة ثم سرح إلى هودّة فأثّاه ٠٠٠ الخ^(١)

(١) ج ١٦ ص ٧٨ والأساورة جمع أسوار وهو : قائد الفرس والجيد الرمي بالسهم ، والثابت على ظهر الفرس ، والخبر كما في الأغاني ، ١٦ : ٤٥ عن ابن الكلي :

بعث كسرى إلى عامله باليمن بعير وكان باذان على الجيش الذي بعثه كسرى إلى اليمن وكانت العير تحمل نبعاً فكانت تبذرق (تحفر) من المدائن =

يقصد هذه السوق العرب وأهل فارس على السواء ويجاورها

= حتى تدفع إلى النعمان ويبذرها النعمان بخفراء من بني ربيعة ومضر حتى يدفعها إلى هوذة بن علي الحنفي فيبذرها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ثم تدفع إلى سعد وتجعل لهم جمالة ففسر فيها فيدفعونها إلى عمال باذان باليمن . فلما بعث كسرى بهذه العير قال هوذة للأساورة : انظروا الذي يجعلونه لبني تميم فأعطونيهِ فأنا أكفيكم أمرهم وأسير فيها معكم حتى تبلغوا مأمنكم ، فخرج هوذة والأساورة والعير معهم من هجر ، حتى إذا كانوا بنطاع بلغ بني سعد ، ما صنع هوذة فساروا إليهم وأخذوا ما كان معهم واقتسموه وقتلوا عامة الأساورة وسلبوهم وأسروا هوذة بن علي فاشترى هوذة نفسه بثلاثمائة بعير ، فساروا معه إلى هجر فأخذوا منه فداءه ففي ذلك يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القرم ليلة؛ أذلجوا بهوذة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانياً عليه وثاق القد والخلق السمر
فعمد هوذة عند ذلك إلى الأساورة الذين أطلقهم بنو سعد وكانوا قد سلبوا فكساهم وحملهم ثم انطلق معهم إلى كسرى ، وكان هوذة رجلاً جميلاً شجاعاً ليلاً فدخل عليه فقص أمر بني تميم وما صنعوا . . . فقال كسرى لهوذة : رأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي أبينك وبينهم صلح ؟ ! قال هوذة : « أيها الملك : بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا أبي . » فقال كسرى : « قد أدركت ثأرك ، فكيف لي بهم ؟ » قال هوذة : « إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك =

من قبائل العرب تميم وعبد القيس • وليس لها ما لغيرها من الأمن والحرمه ، وجميع من يقصدها لا يستغني عن خفارة يسير في حمايتها • وملوك هذه السوق الذين يعشرون الناس فيها أناس من بني عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوى من بني تميم يسرون هنا سيرة الملوك في دومة الجندل ، وهم خاضعون للملك فارس « يستعملهم عليها كما يستعمل بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان ^(١) » ومن يوافي هذه السوق من فارس خلق كثير : ولا تعرض تجارة ولا يقوم بيع حتى تنفق تجارة الملك إبتامها كما هو الشأن في سوق دومة الجندل ، ولا ريب أن ملوك هذه السوق ترسخ إلى حكومة فارس مما يحصلون عليه بالنصيب الأوفى •

= وأمر بالطعام فادخر بالمشقر ومدينة اليمامة وقد أصابت الناس سنة شديدة ثم قال : من دخلها من العرب فأميره ما شاء فبلغ ذلك الناس • وكان أعظم من أتاها بنو سعد فنادي منادي الأساورة « لا يدخلها عربي بسلاح • » فأقيم بوابون على باب المشقر فإذا جاء الرجل ليدخل قالوا : « ضع سلاحك وامر واخرج من الباب الآخر » فيذهب إلى رأس الأساورة فيقتله •

فيزعمون أن خير بن عباد قال : « يا بني تميم ما بعد السلب إلا القتل وأرى قوماً يدخلون ولا يخرجون • » فانصرف منهم من انصرف من بقيتهم وقتلوا بعضهم وتركوا بعضاً محتبسين عندهم • ١ هـ

(١) الأزمه والأمكنه ج ٢ ص ١٦٣ •

سوق هجر

يتناول اسم هجر أرض البحرين عامة ، وهي واليمن وعمان
من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء ، وذكر ياقوت في
معجمه أنها قاعدة البحرين . موقع هذه البلدة في جنوب الخليج
الفارسي ، وتكون على اتصال دائم ببلاد الهند وفارس ، يجلب
إليها مختلف الأصناف ، ولأهلها أسباب آخر للمعاش غير التجارة ،
كالغوص على اللؤلؤ ، وهم لا يزالون على ذلك إلى اليوم كسائر
سكان البحرين ، والنسبة إليها هجري على القياس وهاجري على
غير قياس قال الشاعر :

ورُبَّتْ غارة أوضعت فيها كسحّ الهاجري جريم تمر^(١)
وهجر مشهورة بكثرة وبائها حتى قال عمر بن الخطاب :
« عجبت لتاجر هجر وراكب البحر . » يريد أنهما سواء في

(١) جرم النخلة قطعها ، والجويم التمر اليابس ؛ وهجر أيضاً قرية من
قرى المدينة تنسب إليها القلال الهجرية ، انظر اللسان والتاج وياقوت .

التعرض للخطر . وصارت ديار القرامطة فيما بعد ، وقد احتف بها قبائل كثيرة من مضر .

وهي أكثر بلاد العرب تموراً وأطيبها ، وأروج تجارتها التمر ، به عرفت وبها اشتهر حتى ضرب به المثل فقالوا « كبضع تمر إلى هجر » كما قالوا : « كجالب الدر إلى البحر » قال أبو عبيد : « هذا من الأمثال المبتذلة ، ومن قديمها : وذلك أن هجر معدن التمر والمستبضع إليه مخطئ » . ونخلها كثير ملتف غاية في الجودة والطيب . قال الشاعر يذكر إبلًا خرجت للميرة إلى هجر فرجعت بغير كف ولا طعام :

حُبْسُ بَيْنِ رَمْلَةٍ وَقَفَّ وَبَيْنِ نَخْلٍ هَجَرَ الْمَلْتَفِ
تَمَّتْ أَصْدَرْنَ بَغِيرَ كَفٍّ^(١)

وقد استفاض على ألسنة الناس ذكر تمرها والثناء على جودته وطيبه ، وملئت كتب الأدب بالإشارة إليه ، فهذا رسول جميل إلى بثينة يبلغها ما أرسل به فتتحفه بتمر من تمر هجر^(٢) .

وذاك أعرابي حضر وليمة لعبد الملك بن مروان عجز الفصحاء عن وصف ما حوت من الأطياب والألوان فقليل له : « هل رأيت

(١) ياقوت ، والقُف ما ارتفع من الأرض وحجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة وهو جبل إلا أنه غير طويل . والكف : بقلة الحياء والنعمة .
(٢) الأغاني ٢ : ١٣٨ .

يا أعرابي طعاماً أطيب وأكثر من هذا ؟ » فقال : « أما أكثر فلا وأما أطيب فنعم .. » وذكر طعاماً فيه تمر هجر ^(١) .

(١) ذكر الخبز مفصلاً صاحب الأغاني ٧ : ٥٠ فقال :

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ودعا إليه الناس فأكلوا فقال بعضهم ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه . فقال أعرابي من ناحية القوم : أما أكثر فلا وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه . وطفقوا يضحكون من قوله . فأشار إليه عبد الملك فادني منه ، فقال : ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يبين به صدقك فقال نعم يا أمير المؤمنين :

بينما أنا بهجر في ترب أحر في أقصى حجر ، إذ توفي أبي وترك كلاً وعيالاً وكان له نخل ، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها كأن ثمرها أخفاف الرباع ، لم ير تمر قط أغلظ ولا أصلب ولا أصغر نوى ولا أحلى حلاوة منها . وكانت تطرقها أتان وحشيه قد ألفتها تأوي الليل تحتمها فكانت تثبت رجلها في أصلها وترفع يديها وتعطو بنيتها فلا تترك إلا النبذ والمتفرق فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع فانطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أني أرجع من ساعتي فكشيت يوماً وليلة لا أراها حتى كان السحر فأقبلت فتهيبات لها فرشتها فأصبتها وأجيزت عليها ثم عمدت إلى سرتها فافتريتها ، ثم عمدت إلى حطب جزل فجمعته إلى رصف وعمدت إلى زندي فقدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب وألقيت سرتها فيه وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها فكشفتها وألقيت ما عليها من قذى أو سواد أو رماد ثم قلبت مثل الملائة البيضاء ، فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزعة والمنصفة =

وليس هذا التمر معروفاً عند الأدباء وحدهم ، بل إن ذكره
لأبس مسألة نحوية مشهورة ، فما على الأرض نحوي إلا يعرف
لهجر تمرها ، فقد أتى خلف الأحمر ويحيى اليزيدي أبا المهدي :
أعرباً فصيحاً حجة ، وكان به عارض فوجداه يصلي فلما التفت
قال : « ما خطبك ؟ » قلا : كيف تقول : ليس الشرابُ
إلا العسلُ . فقال : « فما يصنع سودان هجر ؛ ما لهم شراب
غير هذا التمر »^(١)

= فسمعت لها أطيظاً كنداعي عامر وغطفان ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة
فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى في ، فما أحلف أنني ما أكلت طعاماً
مثله قط . فقال له عبد الملك لقد أكلت طعاماً طيباً الخ ...

(١) والقصة على التمام ذكرها أبو علي القالي في أماليه ٣ : ٣٩ قال :
حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصم يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفي
ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو ، « ما شيء بلغني عنك
تجيزه ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « بلغني عنك أنك تجيز : ليس
الطيب إلا المسك بالرفع » فقال أبو عمرو : « نعم يا أبا عمرو وأدب
الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو بنصب ، وليس في الأرض تميمي
إلا وهو يرفع ، » ثم قال أبو عمرو : (قم يا يحيى يعني - اليزيدي - ،
وأنت يا خلف - يعني الأحمر - فاذهب إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع ،
واذهب إلى المنتجع ولقنناه النصب فإنه لا ينصب » .

قال فذهباً فأتيا أبا المهدي فإذا هو يصلي ، وكان به عارض وإذا
هو يقول : « لقد أخساناه عني » ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال : ما =

ولهجر شأن آخر في آداب اللغة العربية غير هذا المثل المضروب
وتلك القاعدة النحوية ، إذ في دِهامسها^(١) هلك المهلهل ، أول من
هلهل الشعر وأرق نسجه ، مات عطشاً في حمارة القيظ (الأغني
٦ : ١٢٨) ومن الغريب أن سبب موته هو خمر هجر هذه :
وذلك أن عمرو بن مالك ومهلهلاً التقيا في خيلين من غير مزاحفة
في بعض الغارات بين بكر وتغلب ، فانهزمت خيل مهلهل وأدركه
عمرو بن مالك فأسره فانطلق به إلى قومه وهم في نواحي هجر ،

= خطبكما ؟ قلنا : « جئناك نسألك عن شيء » ، قال : « هايتا » ،
فقلنا : « كيف تقول ليس الطيب إلا المسك ؟ » فقال : « أتأمراني
بالكذب على كبرة سني ؟ فأين الجادي ؟ وأين كذا ؟ وأين بُنة الإبل
الصادرة ؟ » فقال له خلف : « ليس الشراب إلا العسل » . فقال :
« فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر » . قال اليزيدي :
فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها ،
فقال : « هذا كلام لا دخل فيه » ، ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله
والعملُ بها » . فقال اليزيدي : « ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ
بها » فقال : « ليس هذا الحني ولا الحن قومي » . فكتبنا ماسمعه منه .
ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلاً يعقل فقال له خلف : « ليس الطيب إلا
المسك » فلحقناه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع .
فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمرو لم يبرح ، فأخرج
عيسى بن عمر خاتمه من يده وقال : « ولك الخاتم بهذا والله فقت الناس » . اه .
(١) الدهاس المكان السهل ليس برملا ولا تراب .

فأحسن إيساره ، ومر عليه تاجر يبيع الخمر ، قدم بها من هجر
وكان صديقاً لمهلل يشتري منه الخمر ، فأهدى إليه وهو أسير
زق خمر ، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكراً وشربوا
عند مهملل في بيته - وقد أفرد له عمرو بيتاً يكون فيه - فلما أخذ
منهم الشراب تغنى مهملل فيما كان يقوله من الشعر وينوح به على
كليب ، فسمع ذلك عمرو بن مالك وهاج تغنيه كامن الغيظ
في نفسه فقال : إنه لريان ، والله لا يشرب ماء حتى يرد ربيب
(وريبب هذا جمل كان لعمرو بن مالك ، وكان يتناول الدِّهاس
من أجواف هجر فيرعى فيها غباً بعد عشر في حمارة القيظ)
فأشفق إخوان عمرو من هذا القسم وخافوا أن يزيد الشر بين
الحيين إن هلك مهملل ، فأسرعت ركبانهم وخرجت في طلب
البعير ربيب ، وهم حراس على ألا يقتل مهملل ، فلم يقدرُوا على
البعير حتى مات مهملل عطشاً . ونحر عمرو يومئذ ناقة مسنة
فأسرج جلدها على مهملل وأخرج رأسه .

وهكذا ذهب مهملل من جراء نشوة من خمر هجر^(١) ، وكم
أفقدت الخمر الناس رؤوسهم وسادتهم ، وكم كانت نذير الشر

(١) في الجزء الأول من مسالك الأبصار فصل عن حانات هجر

المشهورة ، فارجع إليه ثمة .

والشوم منذ الزمن الأقدم ، فلنذكرن هجر وخمرها ، وهذه
الميتة الروائية كلما ذكرنا المهلهل وما رقق من شعر .

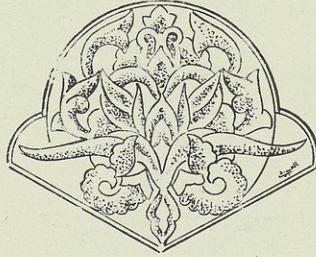
.....

تهبط العرب هذه السوق ولعلها كانت أكثر مكانة من دومة
الجنديل ، لأنها فرصة يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتيهم
بها تجار الهند وفارس مالا يجدون في تلك ، ولأن بها من التمر
ما طبقت شهرته الآفاق ، وضرب في الجودة مثلاً في البلاد ؛ وليس
ذلك بقليل .

وكان بها عدا ذلك ضروب من البضائع ، فعلى مقربة منها
« الخط » المشهورة برماحها . وفي (رياض الصالحين ص ٤٤٩)
أن سويد بن قيس قال : « جلبت أنا ومخرمة العبدى بزاً من
هجر ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل . » فأنت
تري أنه يجلب منها بزّ يباع في المدينة . وكان كسرى يرسل
إلى سوق هجر من تجاراته : يرسل إليها لطائم فيها الطيب
فيباع فيها ثم ترجع موقرة عروضاً وتمراً . وحدث مرة أن
أغار بنو تميم على لطيمة لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير
فأرسل جيشاً أوقع بهم فأخذ الأموال وسبى الذراري بمدينة هجر

وسميت تلك الوقعة « يوم الصفقة ^(١) » . ولعل نفوذ كسرى في هذه السوق كان غير ضئيل .

تقصد العرب هذه السوق بعد انفضاضهم من سوق دومة الجندل ، فإذا أهلّ ربيع الآخر انتقلوا إليها فقامت سوقها . وينظر في أمرها المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم ، يتولى أمرها ويعشر الناس فيها ، وهو ملك البحرين عامة .



(١) انظر الخبر مفصلاً في العقد الفريد ٣ : ٣٥٤ .

سوق عُمان

كورة عربية في جنوب الخليج الفارسي تمتد على ساحل بحر اليمن ، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع ، وهي شديدة الحرارة حتى إن حرها يضرب به المثل .

وبها فواكه جُرومية^(١) (كالموز والمان والتين ونحو ذلك)

ولعل نخيلها متميز من غيره ، فقد ذكروا أن بالبصرة نخلة يقال لها (العمانية) لا يزال عليها السنة كلها طلع جديد وكبائس مشمرة وأخرى مرطبة . قيل إنها سميت بعمان بن نفشان بن سبأ أخي عدن^(٢) وقيل من عمن بعمن إذا أقام ، وقد اشتقوا منها فعلاً فقالوا : أعمن وعمن إذا أتى عمان ، قال العبدى :

فإن تتهموا أنجد خلافاً عليكم وإن تعمنوا مستحقي الحر أعرق

وعمان كغيره من أعلام الأمكنة تصرف ولا تصرف ،

وبكليهما ورد الشعر ، فمن أمثلتها غير مصروفة قول الشاعر :

أحب عمان من حبي سليمي وما عهدي بحب قرى عمان

(١) مسالك الممالك للاصطخري . (٢) تاج العروس .

عدها الهمداني في (صفة جزيرة العرب ص ٤٨) من مخاليف
اليمن ، نزلها من الأزد على قبائل يحمد وحدان ومالك والحارث
وعتيك وجديد (ص ٢١١) ، واستشهد الهمداني على قوله بشواهد
من الشعر :

وأزدها البحرين والسيف^(١) كله وأرض عمان بعد أرض المشقر^(٢)
وغسان الذين هم استتبوا قبائلهم بأطراف البلاد^(٣)
وحياً منهم نزلوا عماناً أراهم لم يهـموا بارتداد
وغسان من الأزد كما هو معلوم ، واستشهد أيضاً بهذا الشاهد
وهو يريد الأزد طبعاً :

فاقرت قرارها بعمان فعمان محل تلك الحماة^(٤)
وتضرب بها العرب المثل في بعدها لأنها في أقصى الجزيرة
إلى الشرق والجنوب تفصلها عن اليمن صحراء الأحقاف وهي
بعيدة عن الحجاز والعراق والشام .

ذكر ياقوت أن الحسن بن عادية قال : لقيت عبد الله بن عمر
فقال : « من أي بلد أنت ؟ » قلت : « من عمان » قال :
« أفلا أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »
قلت : « بلى » قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سيف البحر : ساحله . (٢) ٢٠٦ (٣) ٢٠٧ (٤) ٢١٠

يقول : « إني لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها عمان على شاطئ البحر : الحجة منها أفضل من حجتين من غيرها » ومن المفسرين من ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى : « وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » عمان .

ولو عرف الشاعر أبعد منها لذكره محلها في قوله يهجو قوماً :

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان
والظاهر أنها على بعدها لم تكن تخلو من أخلاط القبائل
ومختلف الأمم ، شأن كل فرضة تجارية ، فلم تقتصر على الأزد
الذين روينا لك فيهم ما ذكره الهمداني ، لأنها أقرب بلاد
العرب من الهند وليس بينها وبين فارس إلا المضيق فكان فيها
النزلاء الغرباء من هؤلاء ، عدا من يقصدها من العرب للتجارة
فيقيم فيها ، وقد ظلت تحت نفوذ الفرس الفعلي ، وكان ملوك
فارس هم الذين يعينون عليها الأمراء فاستعملوا بني المستكبر -
على رواية المرزوقي - وقد تقدم أن لهم نفوذاً على هجر وعلى
المشقر كما سيأتي فتكون فارس قد بسطت سلطانها على سواحل
الخليج الفارسي كله وعلى سواحل بحر اليمن حين أرسلوا الأحرار
فطردوا الحبشة منها ، وبذلك يكون لهم نصف سواحل جزيرة
العرب ، وما زالت الفرض والشواطئ عرضة للأطاع ينزلها كل

قوي ، فكيف إذا كانت خصبة فيها الغنى كعمان ، وقد جاء في الحديث : « من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان . » فتجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة ، وفيها ذخائر متنوعة ومعادن جيدة وخصب ورخاء ، فجمعوا بذلك أسباب الثروة والغنى فلم يكن من الغريب طمع فارس فيهم .

وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الأعاجم فيها واختلاط أهلها بهم ، حتى أدخل ذلك الضيم على لغتهم فلم يعرفوا في العرب بالفصاحة . ولما رأى أبو عمرو بن العلاء أعرابياً من عمان فصيحاً لم يكتف استغرابه من حسن وصفه لبلده وفصاحة منطقته ، حتى عرف أن الأعرابي بعيد عن مراكز الاختلاط تلك ، ذكر القالي (٣ : ١٦) عنه أنه قال :

لقيت أعرابياً بمكة ، فقلت له : « ممن أنت ؟ » قال : « أسدي . » قلت : « ومن أيهم ؟ » قال : « نهدي . » قلت من أي البلاد ؟ قال : « من عمان . » قلت : « فأنت لك هذه الفصاحة ؟ » قال : « إنا سكننا قطراً لا نسمع فيه ناجخة التيار . » قلت : « صف لي أرضك . » قال : « سيف أفيح ، وفضاء صحصح ، وجبل صروح ، ورمل أصبح ، قلت : « فما مالك ؟ » قال : « النخل . » قلت : « فأين أنت عن الإبل ؟ » قال : « إن النخل

حملها غذاء ، وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكرها صلاء ،
وليفها رشاء ، وخواصها وعاء وقرّوها إناء^(١) . « وذكر صاحب
مراصد الاطلاع أن أهلها خوارج أباضية .

* * *

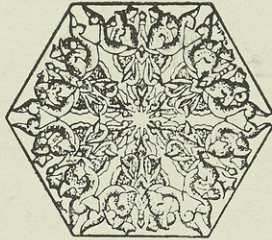
نقصد العرب هذه السوق إذا انتهت من سوق هجر ، فترحل
إلى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الأولى . وهي لتوسطها
بين فارس والهند والحبشة ، تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثلاث
وكانت جمالها تحمل (الورس) من اليمن إلى عمان حيث تعالج
الأشياء التي يراد صبغها بالصفرة .

وذكر الألوسي أن بأرضها معادن جيدة وذخائر متنوعة .
وقد كان يستخرج بها عنبر مشهور ، احتفظت عمان بشهرتها به
حتى أيام الرشيد فقد ذكر في الأغاني أنه « جاء العباس بن
محمد إلى الرشيد يوماً ببرنية غالية فوضعها بين يديه ثم قال : « هذه
يا أمير المؤمنين غالية صنعتها لك بيدي ، اختير عنبرها من بحر

(١) ناجخة التيار : صوت الموج ، والسيف الأفيح : الشاطئ الواسع ،
والصحصح : الصحراء ، والصروح : الصلب ، الأصبح : الذي بعلو
رياضه حمرة ، والرشاء : الجبل . والقرّو : وعاء من جذع النخل
ينبذ فيه .

عمان ، ومسكها من مفاوز التبت ، وبانها من ثغر تهامة ،
فالفصائل كلها مجموعة فيها ٠٠٠ الخ^(١)»

في هذه السوق يجري التبادل بين بضائع فارس والهند والحبشة
واليمن والحجاز والشام ، يصب فيها كل تاجر قطر ، ما حمل من
قطره ، ويرجع إلى بلده بما يأخذه من عروض ليست فيه ؛
ولهذا كان فيها جاليات من كل أمة وكل قبيلة .



سوق حباشة

تقوم هذه السوق بتهامة في ديار بارق نحو (قنونا) على ست ليال من مكة إلى جهة اليمن . فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجاز واليمن . وأصل الحبش الجمع والحباشة الجماعة من الناس ليسوا من جنس واحد ، ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأجناس للتجارة . وليست من مواسم الحج . وكما سميت سوق تهامة القديمة بهذا الاسم سميت به سوق أخرى لبني قينقاع تقام في رجب أيضاً . كما هي اسم للأزد أيضاً . والمشهورة منهما هي الأولى التي بتهامة .

وقد تاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء في الحديث :

« لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ أشده وليس له كثير مال ، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة وهي سوق بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش وكان من قول

الرسول وهو يحدث عن هذه التجارة الكبيرة : « ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة ، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تحببته لنا . » اهـ

كان لهذه السوق ما لغيرها من المزايا : يكون فيها فداء الأسرى ونشدان الثأر . . . عدا أمور التجارة . ولما قتل الشنفرى الشاعر ، حرام بن جابر قاتل أبيه ، أتى رجل أسد بن جابر أخا المقتول فقال : « تركت الشنفرى بسوق حباشة » فرصد له قوم القتل حتى أسروه وقتلوه .

وليس لحباشة شأن الأسواق العربية الكبرى ، فإنها تأتي في الدرجة الثانية في الخطر ، وتكاد تكون لما حولها في الغالب ، على خلاف الأمر في بقية الأسواق التي هي من مواسم الحج . بقيت هذه السوق قائمة كل عام حتى سنة سبع وتسعين ومئة ، إذ تركت في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي . والسبب في خرابها : أن من عادة ولاية مكة أن يستعملوا عليها رجلاً يخرج معهم بجند فيقيمون بها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب واستمر الأمر على هذا حتى قتلت الأزد والياً كان عليها من

قبيلة غني ، بعثه داود بن عيسى بن موسى ، فأشار فقهاء مكة على داود بتخريبها فخرّبها وترك منذ ذلك الوقت ^(١) . »

(١) أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١

ذيل — لهذه السوق يد كبرى على العلم بنعم بفضلها كل باحث شرقي وغربي ، لأنها كانت السبب المباشر في تزويدنا بأوسع معجم جغرافي تاريخي وهو (معجم البلدان) لياقوت رحمه الله فقد جاء في مقدمة هذا المعجم ما نصه :
« وكان أول البواعث لجمع هذا الكتاب أنني سئلت بمرور الشاهجان في سنة (٥٦١٥ هـ) عن حباشة : اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، فقلت : أرى أنه حباشة بضم الحاء قياساً على أصل هذه اللغة لأن الحباشة الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحشت له حباشة أي جمعت له شيئاً . فأنهري لي رجل من المحدثين وقال : إنما هو حباشة بالفتح ، وصمم على ذلك وكبر ، واجاهم بالعناد من غير حجة وناظر . فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ، إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل ، فاستقصيت كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بمرور يومئذ وكثرة وجودها في الوقوف وسهولة تناولها فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمرء ، وبأس مع وجود بحث وامراء ، فكان موافقاً والحمد لله لما قلته ، ومكيداً بالصاع الذي كتبه . فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم لكتاب في هذا الشأن مضبوط ، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ محوط . ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً ، وإلى ضوء الصواب داعياً ، وشرح صدر لي لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون ولم يهتم الغابرون . . . الخ ما قال »

سوق صحار

بلد من أعمار بلاد العرب وأغناها وأطفحها بالمتاجر جاء في
(مسالك الممالك) للإصطخري عند الكلام على 'عمان': «وقصبتها
صحار، وهي على البحر وبها متاجر البحر وتصد المراكب. وهي
أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر
فارس بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار
وبها مدن كثيرة وبلغني أن حدود أعمالها (٣٠٠) فرسخ وكان
الغالب عليها الشراة.»

وياقوت وصفها لنا كما شاهدها وصفاً أسهب وأدل على مكانتها
التجارية الكبرى فقال:

«صحار قصبة عمان مما يلي الجبل (وتوأم: قصبتها مما يلي
الساحل): مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجر
والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلاً. وليس على بحر
الصين (يريد فرض الجزيرة التي على بحر الهند) بلد أجل منه،

عامر آهل ، حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه ، أجل من زيد وصنعاء ؛ وأسواق عجيبية وبلدة ظريفة ممتدة على البحر . دورهم من الآجر والساج ، شاهقة نفيسة ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء . وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن . والمصلّى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ . فتفتحها المسلمون أيام أبي بكر سنة (١٢) صلحاً . « وهذا الوصف وإن كان لعهد ياقوت فإننا نستطيع أن نفهم منه مدى الشأن التجاري الذي كانت تتمتع به صحار ^(١) في الجاهلية أيضاً . فقد كان بها تجارات واسعة تجلب إلى مختلف أقطار الجزيرة العربية وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن بثوبين صحاريين .

* * *

تقيم العرب السوق العامة في صحار من عاشر رجب إلى الخامس عشر منه بعد انفضاض سوق حباشة . والظاهر أنها تمتد إلى ما بعد الخامس عشر من رجب ، فإن من لم يشهد الأسواق التي كانت قبلها لشغله عنها أو لأنه لا أرب له فيما يباع بما قبلها

(١) في فهرس الأماكن لكتاب (صفة جزيرة العرب) : «صحار في اليمن» و «صحار في البحرين» فهما صحاران إذن . إلا أن المشهورة هي صحار اليمن وهي التي نتكلم عليها هنا .

من الأسواق ، يوافيها فيجد فيها من البز المنشور وغيره من البياعات .
وذكر المرزوقي ^(١) : « أنهم يقيمونها لعشرين يوماً من رجب . »
ولا يناقض هذا ما قدمناه ، لأن افتتاح السوق وانفضاضها لم
يكن بساعة محتمة لا تقدم عنها ولا تأخر ، بل إن من العرب
من لا يكون حضر ما قبلها فيأتيها من أول رجب . ومنهم من
يكون في حباشة أو غيرها فيوافيها متأخراً . وتبقى البيوع قائمة
حتى ينتهي أصحابها منها .

وليست صحار من الأسواق العامة ولا من المواسم مثل عكاظ
حتى يحرسوا عليها ذلك الحرص ، وإنما هي سوق تجارية محضة
لما حولها ولمن يقصدها ، على أنها كثيراً ما يأتيها التاجر البعيد .
وقيام هذه السوق في رجب يغني قاصدها عن الحماية فيقدمها
الناس غالباً بلا خفارة ولا حذر إلا من المحليين ، لأن رجب شهر
حرام . فهي من هذه الجهة تمتاز من الأسواق التي تقوم في غير
الشهر الحرام مثل سوق المشقر وغيرها .

يعشر الناس في هذه السوق الجبلندي . . . وذكر الأزرقي أن
يبيعهم فيها باللقاء الحجارة على ما تقدم في فصل البيوع كما هو
الأمر في سوق دومة الجندل .

سوق دبا

دبا (١) ، سوق ذكرها المرزوقي في جملة أسواق العرب .
والظاهر أنها كانت قديماً ذات شأن إذ كانت قصبة عمان ثم
اضمحل مركزها وزاحتها صحار وصارت هي قصبة هذا القطر فمن
ثم لم يكن لها من الشأن مثل ما لغيرها . وصفها صاحب مرصد الاطلاع
بأنها سوق من أسواق العرب بعمان وأنها مدينة عظيمة مشهورة .
قال ياقوت : « دبا سوق من أسواق العرب بعمان وهي مدينة
قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها وكانت
قديماً قصبة عمان . ولعل هذه السوق المذكورة كانت عندها .
فتحها المسلمون أيام أبي بكر عنوة سنة ١١ للهجرة . »

* * *

جعل المرزوقي تاريخ قيام هذه السوق بين سوقي صحار والشحر .
ونستطيع أن نفهم شيئاً من خطرهما التجاري إذا علمنا أنها من
فرض العرب المشهورة ، وأنه يكون فيها من لا يكون في غيرها

من تجار الهند والصين وأهل المشرق والمغرب ، وتمتاز من غيرها
بالبضائع الأجنبية التي يحملها التجار من بلادهم في البحر وتنفذ
منها تجارات العرب إلى الخارج .

تقوم سوقها آخر يوم من رجب ويشتري بها بضائع جزيرة
العرب وبضائع الأقليم . ومن البدهي أن البيع فيها لن يكون
باللقاء الحجارة ولا بالإيماء ولا بغيرهما من البيوع الخاصة لمكان
الأجانب منها ، بل هو بالمساومة لأن السوق سوق مختلطة غير
خالصة الصبغة .

ولا يباع فيها شيء حتى يبيع ملكها الجلندي كل ما عنده
تم يعشر الناس فيها كما يفعل غيره من الملوك في غيرها من
الأسواق .

سوق الشحر

يطلق اسم الشَّحَر على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب بين عدن وعمان ، والشحر مأخوذ من مشعر الأرض وهو مسبخ الأرض ومنابت الحموض ، وتشتمل على بلاد وأودية وقرى ، والمراد بها هنا شحر مهرة وهي قصبتها ، وليس فيها زرع ونخيل وإنما أبوالهم الإبل ، « وبها نُجِب من الإبل تفضل في السير سائر النجب »^(١) . ونظراً لوقوعها في أقصى جنوب الجزيرة على بحر الهند ضربوا بها المثل في البعد فيقولون :

« لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر »^(٢) واختلاط أهلها بالنازلة من الحبشة والهند وفارس وغيرهم من التجار مع ما في لسانهم من الفروق بينه وبين لغة الحجاز جعل أهلها غير فصحاء حتى قال الإصطخري « ألسنتهم مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها » . وأرضهم في الجملة مقفرة ، وعيش أهلها من الأنعام والتجارة والصيد . اشتهرت منذ القديم بعنبرها الذي لا نظير له ، فكل عنبر جيد

(١) مسالك الممالك للإصطخري (٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢١٣

إليها ينسب ، قال الثعالبي في ثمار القلوب : « عنبر الشجر يضرب
به المثل قال الشاعر :

ولو كنت عطراً كنت من عنبر الشجر »
واللبان الذي يحمل إلى الآفاق منها يجلب .

* * *

تقوم هذه السوق في النصف من شعبان بعد انقضاء سوق
« دبا » ويقصدها من كان ثمة من تجار البر والبحر ، والبضاعة
الرائجة فيها البز والأدم والكنندر والمر والصبر والدخن (١) .

ولا يسير إليها قاصدها إلا بخفارة لبعدها وانقطاعها فلا غنى
لتجار العرب عن خفارة يتخفرون بها ، وكان يقوم أحياناً بهذه
الخفارة أهل مهرة أنفسهم .

« ولم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة » وفي
هذه السوق بيوع كالتى تقدمت في سوق دومة الجندل من رمي
الحصاة وإلقاء الحجارة .

(١) الكُنْدَر : ضرب من العلك نافع لقطع البلغم ، والمر دواء معروف
نافع للسعال ولسع العقارب وديدان الأمعاء ، والدُّخْن : حب أصفر من حب
الجاورس ، أملس جداً بارد يابس حابس للطبع .

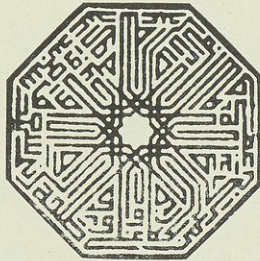
سوق عدن أبين

قيل إن هذه التسمية نسبة إلى بانيها أبين ، وعدن بالمكان أقام فمن هنا قول من قال إنها اشتقت من العدن لأن أبين رجل من حمير أقام فيها . إلا أن صاحب تاج العروس قال « نقل شيخنا عن حواشي الكشف للفاضل اليمني وهو أعرف ببلاده : أبين اسم قصبة بينها وبين عدن ثمانية فراسخ ، أضيفت إليها لأدنى ملابسة . »

وعدن مدينة ذات موقع جغرافي ممتاز ، على بحر الهند إلى جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق ، فيها مرسى للسفن الواردة إلى آسيا من البحر الأحمر ، وبها كانت تمر مراكب الهند ومصر والحجاز والحبشة منذ القديم للحط والإقلاع ، وهي في ذيل جبل ينتهي بسور إلى البحر « رديئة الهواء لا ماء بها ولا مرعى ، وشرب أهلها من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم^(١) » والماء ينقل إليها على ظهور الدواب .

وأهم تجارات هذه السوق الطيب بأنواعه ، ويجلب إليها
الادم والبرود من معافر وتكثر فيها اللطائم ، وبها مغاوص اللؤلؤ ،
بقيت على شأنها هذا حتى الإسلام فازدهت في عهده تجارتها حتى
« أصبحت فرضة اليمن ومقر كل فضل مستحسن » وإن الطيب
الذي يستعمله سائر الناس كان يتخذ بها وصار لأهلها بصنعه مهارة
فائقة قال المرزوقي : « وكان طيب الخلق جميعا بها يعبا ، ولم
يكن يحسن صنعه أحد من غير العرب ، حتى إن تجار البحر
لترجع بالطيب المعمول (بعدن) تفخر به في السند والهند ،
وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم . وإن الناس على ذلك
(إلى اليوم) ما يحسن اليوم حمله إلا أهل الإسلام بعدن ^(١) »
كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر بعد انقضاء سوقها نزلوا عدن
فأقاموا بها السوق مدة العشر الأول من رمضان ، أما تجار البحر
فإنهم يستغنون عن شهودها بما شهدوا من الأسواق قبلها ، إلا من بقي
من بيعه شيء لم ينفد بعد ، أو فاته حضور ما قبلها ، فإنه يشهدا مع الناس
فيستدرك بها ما فاته من اتجار . ثم ينفذ الناس منها إلى رمضان من قابل .
وقاصد هذه السوق في غنى عن خفارة الناس لقيام حكومة
منظمة فيها فإنها من مخالفات اليمن ، لذلك لا يتخفر أحد فيها ،

وتوَدَى عشور هذه السوق إلى ملكها من حمير أو من خلف
حمير على ملكها . ولما صارت في حوزة الأبناء من فارس حين
غلبوا على اليمن كما امتد نفوذ مملكتهم على سواحل العرب
الشرقية والجنوبية كلها ، جعل الناس يؤدون العشور فيها إلى هؤلاء .
ولعل حال الأخذ والعطاء في هذه السوق أنشط وأوسع
والتجارة فيها حرة أكثر ، لأن من قام على أمور عدن من حمير
أو من الفرس لم يكونوا يتاجرون لأنفسهم فيها كما يفعل أكيدر
في دومة أو الجلندي في صحار فينحجز الناس عن عرض بضائعهم
حتى يبيع الملك كل ما عنده من متاع ، فكانت التجارة تحظى
في هذه السوق بشيء من الانطلاق لكف ملوكها عن مزاحمة
الرعية على هذا المورد من الكسب .



سوق صنعاء

صنعاء أطيب بلاد اليمن ، بل جنة جزيرة العرب كلها ،
هي مضرب الأمثال في طيب الهواء واعتمداله وحسن العيش قال
ياقوت : « صنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها تشبه بدمشق
لكثرة فواكهها وتدفق مياهها ، وليس بجميع اليمن أكبر ولا
أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء . وهي من الاعتدال في الهواء
بحيث لا يتحول الإنسان من مكان طول عمره صيفاً ولا شتاء ،
وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وغاية ساعات النهار بها
اثنتا عشرة ساعة وإحدى وخمسون دقيقة ^(١) . طيبة الهواء كثيرة
الماء . قدم يزيد بن الصعق صنعاء ورأى أهلها وما فيها من
العجائب ، فلما انصرف قيل له : كيف رأيت صنعاء ؟ فقال :
ومن ير صنعاء الجنود وأهلها وجنود حمير قاطنين ، وحميرا
يعلم بأن العيش قسم بينهم جلبوا الصفاء فأنهلوا ، ما كدراً
ويرى مقامات عليها بهجة يأرجن هندياً ومسكاً أذفرا . »

وليس من الغريب أن نسمع يميناً كالحمداني يشيد بذكرها
فيقول : « هي إحدى جنان الأرض عند كافة الناس »^(١) فقد
حيرت بحسنها وكثرة أشجارها ومياهها ومروجها وأنهارها وطيب
أوديتها غيره فدهش أول ما رآها وملكه الإعجاب^(٢) : « قال
أحمد بن موسى وهو من الشعراء المتأخرين حين رفع إلى صنعاء
وصار إلى ثقل السود (على مقربة منها) :

إذا طلعنا (ثقل السود) لاح لنا من أفق صنعاء مصطاف ومرتبِع
يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد وحبذا واديك الظهر والضلَع^(٣) »
بقيت صنعاء^(٤) دار سلطنة وإمارة حتى يومنا هذا . وقد كان
بها مقر ملوك اليمن قديماً وفيها قصر غمدان وهو بناء شاهق على

(١) الإكليل ٨ : ١٢

(٢) ومن الطريف أن يذكر ياقوت أيضاً أن صنعاء اسم لقربة على
باب دمشق دون المزة . مقابل مسجد خاتون ، خربت وهي اليوم مزرعة
وبساتين . وفي هذا دلالة على أن العرب مولعون بذكر ديارهم وأوطانهم
أينما حلوا ، هم على الوفاء لعهدا تحت كل سماء ، وإطلاقهم صنعاء على
هذه القربة الخربة لعهد ياقوت ، كإطلاقهم على بلاد الأندلس وجناتها
أسماء حمص ودمشق . . . الخ .

(٣) تاج العروس

(٤) نعتها الحمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) نعتاً جليلاً حوى =

تل عظيم اتخذه أقيال اليمن وليس في اليمن جميعه بناء أرفع منه .
« ويكون سوق صنعاء في واديهها ، قيل هو وادي عليب ،
وقيل هو أصل جبل نعيم مما يلي قبليه وقيل غدير الحقل ^(١) . »

= معارف قيمة جداً عن هذه البلدة العظيمة وانظر على سبيل المثال ما ذكره عن ضروب فواكهها فإنها في هذا فاقت دمشق نفسها قال ص ١٩٦ :
« جميع الثمار بها من العنب الملاحى والدوالي والأشهب والدُرّيج والنواصي والزبادي والأطواف والعيون والقوارير والجُرشي والنشاني والتابكي والرازي والضروع . ويؤتى إليها من خيوان بالرومي ، ومن الجوف بالوادي . وبها الرمان الحلو والحامض والممزوج والمليس والسفرجل ، وليس يلحق به سفرجل البلاد لأن فيه شيئاً من الحموضة والقبض ، والإجاص والمشمش والتفاح الحلو والتفاح الحامض والممزوج . والخوخ الحميري والخوخ الفارسي والخوخ الهندي والجوز الفرك واللوز الفرك ، والحلو منه والمر والكثير وقد وُفِدَ إلى صنعاء قديمة . وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ ؛ وجميع أصناف البقول وجميع الحبوب . . . » وكثير جداً أن يكون ببلدة واحدة أربعة عشر صنفاً من العنب وحده . وقد أفاض الحمداني بعد هذا بتفصيل مستفيض عن طعامها وألوانه وعن خبزها بما هو غاية في الطرافة والخطر فليرجع إليه ثمة . ولو أن كل قطر عربي حظي بباحث كالحمداني لما كنا اليوم في معارفنا عن بلادنا في ظمأ وغلة لا نجد لها أدنى ري .

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر وعدن أقاموا سوق صنعاء
فاستمرت من نصف شهر رمضان حتى آخره . يأتونها « بالقطن
والزعفران والأصبغ وأشباهها مما ينفق بها ويشترون فيها ما يريدون
من البز والحرير ^(١) » وكان أروج تجارتها الغالية والأدم والبرود
وكان هذان الصنفان الأخيران يجلبان إليها أيضاً من معافر
إحدى قرى اليمن فتباع فيها وتصدر إلى الأقطار وكذلك يجلب
منها من الخرز شيء كثير .

كان يبيعهم فيها الجس جس اليد ^(٢) ، وكان يعشر الناس
فيها الأبناء ^(٣) بعد أن كان يعشرهم أمراؤهم من حمير .

سوق حضرموت

حضرموت إقليم واسع يشتمل على بلاد وقرى ومياه وجبال وأودية باليمن ، يكون إلى جنوبه الشحر ، وإلى شرقه عمان وإلى غربه صنعاء . قريب من البحر وفيه رمال واسعة كثيرة تعرف بالأحقاف ، وهذا الصقع كثير الجبال والأودية وهو في جملته قاحل ، والبلد نفسها صغيرة ضئيلة الشأن ، راسل أهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا في طاعته صلحاً ، وقدم عليه الأشعث بن قيس في بضعة عشر راكباً مسلماً في وفد فأكرمه الرسول^(١)

وأغلب قوت أهلها التمر ، لأن بها نخلاً كثيراً ، وقد كشفت

(١) ياقوت ، وقد اهتم بعض القدامى من المؤلفين بما حظيت به من كثرة الأولياء ، ورأوا في تسجيل ذلك عوضاً مما فاتها من خصب وصعة فقال القزويني في عجائب المخلوقات : « نقل شيخنا عن تفسير أبي الحسن البكري في قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) : يستثنى من ذلك أهل حضرموت لأنهم أهل ضحك وشدة ، وهي تنبت الأولياء كما تنبت البقل وأهلها أهل رياضة .

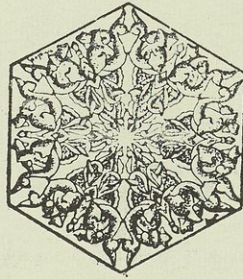
الحفريات الآن في هذا القطر عن مدن خربة عليها كتابات بالخط
المسند ، مما يدل أن لسكانه في القديم شأنًا يذكّر .
يتخذ بها نعال جيدة ذات شهرة وتنسب إليها فيقال : نعل
حضرية وهي الملسنة من النعال .

* * *

تقوم السوق في رابية بحضرموت فتعرف أيضاً بسوق الرابية ،
من منتصف ذي القعدة حتى آخره ، وربما قامت هي
وعكاظ في يوم واحد ، فكان بعض الناس يأخذ إلى عكاظ
وبعضهم يتوجه إلى رابية حضرموت ، وهذه السوق خاصة بمن
حولها ، ولكن كثيراً ما يأتيها الناس من بعيد ، ولقریش قوافل
إلى هذه السوق ترسلها في تجارتها ، وكثير من العرب يجوزها
إلى غيرها ولا يحضرها ، ونظراً لانقطاعها عما حولها لم يستغن
قاصدها عن دليل وخفير قال المرزوقي :

« أما الرابية فلم يكن يصل إليها أحد إلا بنخفارة ، لأنها لم
تكن أرض مملكة ، وكان من عزّ فيها بزّ صاحبه ، فكانت
قریش تتخفر بيني آكل المرار من كندة ، وسائر الناس (يتخفرون)
بآل مسروق بن وائل الحضرمي ، فكانت مكرمة لأهل البيتين ،

وفضل أحدهما على الآخر كفضل قریش على سائر الناس ^(١) «
فستفيد هذان الحیان من الحفارة والدلالة معاً ربماً مادياً إذ
كان كسبهم من أولئك التجار الذين یمشون بین أيديهم بسلاحهم
یجرسون بضائعهم ویحمون حیاتهم ویدلونهم على الطريق .



(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٥ .

سوق عكاظ

عكاظ^(١) هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية ، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر : فهي مجمع أدبي لغوي رسمي ، له محكمون تضرب عليهم القباب ، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، فما استجادوه فهو الجيد ، وما بهرجوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن في البوادي والحوضر . يحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمني والعُماني ، كلُّ ألفاظ حية ولغة قطره ، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلًا واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق وي طرح المحفوق الثقيل .

(١) ورد في (عكاظ) الصرف وعدمه . وقد جربنا على منعه لأنارأنا

المنع هو الأكثر فيها والأشهر .

وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة ، يحمل إليها من كل بلد تجارتها وصناعاته كما يحمل إليها أدبه ، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصرى والسمن من البوادي ، ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم ، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح .

وبباع فيها الحرير والوكاء والخدء والمسير والعدي ، يحملها إليها التجار من معادنها ، وفيها من زيوت الشام وزينبها وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحمله في قفولها إلى مكة . ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع العجاري .

وببيع فيها كل غاز سلبه وكثيراً ما يكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوي المقتول فعرفه ، فإنه يضمها في نفسه وينتظر أن يظفر بالرجل ليشأ منه .

وقد كانت تجارة فارس يصل منها أشياء إلى عكاظ : فإن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة (وهي في الأصل العير المحملة مسكاً) في جوار رجل شريف من أشراف العرب يحيرها له ويحميها من كل معتد حتى تصل سالمة إلى عكاظ فقباع هناك ويشترى له بثمنها ما يحتاج

إليه من آدم (جلود) الطائف وسائر المتاع في عكاظ : من حريز وعصب ومسيّر ، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا : « أديم عكاظي » نسبة إليها .

وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية : فها هنا قس يخطب الناس ، يذكر الخالق ويعظمهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير . وهناك خالد بن أرطاة الكلبي تابعه قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبد الله البجلي ومع هذا حيه أيضاً ، وقد ساق كل منهما مالاً عظيماً ينافر عليه ، وعرضا الحكومة على رجال قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيين ، فالرجلان في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساقا الرهن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة دون جميع من شهد على ذلك المشهد ، وثمة كاهن وعراف وعائف وقائف وقرد ، وغنم ، وصحيفة وكاتب .

وهناك أناس من غواة الشهرة : هذا يمد رجله وينشد شعراً ويقول : « من كان أعز العرب فليقطع رجلي » وآخر يأتي عكاظ بيناته ترويحاً لزواجهن ، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون إليه . . . قال المرزوقي :

« كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب : كان

الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد ، والحلة الحسنة ،
والمركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه : « ليأخذه أعز العرب »
يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن
صلته وجائزته . »

وهي أيضاً ندوة سياسية عامة ، تقضى فيها أمور كثيرة بين
القبائل : فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجأؤوه بها ،
ومن أراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى
عكاظ وخلده فيها شعراً ، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك
في عكاظ حتى يسمع عامة الناس ، ومن أراد إعلان حرب على
قوم أعلنه في عكاظ ؛ حتى جمعية الأمم وما تقوم به من مجهود
(رسمي) في سبيل السلم الخاص ، كان لها صورة مصغرة تشبهها
بحسب الظاهر [لا في الحقيقة ، لأن عكاظ لم تكن ترائي
فتستغل الدعاية الشريفة لتبسيغ للقوي أكل الضعيف] ، فقد
روى الأصفهاني أنه : « اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم
قرة بن هبيرة القشيري والمخبل وهو في جوار قرة ، في سنين
تتابع على الناس ، فتواعدوا وتواقفوا ألا يتغاوروا حتى يخضب
الناس ! »

وكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه وقد تقدم آنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار الحروب . فمن أتى عملاً شائناً تأباه مروءة العربي شهروا أمره بعكاظ ونصبوا له راية غدر فعرفوه فلعنوه واجتنبوه ، ومن أراد أن يستلحق امرأً بنسبه استلحقه وأعلن ذلك للناس في عكاظ ، ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب ما ، تبرأ منه علناً ، فإذا أتى بعد ذلك جريمة أو خيانة كان المتبرئ — في عرف العرب يومئذ — في حلٍ مما أتى قريبه : ذكروا « أن قيس ابن الحداية من شعراء الجاهلية ، كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً خليعاً ، وقد جرّ على قومه خزاعة عنتاً وإرهاقاً كبيراً ، فخلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه فلا تحمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه ^(١) » .

وإذا أطلق لقب على أحد في عكاظ عرف صاحبه به ، وجرى له مجرى اسمه واسم أبيه : قاتل أبو ربيعة بن المغيرة من قريش يوم شرب (وهو من أيام عكاظ) برمحين فسمي ذا الرمحين وبه يعرف ، وثبت في هذه الحروب من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الستة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو

وأبو عمرو فسموا (العنابس) والعنابس الأسد^(١) . وأمثال ذلك .
وخير ما يعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم
الأحداث التي جرت فيها ، فتمثل بواسطتها أحوال العرب في
هذه السوق الكبرى ، في بيعهم وشرائهم وتخاصمهم ونفاخرهم
وحروبهم وسلمهم ، فإن في ذلك تفصيل ما أجملت^(٢) .

وأشد ما يثير الاستغراب ، هذا الشبه الكبير بين عكاظ
ومعارض هذا العصر ، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض
فإنه لا يقتصر على مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلى الأدب
والشعر والحرب والسلم والعادات . . . فإذا أنا أفضت في وصف
عكاظ وما فيها ، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب

(١) القاموس مادة (عنابس)

(٢) هذه الأخبار مبثوثة في بطون الأسفار وقد لقيت في جمعها وتبويبها من
العناء نصيباً غير يسير ، فإنه ليس لدينا تفصيل جلي عن عكاظ مجموع في موطن
واحد ، وأوسع فصل عنها هو ما ذكره الأوسى رحمه الله في بلوغ الأرب وبكاد
يقتصر هذا الفصل على ذكر حروب عكاظ وتنف تتعلق بالمفاخرة وهو شيء لا ينقع
غلة ولا يكاد يرسم الخطوط الأولى للصورة . ونحن نعلم أن الكلمة والحكمة
والثلاث ، والسطر والسطرين . . . مما يكون عرضاً في خبر من الأخبار ، قد
يكون له من البلاء الحسن في الكشف عن الحقائق والدلالة على العادات ، لا
يكون للفصل المطول تقروؤه في موضوع واحد .

أيضاً ، فليس فيهن سوق تساميهما . وما جرى في عكاظ جرى قريب منه في بقية الأسواق مع مراعاة صغر هذه واقتصارها أحياناً على أهل ناحية واحدة ، فليكن تاريخ عكاظ إذن تاريخاً لكل أسواق العرب ، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً .

* * *

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . هذا زبدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ^(١) . تقوم

(١) من حسن الحظ أن ذهب فتحري موضعها بنفسه باحث عربي فوصفه لنا . وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ص ٧٩ قال : « على مرحلتين من مكة للذهاب إلى الطائف في طريق السيل ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين ، فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس — بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ . . . وهذه الباحة هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة ، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن . . . والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة (بكسر ففتح) والآخر البيته (بصيغة التصغير) وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل . . . وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون : إن عكاظاً كان في مكان يعرف اليوم باسم (القهاوي) في وادي لية من الطائف . غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفاً من أنه هو (القانس) نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار » .

السوق في مكان منه يعرف بالأثداء فيه مياه ونخل وهو مستو
لا علم فيه ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل
الجاهلية ، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام^(١) . كانوا يطوفون
حول صخور فيها ، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد
ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها . وبالأثداء كانت أيام الفجار .
أما اشتقاق عكاظ ولم سميت بهذا الاسم ، فقد ذهب الغويون
فيه مذاهب ، وقلبوا الكلمة على معانيها المختلفة : فالقهر والحبس
ورد الفخر والتجادل والتحاج . . . كل هذه معان للعكظ ،
وكلاهما صالحة لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم : سميت عكاظ
لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة
أي يقهره ويعركه ، وقال آخرون إنها من تعكظ القوم إذا
تحدسوا لينظروا في أمورهم ، وذهب غيرهم إلى أنها من التعاكظ
بمعنى التفاخر .

نقوم هذه السوق في ذي القعدة ، وللعلماء بعد خلاف في
تعيين أيامها من هذا الشهر ، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتى

(١) معجم ما استعجم للبكري ٦٦٠ ومراسد الاطلاع وياقوت .

آخره ، وآخرون يجعلون وقتها في شوال^(١) إلا أن الأكثرين على أنها تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه ، إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة ، فإذا أهل ذو الحجة انتشع الناس من مجنة إلى ذي الحجاز قرب عرفة وبقوا فيها حتى يوم التروية فيبدأ الحج .

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة : الزمن الرسمي للسوق .
وحين تذهب جماعاتهم إلى مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشراؤه فلا يتم خلوه السوق تماماً إلا في غرة ذي الحجة عند اقتراب الحج^(٢) .

والسوق لقيس بن عيلان وثقيف وهي بمعكد هوازن ، وأرضها لنصر ، حتى لقد منعت هوازن قريشاً مرة من حضور عكاظ ، فقد روى الهمداني أنه لما طرد عبد الله بن جدعان القرشي مئة ناقة لكلاب بن ربيعة من هوازن ، أرسل هذا إلى قريش :
« إن سفيهم أغار علي فطردنا مئة ناقة ، فليس لكم أن

(١) ذكره صاحب مراصد الاطلاع وياقوت في إحدى روايته .

(٢) هناك من نقل : أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل ، لها أيضاً سوق أسبوعية تقوم كل يوم أحد لليبيع والشراء .
انظر (مدينة العرب في الجاهلية والإسلام) لرشدي ص ٥٩

تشهدوا عكاظ ، ولي عليكم ترة ، وكان عكاظ في وسط أرض
قيس عيلان ^(١) » ونوت قریش قتل ابن جدعان لعدم استغنائهم
عن حضور السوق .

ينزل السوق « قریش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش
وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب ^(٢) » يؤمونها من العراق
والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة .
فهي عامة حتى أنه ليس فيها مكّاس ولا عشار لأنها لم تكن
في ملك أحد من الأمراء . وقربها من مكة ومشاعر الحج البسها
حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء ، ولعل من أهم ميزاتها
صفتها العامة هذه ، أما الفصل بين الناس فيها فزعم المرزوقي
« أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم يكون ذلك
في أفخاذهم : الموسم على حدة ، وعكاظ على حدة ، وكان من
اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني وسعد بن زيد مناة
من تميم ، وقد فخر الخبيل بذلك في شعره فقال :

ليالي سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب
ثم وليه (فلان وفلان ٠٠) حتى جاء الإسلام فكان يقضي

(١) الإكليل ج ٨ ص ١٨٤

(٢) الأزرقي ١٣١

بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، وكان أبوه قاضيها
في الجاهلية ، فمات فصار ذلك ميراثاً لهم ، وكان آخر من قضى
منهم ووصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس .
وكان الناس ينزلونها منحازين على مداعيهم وراياتهم في المنازل ،
تضبط أمور كل قبيلة أشرافها وقادتها . ويختلط بعض الناس في
بعض إذا هبطوا بطن السوق للبيع والشراء .

تقيم العرب هؤلاء الأيام في عكاظ يتهيئون للحج ويتبايعون
ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاضمون^(١) . ولم
يكن مجمع للعرب أحفل من عكاظ ، فكانوا يضربون بكثرة
أهلها المثل ، وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في
الأمالي : أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب لما
سئل عن قتله علياً قال : « ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ
لقتلتهم^(٢) » .

(١) المفاخرة أن يتحاكم اثنان في : أهما آباؤه أكثر مفاخر .
والمنافرة أن يتحاكما في : أيها أعز نفرأ من صاحبه . والمعاضمة أن
يتحاكما في : أيها أعظم مصيبة . والمقارعة شبيهة بالمنافرة . هذا وقد
يكفى المتنافران بالحكم مجرداً وقد يجعلان بينهما جعلاً للذي يحكم له
بالغلبة : إبلاً أو جارية أو مالا . . .

وكما كان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم . كانت
الحكومة في الشعر للنابعة الذبياني .
لا عاشر لهذه السوق ، وأما بيعهم فيها فهو السرار وجس
اليد^(١) .

وإليك الآن مثلاً مما كان يجري في عكاظ سياسة ومنافرة
وفداء أسرى ، وأدباً وحرباً ومتاجرة :

(١) انظر فصل بيوع الجاهلية .

١ — مناصرة

اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ،
وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجل أهل
زمانها ، فخطبها يزيد وعامر . فقالت أم كلاب امرأة أمية :
« من هذان الرجلان ؟ » فقال : « هذا يزيد بن عبد المدان ،
وهذا عامر بن الطفيل . » فقالت : « أعرف بني الديان ، ولا
أعرف عامراً . » فقال : « هل سمعت بملاعب الأُسنة ؟ » فقالت :
« نعم » قال : « فهذا ابن أخيه » وأقبل يزيد يفاخر خصمه فقال :
— « يا أمية إن ابن الديان صاحب الكتيبة ورئيس مذبح
ومكلم العقاب ، ومن كان يصوب أصابعه فتمتطف دماً ويدلك
راحتيه فتخرجان ذهباً . »

فقال أمية : — « بخ بخ ! مرعى ولا كالسعدان ^(١)
(فأرسلها مثلاً) :

(١) في مجمع الأمثال للميداني « السعدان آخر العشب لبنًا ، وإذا
خثر ابن الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدم . ومنابت السعدان :
السهول . وهو من أنجع المراعي في المال ، ولا يحسن على نبت كما يحسن
عليه . » ثم ذكر روايتين في أول من أرسل هذا المثل : الأولى أنه
الخنساء الشاعرة ، والثانية - رواها عن المفضل - : أن قائله امرأة من
طيء كان تزوجها امرؤ القيس . وارجع إلى القصة هناك .

فقال يزيد : — يا عامر ! هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحة
إلى رجل من قومك ؟

قال : اللهم لا .

قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ؟

قل : اللهم نعم .

قال : فهل لكم نجم يمان أو برد يمان أو سيف يمان أو

ركن يمان .

قال : لا

قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟

قال : نعم

فنهض يزيد وأنشأ يقول : مخاطباً أبا البنت :

أمي يابن الأسكر بن مدلج لا تجعل هوازناً كمدحج

إنك إن تلجج بأمر تلجج ما النبع في مغرسه كالعوسج

ولا الصريح المحض كالمزج

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان ابنقه . ثم لجج التهجي بين الرجلين



٢ — في سبيل بغى

وإني معاوية بن عمرو بن الشريد ، عكاظ في موسم من
مواسم العرب ، فبينما هو يمشي بسوق عكاظ إذ لقي أسماء المريّة ،
وكانت جميلة ، وزعم أنها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتنعت
عليه وقالت : « أما علمت أنني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟ »
فأحفظته فقال : « أما والله لأقارعه عنك . » قالت :
« شأنك وشأنه . »

فرجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له
فقال هاشم :

« لعمرى لا نريم أياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده . »
ثم مضى عام وأصاب قوم هاشم غرة من معاوية فقتل في خبر
طويل ، وكان بين الحيين يوم حوزة الأول ويوم حوزة الثاني
ويوم ذات الأثل ويوم ملحان وهي من أيام العرب المشهورة
الطالفة أدباً وشعراً ورجزاً . ولها الفضل في إتخاف اللغة العربية
بأكثر قصائد الخنساء لأنها أخت معاوية هذا وأخيه صخر ،
فلهذه الأيام قالت الخنساء أبلغ الرثاء في الشعر العربي .

٣ — غطّة غدر

لقي زُرْعَة بن عمرو بن خويلد النابغة بعكاظ ، فأشار عليه
أن يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم ، فأبى النابغة
الغدر ، فبلغه أن زرعة يقوده فقال من قصيدة :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إليّ غرائب الأشعار
خلفت يا زرع بن عمرو إني رجل يشق على العدو ضارري
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت العجاج فما شققت غباري
أنا اقتسمنا خطميننا بيننا فحملت برّة واحتملت فجار^(١)
فلتأتينك قصائد وليدفعنّ جيشاً إليك قوادم الأكوار^(٢)
رھط ابن كوز محقي أدراعهم فيهم ورھط ربيعة بن حذار . . .
وبنو جذيمة حي صدق سادة غلبوا على خبت إلى تعشار
متكنفي جنبي عكاظ كليهما يدعوبها ولد انهم عرّعار^(٣) . . الخ
وهكذا لم يخنع للتهديد قاضي الشعراء في عكاظ ، بل التزم
الوفاء وشهرّ هذا الذي يريد أن يحمله على الغدر تشهيراً يدرك
عاره كل من في عكاظ .

(١) برة اسم معروف للبر . وفجار : اسم للفجور .

(٢) الكور : رحل الناقة . والقادمة مقدمة .

(٣) عرعار : لعبة لصبيان الأعراب ، كانوا يتداعون بها ليجتمعوا

للعب . يعني أنهم آمنون وصبيانهم يلعبون في عكاظ .

٤ — معاطمة في المصائب

أيام حوزة والأثل وملحان ، ذهبت بوالد الخنساء عمرو بن الشريد وبأخويها صخر ومعاوية ، فطفقت الخنساء تبكي قتلها ولا تزداد على الأيام إلا إعظاماً لمصيبتها فقرّحت أجفان الناس بما بكت على هؤلاء وخاصة أخاها صخرًا .

انحدرت هذه الشاعرة العظيمة إلى عكاظ تسجل فيها رسمياً أنها أعظم العرب مصيبة ، فليس أحد أصيب بما أصيبت ، فكانت تنزل كل عام على هودج سوّمته لتلفت إليها الأنظار ، وجرت على هذه العادة أعواماً .

ثم كانت وقعة بدر ، التي انتصف فيها الإسلام من مناوئيه وقتل فيها من أعدائه صناديد قريش : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . « فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم . وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم ومعاضمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم وقد سوّمت هودجها براية وأنها تقول : « أنا أعظم العرب مصيبة » وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت هند بما أصيبت به وبلغها ذلك قالت : « أنا أعظم من

الخنساء مصيبة . « وأمرت بهودج فسوّم براية وشهدت الموسم
بمكاظ وجعلت تندب قتلاها بقولها :

من حسّ لي الأخوين كالا غصنين أو من راهما
قرمان^(١) لا يتظالما ن ولا يرام حماهما
ويلي على أبويّ وال قبر الذي واراها
لا مثل كهلي في الكهو ل ولا فتى كفتاهما ... الخ
وقالت : « اقرنوا جملي بجمال الخنساء » ففعلوا ، فلما أن دنت منها
قالت لها الخنساء : « من أنت يا أختي ؟ » قالت : « أنا هند بنت
عتبة ، أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغني أنك تعاضمين العرب
بمصيبتك فبم تعاضمينهم ؟ »

فقالت الخنساء : « بعمر بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو ،
وبم تعاضمينهم أنت ؟ »

قالت : « بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي
الوليد بن عتبة . »

قالت الخنساء « أو سواء هم عندك ؟ ! » ثم أنشدت تقول :
أبكّي أبي عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الحلي هجودها
وصنوي ، لا أنسى معاوية الذي له من سراة الحرتين وفودها

(١) القرّم : الفحل ، السيد .

وصخرآء، ومنذا مثل صخر إذا غدا بساهمة الآطال قُباً يقودها^(١)
 فذلك يا هند الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقودها
 فقالت هند تجيبها :
 أبكي عميد الأبطحين كليهما وحاميها من كل باغ يريد
 أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها
 أولئك آل الجند من آل غالب وفي العز منها حين ينسى عديدها
 وأمر هند والخنساء هذا في عكاظ ، من أغرب ما يوثر في
 باب التنافس واعتناء الناس بمصائبهم واهتمامهم بالتنويه بها وتخليدها
 في آدابهم ومحافلهم العامة . ولعل هذا المنظر ، منظر تينك السيدتين
 بلباسهما الأسود وجليهما المسوَّمين ، أطرف منظر شهدته عكاظ .

٥ - الفجار الأول

جلس بدر بن معشر الغفاري في مجلس له بعكاظ - وكان
 بدر رجلاً حدثاً منيعاً مستطيلاً بمنعته على من ورد عكاظ -
 فجعل يقول ورجل على رأسه قائم :
 نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يطرف

(١) الساهمة : الضامرة . والآطال جمع إطل : ودو الخاصرة . والقُب :

جمع أقب وهو : الدقيق الخصر الضامر البطن . ميسال له فقال : (١)

ومن يَكُونُوا قومه يَظُفِرُ كَأَنَّهُمْ لَجَةُ بَحرِ مَسْدَفٍ^(١)
وهو باسط رجله يقول : « أنا أعزُّ العرب ، فمن زعم أَنَّهُ أعزُّ
مني فليضرب هذه بالسيف فهو أعزُّ مني . » فوثب رجل من بني
نصر بن معاوية فضربه على ركبته فأَندرها ثم قال له : « خذها
إِليك أَيُّها المَخْنَدَف » وَأَنشد وهو ماسك سيفه :

نحن بنو دهمان ذي التغطرف بحر لبحر زاخر لم ينزف
نبني على الأحياء بالمعرِّف

فتحاور الحيان عند ذلك وثارا حتى كادت تكون فتنة
ودماء . ثم تراجعوا ورأوا أَن الخطب يسير .
وهذا الذي هاج أول أيام الفجار بين كنانة وهوازن .

٦ - ظَفِرُ بَئَر

« أَقبل شَأْسُ بن زهير العبسي من عند النعمان بن المنذر ،
وكان قد حباه بجباء جزيل ، وكان فيما حباه قطيفة حمراء ذات
هدب ، وطيلسان وطيب ، فورد منعجاً (وهو ماء لغني) فَأناخ
واحلته إِلى جانب الردهة ، وعليها خباء لرياح بن الأَسَل الغنوي ،
وجعل يَغْتَسِلُ ، فناداه الغنوي : « استتر » فلم يحفل بما قال ،

(١) الغَطْرَفَةُ : الخيلاء والعبث . والمُسْدِفُ : المظلم .

فقال : « استتر ويحك ، البيوت بين يديك ، فلم يحفل ،
وامرأة رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض ، فانتزعه رياح
لسهم فقتله ونحر ناقته فأكلها وضم متاعه وغيب أثره .

فقد شأس بن زهير ، ومكث قومه كذلك ما شاء الله حتى
رأوا امرأة رياح هذه باعت بعكاظ قطيفة حمراء أو بعض ما
كان من حباء الملك ، فعرفوها وعلموا أن رياحاً صاحب ثأرهم .
فغزت بنو عبس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أو دية ، وهرب
رياح منهم ، وكان لعكاظ الفضل في معرفة القاتل إذ عملت في
ذلك عمل زجال التحري اليوم .

بقي قوم شأس ووالده زهير خاصة يكثرون القتل في غني
ولا يشنفون ، وضرب الزمان ضرباته فالتقى خالد بن جعفر بن
كلاب ، هو ووالد شأس القليل العبسي في عكاظ في الشهر
الحرام ، فقال خالد لزهير : « لقد طال شرنا منك يا زهير أما
آن لك أن تشتفي وتكف ؟ » قال زهير : « أما والله ما دامت
لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له . » وأغلظ له زهير وحقره .
وكان ذلك الكلام بينهما أمام رجال من قریش كانوا في عكاظ ،
فلما حقره زهير وسبه قال خالد :

« اللهم أَمَكْنْ يَدِي هَذِهِ ، الشَّقْرَاءَ الْقَصِيرَةَ مِنْ عُنُقِ زَهِيرِ
ابْنِ جَذِيمَةَ ثُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِ . »
فَقَالَ زَهِيرُ : « اللَّهُمَّ أَمَكْنْ يَدِي هَذِهِ الْبَيْضَاءَ الطَّوِيلَةَ مِنْ
عُنُقِ خَالِدٍ ثُمَّ خَلِّ بَيْنَنَا . »
فَقَالَتْ قُرَيْشُ : « هَلَكْتَ وَاللَّهِ يَا زَهِيرُ » . فَقَالَ : « إِنَّكُمْ
- وَاللَّهِ - الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَكُمْ . . »
وَكَانَتْ هَوَازِنُ تُوَوِّقِي زَهِيرَ بْنَ جَذِيمَةَ الْإِثَاوَةَ كُلَّ سَنَةٍ بِعَكَازٍ
وَهُوَ يَسُومُهَا الْخُسْفَ فِي أَنْفُسِهَا مِنْهُ غِيظٌ وَحَقْدٌ .
وَمَضَى الرِّجَالَانِ وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ عَنْ عَكَازٍ وَبَقِيَ خَالِدٌ وَقَوْمُهُ
يَتَرَبَّصُونَ بِزَهِيرٍ حَتَّى وَجَدُوا مِنْهُ غُرَّةً فَقَتَلُوهُ .

٧ - سَيْفُ بَنِي لَصَامِ

قُتِلَ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمٍ - وَكَانَ أَحَدَ الْجَبَّارِينَ الْفَتَّاكِينَ الَّذِينَ
أَضْرَمُوا الْجَزِيرَةَ فِتْنًا وَدِمَاءً - ، قَتَلَهُ ابْنُ الْخُسِّ التَّغْلِبِيُّ ، ثَارًا
بَأْيَةِ الَّذِي كَانَ كَاهِنَ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو الْغَسَّانِيِّ أَمْرَهُ بِقَتْلِهِ الْمَلِكِ
فِي خَيْرِ طَوِيلٍ . .

فَأَخَذَ ابْنُ الْخُسِّ سَيْفَ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمٍ ، فَأَتَى بِهِ عَكَازَ فِي
الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، فَجَعَلَ يَعْضُهُ عَلَى الْبَيْعِ وَيَقُولُ : « هَذَا سَيْفُ

الحارث بن ظالم . « فاشترى قيس بن زهير بن جذيمة ، فأراه إياه
فعلاه به حتى قتله ثم أنشد قيس يرثي الحارث :

وما قصرت من حاضنٍ دون سترها أبر وأوفى منك حارٍ بن ظالم
أعز وأحى عند جارٍ وذمة وأضرب في كابٍ من النقع قاتم^(١)

٨ - شريف غير مقنع

كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن
بعضهم بعضاً تقنّعوا كيلا يعرفوا ، وكذلك كان حال الشرفاء ،
فإنه لا يوافي عكاظ شريف إلا على وجهه برقع ، مخافة أن
يؤسر يوماً فيكبر فداؤه . وكان طريف بن تميم العنبري من
مشهوري شجعان العرب وفرسانهم ، لا يتقنع كما كانوا يتقنعون .
فوافي عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان . وتطوع
منهم رجل للأخذ بثأره من طريف فقال لقومه : « أروني
طريقاً » . فأروه إياه ؛ فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه فأمعن
النظر . ففطن طريف فقال : « مالك تنظر إلي ؟ » فقال :
« أتوسمك لأعرفك ، فله علي إن لقيتك يوماً أن أقتلك » .
فقال طريف في ذلك :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريفهم يتوسم^٢

(١) حار في البيت الاول : مرخم حارث . وكبا الغبار : علا

فتوسموني إني أنا ذلكم
تحتي الأغر ، وفوق جلدي نثرة
حولي أسيد والهجوم ومازن
ولكل بكري لديّ عداوة
فمضى لذلك ما شاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من
أيام العرب فقتله ثأراً لقتيله .

٩ - تأديب سيفه

كان عبد الله بن جعدة سيداً مطاعاً ، وكانت له إتاوة بعكاظ
يوثق بها : يأتيه بها هذا الحي من الأزد وغيرهم ، فجاء سمير
ابن سلمة القشيري وعبد الله جالس على ثياب قد جمعت له من
إتاوته . فأنزله عنها وجلس مكانه ، فجاء رياح بن عمرو بن
ربيعة بن عقيل - وهو الخليلع ، سبي بذلك لتخلعه عن طاعة
الملوك لا يعطيهم الطاعة - فقال للقشيري : « مالك ولشيخنا
تنزله عن إتاوته ونحن ها هنا حوله ؟ »

فقال القشيري : « كذبت ، ما هي له . » ثم مد القشيري

(١) النثرة : الدرع الواسعة . والزغف : الدرع اللينة أو الرقيقة الحسنة

السلاسل . والشاني : الكاره .

رجله فقال : « هذه رجلي فاضربها إن كنت عزيزاً . » قال :
« لا لعمرى ، لا أضرب رجلك . » فقال له القشيري :
« فامد لي رجلك حتى تعلم : أأضربها أم لا . » فقال : « ولا
أمد لك رجلي ، ولكن أفعل ما لا تنكره العشيرة ، وما هو
أعزّ بي ، وأذلّ لك ؟ » ثم أهوى إلى رجل القشيري فسحبه
على قفاه ونجّاه وأقعد عبد الله بن جعدة مكانه .

١٠ - إتاوة

كان زهير بن جذيمة العبسي إتاوة على هوازن . وكان إذا
كانت أيام عكاظ أتاها زهير ويأتيها الناس من كل وجه ، فتأتيه
هوازن باللاتاة التي كانت له في أعناقهم ؛ فيأتونه بالسمن والأقط
والغنم . . . ثم إذا تفرق الناس عن عكاظ نزل زهير بالنفريات .
أنت زهيراً يوماً عجوز من هوازن ، بسمن في نجي واعتذرت
إليه ، وشكت السنين التي تتابعن على الناس ، فذاقه زهير فلم
يرض طعمه ، فدعسها (طعنها) بقوس في يده عطل في صدرها
فاستلقت على قفاها فانكشفت وبدت عورتها ؛ فغضبت من ذلك
هوازن واضطغنتها عليه ؛ مع ما كان في صدرها من الغيظ
والحسد . فتذامرت عامر بن صعصعة يومئذ ، وتألّى خالد بن جعفر

(من سراة هوازن) وقال : « والله لأجعلن ذراعي في عنقه
حتى يُقتل أو أُقتل . » وجعلوه من شأنهم في حروب وأيام
حتى ظفروا به فقتلوه .

١١ - إغاة

أغار قيس بن عاصم المنقري على بني مرة بن عوف بن ذبيان ،
فأسر أحد رجلين من هوازن ؛ جاورا في بني مرة . ففدى كل
قوم أسيرهم من قيس بن عاصم ، وتركوا الهوازي فاستغاث أخوه
بوجوه بني مرة فلم يغثوه .

ركب الهوازي إلى موسم عكاظ فأتى منازل مذحج ليلاً
فنادى يذكّر أسيره ومن استغاث بهم فردّوه :

دعوت سنناً وابن عوف وحرثاً	وعاليت دعوى بالحصين وهاشم
حليفهم الأدنى وجار بيوتهم	بترك أسير عند قيس بن عاصم
فصموا وأحداث الزمان كثيرة	ومن كان عما سرهم غير نائم
فياليت شعري من لإطلاق غمة	ومنذا الذي يحظى به في المواسم

فسمع صوتاً من الوادي ينادي بهذه الأبيات :

ألا أيهذا الذي لم يُجب	عليك بجي يجلي الكرب
عليك بذالحي من مذحج	فإنهم للرضى والغضب

فناد يزيد بن عبد المدان وقيساً وعمرو بن معديكرب
يفكوا أخاك بأموالهم وأقلل بمثلهم في العرب
أولاك الرؤوس فلا تعدّهم ومن يجعل الرأس مثل الذنب؟

فاتبع الصوت فلم يرَ أحداً . فغدا على المكشوح قيس بن
عبد يغوث المرادي فقصّ عليه قصته وأمر الأبيات التي سمعها ثم
قال له : « بدأت بك لتفك أخى . » فقال المكشوح : « والله
إن قيس بن عاصم لرجل ما قارضته معروفاً قط ولا هو لي بجار ،
ولكن اشترى أخاك منه وعليّ الثمن ، ولا يمنعك غلاؤه . » ثم
أتى عمرو بن معديكرب فقال له مثل ذلك وسأله : « هل بدأت
بأحد قبلي ؟ » قال : « نعم ، بقيس المكشوح . » قال : « عليك
بمن بدأت به . » فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فقال : « يا أبا
النضر إن من قصتي كذا وكذا . . . » فقال له : « مرحباً بك
وأهلاً ، ابعث إلى قيس بن عاصم : فإن هو وهب لي أخاك
شكرته ، وإلا أغرت عليه حتى يتقيني بأخيك ، فإن نلتها وإلا
دفعت إليك كل أسير من بني تميم بنجران فاشتريت به أخاك . »
فقال أخو الأسير : « هذا الرضى » فأرسل يزيد إلى قيس بن
عاصم بهذه الأبيات :

يا قيس أرسل أسيراً من بني جشم إني بكل الذي تأتي به جازي

لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ أَنْ تَشْجِيَ بَعْضَتَهُ فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ إِحْمَادِي وَإِعْزَازِي
فَأَفْكَكَ أَخَا مَنْقَرٍ عَنْهُ وَقِلْ حَسَنًا فِيمَا سَأَلْتَ وَعَقَّبَهُ بِإِنْجَازِ
فَبَلَغَهُ الرَّسُولُ ذَلِكَ وَقَالَ : « إِنَّ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَدَانِ يَقْرَأُ
عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ : « إِنَّ الْمَعْرُوفَ قُرُوضٌ وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ،
فَأُطْلِقْ لِي هَذَا الْجَشَمِي فَقَدْ اسْتَعَانَ بِأَشْرَافِ بَنِي جَشَمٍ ، فَلَمْ يَصِبْ
حَاجَتَهُ فَاسْتَجَارَ بِي . وَلَوْ أُرْسِلْتَ إِلَيَّ فِي جَمِيعِ أَسَارِي مُضِرَّ
بَنْجِرَانَ لَقَضَيْتَ حَقَّكَ . » فَقَالَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ تَمِيمٍ :
« هَذَا رَسُولُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَدَانِ سَيِّدِ مَذْحِجٍ وَابْنِ سَيْدِهَا
وَمَنْ لَا يَزَالُ لَهُ فِيكُمْ يَدٌ ، وَهَذِهِ فُرْصَةٌ لَكُمْ فَمَا تَرَوْنَ ؟ » قَالُوا :
« نَرَى أَنَّ نُغْلِيهِ عَلَيْهِ » وَنَحْكُمُ فِيهِ شَطَطًا فَإِنَّهُ لَنْ يَخْذَلَهُ أَبَدًا وَلَوْ
أَتَى ثَمَنَهُ عَلَى مَالِهِ كُلِّهِ . » فَقَالَ قَيْسٌ :
« بَشْمًا رَأَيْتُمْ ، أَلَا تَخَافُونَ سَجَالَ الْحُرُوبِ ، أَوْ دُولَ الْأَيَّامِ ،
وَمَجَازَاةَ الْقُرُوضِ ؟ » فَأَبَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ : « يَبْعُونِيهِ . » فَاشْتَطُوا
بِالْثَمَنِ فَتَرَكَهَ بِأَيْدِيهِمْ وَاعْتَذَرَ إِلَى يَزِيدَ قَائِلًا : « إِنَّ الْأَسِيرَ
يَبِيدُ رَجُلٌ مِنْ سَعْدٍ وَقَدْ اشْتَطُوا فِي ثَمَنِهِ . » فَأَرْسَلَ يَزِيدُ إِلَى
السَّعْدِيِّ وَقَالَ لَهُ : « احْتَكِمْ . » فَقَالَ : « مِئَةُ نَافَةِ وَرَعَاوُهَا
مَعَهَا . » فَقَالَ يَزِيدُ : « إِنَّكَ لَقَصِيرُ الْهَمَةِ ، قَرِيبُ الْغَنَى ، جَاهِلٌ
بِأَخْطَارِ بَنِي الْحَارِثِ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ غَبَنْتَكَ يَا أَخَا بَنِي سَعْدٍ ، وَلَقَدْ

كنت أخاف أن يأتي ثمنه على جلّ أموالنا ، ولكنكم يا بني تميم
قوم قصار الهمم . « وأعطاه ما احتكم . وفكّ الأسير الذي بقي
هو وأخوه مجاورين لمن فكّه حتى ماتا بنجران .

١٢ - مروب الفجار

اختلاط أحياء العرب بعضها ببعض ، وجمع عكاظ للأعداء
المتنافرين في صعيد واحد ، وتحريمها قتال بعضهم بعضاً في أيامها
التي هي في الأشهر الحرم ، لم يمنع الشعب بين الناس ولا الخصومة
والنضال بالكلام أو الشعر . وكثيراً ما كان يهان أحد أفراد
قبيلة بكلمة يثلبه بها خصمه من القبيلة المعادية فينادي : يالَ
فلان ، وينادي الآخر : يالَ فلان ، ويهيج الشر بين القبيلتين .
وكم جرّ من حروب على الحيّ سفهاؤه ، وما أكثر ما ألقى أراذل
قوم كلمات غير مبالين ، فجرت من أجلها الدماء حتى أشرف الحيّان
على الفناء والهلكة . وهذا ما وقع في أكثر أيام الفجار وهي
حروب كانت في عكاظ بين قريش وكنانة من جهة ، وهوازن
من الجهة الثانية . وقد تعددت الوقائع فيها مرة بعد مرة ولذلك
يقول دريد بن الصمة :

تغيبت عن يومي عكاظ كليهما وإن يك يوم ثالث أتغيب

وإن يك يوم رابع لا أكن به وإن يك يوم خامس أتجنب
تعرف كتب الأدب والتاريخ من أحداث الفجار أربعة فأما
الرابع الذي هو أهمها وأكبرها فقد تقدم الكلام عليه في فصل
مخصوص أول الكتاب .

ونتكلم هنا عن أيام الفجار الثلاثة الأولى وهي جميعاً لم تنته
بحرب وإن كادت تشرف عليها ، لأن أسبابها تافهة ولأن عقلاء
الفريقين حالوا دون الشر ، وبذلك نلّم بأحوال سوق عكاظ
المأماً شافياً .

الفجار الأول : — تقدم آنفاً وهو حادث بدر بن معشر الغفاري

(ص ٢٦٠)

الفجار الثاني : — كان بين قريش وهوازن ^(١) . وكان الذي
هاجه أن فتية من قريش جلسوا في سوق عكاظ إلى امرأة
وضيئة من بني عامر بن صعصعة ، وقيل بل أطاف بها شباب من
بني كنانة لا من قريش ، وعليها برقع وهي في درع فضل ،
فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم .
فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري .
فلما قامت تقلص الدرع من خلفها فضحكوا وقالوا منعنا النظر

(١) العقد الفريد

إلى وجهها فقد رأينا خلفها . فنادت المرأة : « يا آل عامر ! »
فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة فحملها حرب بن
أمية وأصلح بينهم .

الفجار الثالث : — « وهو بين كنانة وهوازن ، وكنانة هم
حلفاء قريش . وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان
عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية . وكان الكناني فقيراً ،
فراه دائئه النصرى بسوق عكاظ ، ومع النصرى قرد وافي به
السوق . فوقف في السوق ونادى : « من يبيعي مثل هذا القرد
بمالي على فلان الكناني ؟ » وجعل يعيد النداء حتى أكثر ،
تعبيراً للكناني ولقومه . فمر به رجل من بني كنانة فسمعه فحي
وضرب القرد بسيفه فقتله . فهتف النصرى : يا آل هوازن !
وهتف الكناني : يا آل كنانة ! فتهايج الناس حتى كاد يكون
بينهم قتال . ثم رأوا أن الخطب أيسر مما تكلفوا له فتراجعوا
ولم يقيم الشر بينهم . »

١٣ — واعظ

احتشد الناس في ناحية من عكاظ يتوسطهم شيخ وقور ،
على وجهه سمات اليقين والخير ، وهو على جبل أورق ، قد

أَرَهَفَ النَّاسَ إِلَيْهِ آذَانَهُمْ مُصْغِينَ ، وَأَعَيْنَهُمْ إِلَى وَجْهِهِ ، وَقَدْ
شَدَّهَتْهُمْ الْحَيْرَةُ مِنْ أَلْفَاظِ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَمَا بَعْدَ
الْمَمَاتِ ، وَعِظَاتِ لَا عَهْدَ لَهُمْ بِمَثَلِهَا فِي أَحْيَائِهِمُ النَّائِيَةِ وَأَوْطَانِهِمُ
الشَّاحِبَةِ ، وَإِذَا هُوَ يَخْطِبُهُمْ وَيَقُولُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا وَعُوا ، مِنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ
فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ، لَيْلٌ دَاجٍ وَنَهَارٌ سَاجٍ ، وَسَمَاءٌ
ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَنَجُومٌ تَزْهَرُ ، وَبَحَارٌ تَزْخَرُ ، وَجِبَالٌ مَرْسَاةٌ ، وَأَرْضٌ
مَدْحَاةٌ ، وَأَنْهَارٌ مَجْرَاةٌ . إِنْ فِي السَّمَاءِ لِحُبْرًا وَإِنْ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا
مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ ؟ ! أَرْضُوا فَأَقَامُوا أَمْ تَرَكَوْا
فَنَامُوا ؟

يَقْسِمُ قُسٌّ بِاللَّهِ قِسْمًا لَا إِثْمَ فِيهِ : إِنْ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَرْضِي
لَكُمْ وَأَفْضَلُ مِنْ دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ مِنْ
الْأَمْرِ مِنْكَرًا :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتَ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتَ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي الْأَكْبَارَ وَالْأَصَاغِرُ
أَيَقُنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ . «
سَمِعَ النَّاسُ هَذَا ثُمَّ أَخَذَتْ أَبْصَارُهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَطُوفُونَ

حول الصخور في السوق ، فانصرفوا حيرى ، في أنفسهم شيء .
وكان بين المنصرفين غلام حدث ، هو صاحب الشريعة الإسلامية
صلى الله عليه وسلم . بقي يذكر هذا المشهد حتى بعد أربعين سنة
وقد طبقت الجزيرة دعوة الإسلام فأغارت وأنجحت ، وقدمت
على صاحبها وفود الأقطار بالطاعة والإجابة ، وكان منهم وفد
من إياد قوم قيس ، وفدوا على رسول الله فسمع منهم وقال لهم :
« ما فعل قس بن ساعدة ؟ » قالوا : « مات يا رسول الله . » قال :
« كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جبل له أورق وهو يتكلم
بكلام عليه حلاوة ، ما أجدني أحفظه . »

فقال رجل من القوم : « أنا أحفظه يا رسول الله . » فتلاه
عليه فلما انتهى قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« يرحم الله قساً ، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة
وحده . »^(١)

(١) قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : « لقس ولقومه فضيلة
ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم روى كلامه
وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه .
وهذا شرف تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال . »

١٤ - تنافس شعراء

كان نابغة بني ذبيان تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ ،
 يجتمع إليه فيها الشعراء . فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده
 الأعشى قد أنشده شعره وحكم له ، ثم أنشدته الحنساء قولها :
 قذى بعينك أم بالعين عوار
 حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
 وإن صخرأ لكافينا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشو لنحار
 فقال النابغة : لولا أن أبا بصير (كنية الأعشى) أنشدني
 قبلك لقلت : إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات
 مثانة . قالت : « والله ومن كل ذي خصيتين . »
 فقال حسان : « أنا والله أشعر منك ومنها . » قال : « حيث
 تقول ماذا ؟ » قال : حيث أقول :

لنا الجففات الغر يلعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
 ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابناً
 فقال النابغة : « إنك لشاعر لولا أن قلت عدد جفانك
 وغفرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ! ^(١) »

(١) وفي رواية ثانية : « إنك قلت (الجففات) ولو قلت الجفان =

١٥ - ترويع بنات

كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان الملقب
الكلابي مثناً مملقاً ، فقالت له امرأته « يا أبا كلاب ما يمنعك
من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا
وأكسبه خيراً . »

قال : « ويحك ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل . »
قالت : « الله يخلفها عليك . » قال : « فهل له بد من
الشراب والمسوح ؟ »

قالت : « إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها . »
مرّ الشاعر فتلقاه الملق قبل أن يسبق إليه أحد ، وابنه
يقوده ، فأخذ الخطام فقال الأعشى : « من هذا الذي غلبنا على
خطامنا ؟ » قال : « الملق » قال : « شريف كريم . »

= لكان أكثر ، وقلت (يلعبن في الضحى) ولو قلت بهرفن بالدجى لكان أبلغ في
لمدبح لأن الضيف بالليل أكثر طروفاً ، وقلت (يقطرن من نجدة دما)
فدللت على قلة القتلى ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، ونغرت
بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » فقام حسان منكسراً . وأي الروابطين
كانت فإن حكم عكاظ خليق بنفوذ البصر وصحة النظر وقوة البديهة ؛ فما
عن قليل رضيته العرب يحكم في شعراء عكاظ .

ثم سلمه إليه فأناخه فبحر له ناقته وكشط له عن سنامها
وكبدها ثم سقاه ، وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه ، فقال : « ما
هذه الجواري حولي ؟ » قال الملق : « بنات أخيك وهن ثمان
شريدتهن قليلة . »

ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً
فلما وافى الملق عكاظ ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها
وإذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها :
أرقت وما هذا السهاد المورق^١ وما بي من سقم وما بي تعشق
ولكن أراني لأزال بمحدث أغادى بما لم يس عندى ويترك

* * *

ومنها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى و« الملق »
رضيعي^٢ لبان ندي أم تقاسما بأسحم داج : عوض لا تفرق^٣
تمرى الجوديجري ظاهر آفوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

(١) اليفاع : الأرض المرتفعة . تشب النار : تضرم . والمقرور : من
أصابه البرد وتقاسما : حلفا الأيمان . والأسحم : الأسود . والداجي : المظلم
(يعني بالأسحم الداجي : الليل) . عوض : ظرف لاستغراق الزمن المستقبل .

يداه يدا صدق : فكف مبيدة وكف إذا ما ضنّ بالمال تنفق
ومنها :

أبأسمع سار الذي قد فعلتم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا^(١) . الخ
فما أتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إلى المخلق يهنئون به .
ثم أتى المخلق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى :

« مرحباً بسيد قومه » ثم نادى : « يا معشر العرب هل
منكم مذكر يزوج ابنه إلى الشريف الكريم . »

فتسابق الأشراف إليه جرياً ، يخطبون بناته لمكان شعر
الأعشى ، فاقام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها . ولم
تمس واحدة منهن إلا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل .
فما قولك بفطنة امرأة المخلق ، وحسن دعاية الأعشى ، وهذا
النوع من البضاعة التي روجتها عكاظ .

١٦ - صنعة محررة

حضر عكاظ من سراة الناس في أحد المواسم عمرو بن الشريد
السلمي ، وابناه معاوية وصخر أخوا الخنساء الشاعرة . وحضرها

(١) الكف المبيدة : المهلكة التي لا تبقي على مال . أنجد : أتى نجداً
عرق : سار إلى العراق .

مَعْمَرُ بْنُ الْحَارِثِ جَدُّ جَمِيلِ الشَّاعِرِ الْغَزَلِ . فَلَمَّا نَظَرَ مَعْمَرَ إِلَى
عَمْرٍو صَافَنَهُ وَأَمَرَ وَلَدَهُ أَنْ يَخْدُمُوهُ فَفَعَلُوا .
فَلَمَّا تَقَوَّضَتِ السُّوقُ دَعَا عَمْرٍو بَنَ الشَّرِيدِ ابْنِيهِ مَعَاوِيَةَ وَصَخْرًا
فَقَالَ لَهَا :

« إِنْ مَعْمَرًا قَدْ طَوَّقَنِي مَا لَمْ يَطَوَّقَنِي أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، وَقَدْ
أَحْبَبْتُ أَنْ أَكْفِيهِ . » فَقَالَا : « أَفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ . » فَدَعَا بِكَاتِبٍ
وَصَحِيفَةٍ فَكَتَبَ :

[هَذَا مَا مَنَحَ عَمْرٍو بَنَ الشَّرِيدِ السَّلْمِي ، مَعْمَرُ بْنُ الْحَارِثِ
الْعَذْرَى :

مَنَحَهُ مَالَهُ بِالْوَحِيدَةِ مِنْ أَخْلَافٍ يَثْرِبُ ، أَطْلَالَ ذَاكَ وَمَغَانِيهِ
وَرَسُومِهِ وَأَعْرَاصِهِ وَدَوَاوِيهِ وَزَحَالِفِهِ وَقُرْيَانِهِ وَبِرَازِعِهِ وَقَسُورِهِ
وَعُجْرَتِهِ وَبَشَامِهِ وَيُنْعَهُ وَتَالِيَهُ وَحِمَاطَهُ وَشَبَحَهُ وَأَرَاكِهِ وَأَحْزَتَهُ
وَحَذَارِيَهُ وَأَكَامَهُ وَبُرْقَهُ وَعُلْجَانَهُ ، وَكُلَّ مَا صَاءَ وَصَمَتَ فِيهِ ،
وَبَكَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِ وَضَحَكَتِ الْأَرْضُ عَنْهُ فَهُوَ لِمَعْمَرٍ دُونَ عَمْرٍو .
وَمَمْنُوحٌ بِهِ مِنْ نِيَّاتِ الصَّدْرِ ، لَا يَشُوبُهُ كَدَرُ الْاِمْتِنَانِ وَلَا أَمَارَاتُ
الْاِمْتِهَانِ ، مُسْتَنْزَلٌ مِنْ هَضَابِ الْجَنْدَلِ وَجَرِثُومَةٍ وَدُ بُعِيدِ الْمَحَلِّ
لَا تَخْلُقُ الْأَيَّامُ جَدَّتَهُ وَلَا يَرُكِدُ لِمَتَنَسِّمٍ بَارِحُهُ مَا دَامَ الزَّمَانُ ؛

وتوقّد الحراف وسمّر ابنا سَمِير وأقام حراء وثمير^(١) .

(١) الوحيدة : من أعراض المدينة بينها وبين مكة . الخِلاف : ما أُنبت الصيف من العشب والجمع أخلاف . الأطلال جمع طلل : وهو ما شخص من آثار الدار . والمغنى : المنزل الذي غني به أهله ثم ظعنوا . والرسم : رَكِيّة تدفنها الأرض ، وما لا شخص له من الآثار . والأعراص جمع عَرَصَة : وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء . الدوْبَة : الأرض غير الموافقة ، والدَوّ والدوْبَة والداوْبَة : الفلاة . والزحاليف جمع زُحْلُوفَة : وهي (هنا) المكان المنحدر المملّس . والقَرْي : مسيل الماء من التلاع ، ومدْفَعه من الرَبْو إلى الروضة ، والقَرَو ، حوض طويل ترده الإبل والأرض لا تكاد تقطع ، ومسيل المعصرة ، وأسفل النخلة ينقر فينتبذ فيه والجمع قُريّ . والبراذع جمع برذعة : وهي الأرض لا غليظة صلبة ولا سهلة . والقسورة : نبات سهلي ، والجمع قسور ، وقسورَ النبت : كثر . والعُجْرَم . جمع عَجْرمة : وهي شجر . والبشام : شجر عطر الرائحة يسود الشعر ويستاك بقضيبه . والينع : جل الشجر . والحماط جمع حماطة : شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات أو التين الجبلي أو الأسود الصغير أو الجميز . الشبج : الباب العالي البناء وأشباح المال : ما يعرف من الإبل والغنم وسائر المواشي . والأُرَاك : القطعة من الأرض ، وشجر من الحمض يستاك به . والأحزّة جمع حَزِيز : وهو الموضع الغليظ المنقاد ، كثرت حجارته وغلظت كأنها سكاكين . والحذاري جمع حِذْرِيّة : وهي الأَكْمَة الغليظة ، والقطعة الغليظة من الأرض ، وحرّة لبني سَلَمٍ وهم قوم عمرو صاحب هذا القول . والبرَق جمع بَرَقَة : غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل وطين مختلطة ، وبرق

وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل .
ثم بعث بالكتاب مع طرف من طوائف اليمن وعدد إلى
معمر .

قال الأصمعي : فهي باقية إلى الآن يفيض على ولده دخلها
وذلك في أيام الرشيد رحمه الله^(١)
وهذا سند تملك محرر ، صدر عن عكاظ ليعرفنا كم تهز
الآريحية من نفوس الكرام .

١٧ - صفقة خامسة

« أخسر صفقة من شيخ مهو »

كانت إياد تسبّ بالفسو وتُعيّر به ، فقام رجل من إياد بسوق
عكاظ ومعه بردا حبرة فقال :

ديار العرب تنيف على مئة ذكر صاحب القاموس كثيراً منها فارجع إليه .
والعاجان : كل شجر ذي شوك ، وكل عظيم طويل من الشجر . وما صمت
من المال : الذهب والفضة . وما صاء منه : الإبل وما إليها . وودّ :
الوتد ، واسم جبل ، واسم صنم معروف . والبارح : الريح الحارة في
الصيف . وابنا سمير : الليل والنهار تقول : لا أفعله ما سمر السمير
وابن سمير وابنا سمير : أي ما اختلف الليل والنهار .

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٨

« من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ »
فقام عبد الله بن زبيدة أخو مهو (ومهو حي من عبد القيس)
فقال :

« هاتهما ، واشهدوا أنني اشتريت عار الفسو من إياد لعبد
القيس بهذين البردين . »

فلما أتى رحله وسئل عن البردين قال : « اشتريت لكم بهما
عار الدهر . » فوثبت عبد القيس وقالت :

إن الفساة قبلنا إياد ونحن لا نفسو ولا نكاد
وتفرق الناس عن عكاظ بابتياح عبد القيس عار الفسو حتى
قال الشاعر :

يا من رأى كصفقة ابن ييدرة من صفقة خاسرة محسرة
المشتري الفسو بهردى حبرة شلت يمين صافق ما أخسره
وسارت هذه الصفقة الخاسرة مثلاً بين الناس .
قال ابن دارة :

وإني وإن ضربت جبال قيس وحالفت المزون على تميم
لأخسر صفقة من شيخ مهو وأجور في الحكومة من سدوم^(١)
وتلك غريبة في بابها بين جميع ما أتى القوم في عكاظ .

١٨ - فتنه جمال

زعموا : « أن جارية بن سليط كان أحسن الناس وجها وأمد هم
جسماً ، وأنه أتى عكاظ فأبصرته امرأة من خثعم فأعجبها ،
وتلطفت له حتى وقع عليها . فلما فرغ قالت : « إنك قد أتيتني
على طهر ، وإني لا أدري لعلّي سأعلق لك ولداً ، فموعدك فصال
ولدي إن حملت لك . » فسمي لها اسمه .

ثم وافى عكاظ لرأس ثلاثة أحوال . وأقبلت المرأة مع أمها
وخالتها يلتمسهنه بعكاظ حتى رأته المرأة فعرفته وقالت لأُمها : « هذا
جارية . » قالت أمها : « بمثل جارية فلتزن الزانية ، سرّاً أو علانية . »
ووجد الرجل أن المرأة قد ولدت غلاماً وفطمته . ثم دفعن اليه
الغلام فسماه عوفاً فشرف وصاد قومه وهو عوف الأصم ^(١) .

١٩ - راية غدر

والذي يثلج الصدر ويشفي النفس من مآثر عكاظ ، مشهد
نستطيع أن نفيد فيه درساً بليغاً ، ومثالاً فعالاً وأسلوباً ناجحاً
في محاربة الخائنين ، ووددت - والله - لو أخذنا به في أيامنا العصيبة
هذه ، واحتذينا مثاله ؛ إذ ألبقى كل ساع في فساد يذوق الموت

(١) أمثال الضبي ص ١٨

أولاً حتى يلاقي ربه بالموت المريح . قال المرزوقي :
« كانوا إذا غدر الرجل أوجنى جناية عظيمة ، انطلق أحدهم
حتى يرفع له راية غدر بعكاز ، فيقوم رجل فيخطب بذلك
الغدر فيقول : « ألا إن فلان بن فلان غدر ، فاعرفوا وجهه
ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه . »

فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاز
فلعن ورجم !! وهو قول الشماخ :

ذعرت به القطا ونصبت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين .
وهي خطوة حاسمة موفقة في السياسة السلبية لمحاربة الرذائل ،
ما أظن أن أحداً اهتدى إليها قبل العرب ولا بعدهم .

لم يغفل العرب في عكاز أن يرفعوا مقابل ذلك راية وفاء
لمن أتى مكرمة كلفته المغارم ثم مضى فيها ولم ينكص ، فقد
ذكروا : أن عامر بن جوين رفعت له كندة راية غدر في صنيعه
بامرئ القيس بن حجر في وجهه إلى قيصر ، ورفعت له فزارة
راية وفاء في صنيعه بمنظور بن سيار حيث أقحمته السنة فصار
بماله وإبله وأهله إلى الجبلين فأجاره عامر ووفى له . وصار الناس
بين حامد له وذام^(١) .

(١) انظر كتاب الأئمة والأمكنة ٢: ١٧٠.

٢٠ - داعية الإسلام

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدهن المواسم وليأتين فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلهما ، وكل جماعة في حبيهم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد ، قام في عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا »
ويتبعه رجل له غدیرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول :
« يا أيها الناس إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه »
فعرف الناس أن هذا (الصادق عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب ابن عبد المطلب ، يكذبه كلما قال كلمة الحق .

عاود الدعوة مراراً فلم يُجب ولم ييأس ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد الحبيب ، فكان يقول للحبي في موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شيء . من رضي الذي أدعوه

إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ، إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي
من القتل ، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن
صحبني بما شاء . ^(١)»

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض
وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه ، منهم
من لا ينكر ما يسمع ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول :
قومه أعلم به .

كان هذا دأبه أبداً يوافي به القبائل سنة بعد سنة ، حتى
إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، ما آن لك أن تيأس ؟ »
من طول ما يعرض نفسه عليهم .

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ إلى بني
محارب بن خصفة . فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة ،
فكلمه ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه فقال
الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بنبيك ، والله لا يؤوب بك
رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأغن
عنا نفسك . » وإن أبا لب لقاكم يسمع كلام المحاري . ثم وقف

أبو لهب على المحاري فقال : « لو كان أهل الموسم كلهم مثلك
لترك هذا الدين الذي هو عليه ، إنه صابئ كذاب . » قال
المحاري : « أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ولحمتك . »
ثم قال المحاري : « لعل به يا أبا عتبة لما ، فإن معنارجلًا من
الحي يهتدي لعلاجه . » فلم يرجع أبو لهب بشيء^(١) .

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا :

[أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال :
« ممن القوم ؟ » قلنا : « من بني عامر بن صعصعة . » قال : « من
أي بني عامر ؟ » قلنا : « بنو كعب بن ربيعة . » قال : « كيف المنعة
فيكم ؟ » قلنا : « لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا . » فقال :
« إني رسول الله فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي
ولم أكره أحدًا منكم على شيء ؟ » قالوا : « ومن أي قریش
أنت ؟ » قال : « من بني عبد المطلب » قالوا : « فأين أنت
من بني عبد مناف ؟ » قال : « هم أول من كذبني وطردي . »
قالوا : « ولكننا لا نطردك ولا نوؤمن بك ونمنعك حتى تبلغ
رسالة ربك . »

فنزّل إليهم والقوم يتسوّقون إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري

فقال : « من هذا الذي أراه عندكم أنكره ؟ » قالوا : « هذا محمد بن عبد الله القرشي . » قال : « وما لكم وله ؟ » قالوا : « زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . » قال : « فماذا رددتكم عليه ؟ » قالوا : « قلنا : في الرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا . » قال بجرة : « ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من شيء ترجعون به ، بدأت لتنازلكم الناس وتروميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، لو آتسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه و كذبوه فتوؤونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم . » ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قم ، الحق بقومك ، فوالله لو لا أنك عند قومي لضربت عنقك . »

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها ، فغمر الحبيث بجرة شاكلتها فقصت برسول الله فآلقتهم . وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت : « يال عامر ولا عامر لي ! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ؟ ! »

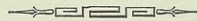
فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة ، وثلاثة أغانوه ،
فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ثم جلس على
صدره ثم علقوا وجوههم لطمًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء . »

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان
أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا إذا
رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه
سألهم عن كان في الموسم فقالوا :

« جاءنا فتى من قریش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب
يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا
إلى بلادنا . »

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

« يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذُنابها من تطلب ؟
فوالذي نفس فلان بيده ، ما نقو لها إسماعيلي قط ، ألا إنها
الحق ؛ فأين كان رأيكم ؟ !! » [^(١)



٢١ - ضمير

بعث رجل من بني جشم امرأته - واسمها عبلة بنت عبيد بن
خالد . . . بن حنظلة - إلى عكاظ بأنحاء سمن تبيعها له فيها ،
فباعت السمن وراحلتين وشربت بسمنها الخمر ، فلما نفذ الثمن رهنّت
ابن أخيه وهربت ، فطلقها فقالت في شربها الخمر :
شربت براحتي مَحَجَنَ فيا ويلتي ، مَحَجَنُ قَاتِلِي
وبابن أخيه على لذة ولم أحتفل عذلة العاذل
وتزوجها عبد شمس بن عبد مناف فولدت له أُمّية الأصغر ،
وعبد أُمّية ونوفلاً ، وهم العبلات .

٢٢ - تليق

ساوم ربيعة بن عمرو بقدح في عكاظ فاستصغره فقال
لصاحبه : « لو وضعت فيه حوثرتي (حشفتي) لملاأته . » فسمي
حوثره بذلك .

الآن وقد استعرضت هذه المشاهد ؛ وذكرت هذه الفقرات
جواً خاصاً تتصوره لعكاظ كلما مرت بك في نقلة من نقل
الأدب أو التاريخ ، الآن تستطيع أن تفهم : لم يعد مؤرخو

الأدب عكاظ في أول ما وحد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن ، وهياً لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكّم في اللغة والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات . وعرفت أيضاً أن عكاظ دنيا تعج بالقاصدين من كل فج عميق ، وأن فيها الخطباء المصاقع يخطبون ، والشعراء الفحول ينشدون ، والأعزة والأشراف يتفاخرون ويتنافرون ، والمتورين يؤمونها للبحث عن واتريهم ، ومن له أسير سعى إلى عكاظ في فكاكه ، ومن أراد أن يأتي عملاً تعرفه له العرب عامة أتاه في عكاظ ، ومن أتى مكرمة في قطر فأحب أن تخلد جاء عكاظ فشهر فيها أمره .
ومن هنا لهج الشعراء بذكرها حتى قال حسان بن ثابت :
سأنشر ما حيت لهم كلاماً ينشر بالمجامع من عكاظ
وقال أبو ذؤيب :

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألو ف
وقال ثالث يضرب بها المثل :

فإنك ضحاك إلى كل صاحب وأنطق من قس غداة عكاظها
وهجا أمية بن خلف الخزاعي حسان وأراد إيلامه فعنونها إلى
عكاظ فقال :

ألا من مبلغ حسان غني مغفلة تدب إلى عكاظ

أليس أبوك فينا كان قينا لدى القينات فسلاً في الحفاظ
 يمانياً يظل يشد كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ^(١) الخ
 فأت إذ تجول في عكاظ ينقسم سمعك خطب وقصائد
 ومفاخرات ومنافرات وخصومات وأنماط من البيع لا تشابه
 وأزياء في اللبس والتكلم والمراكب . . . تجمعت من كل صوب .
 ولما قال عمرو بن كلثوم قصيدته :

ألا هي بصحنك فأصبحينا

في العراق ، أحب أن تسير في الناس ويكتب لها الخلود ،
 فسعى إلى عكاظ في الموسم ، فقام بهذه القصيدة خطيباً ثم قام بها
 أيضاً في موسم مكة .

وكذلك قل في بقية القصائد الطوال التي يسمونها (المعلقات) ،
 فما كان الإجماع ليعقد على أنها أجود الشعر لولا أن المحكمين في
 عكاظ شهدوا لها بذلك وأقر السامعون بتفوقها .

تلك مشاهد عامة مما كان يجري في عكاظ ، وكان العرب
 الذين عرضوا في هذه السوق متاجرهم وأموالهم وأنعامهم ، وعرضوا
 فيها أدبهم وشعرهم ، أبوا إلا أن يعرضوا بقية مقوماتهم فرأينا
 مشاهد عن مياستهم وصلحهم وحربهم . ولو كان لعربي أن يصبر

(١) المغالطة : الرسالة السريعة . والقين : الحداد . والفسل : الرذل الساقط

على ضيم قريب أو بعيد لصبر هؤلاء الجيران في هذه السوق العامة ، ولكن طرح الحسف وردّ الضيم في نفس العربي قبل التجارة والأدب ، ورفع الذل عنده أهون وسائله إهراق الدماء وقطع وريد الحياة ، لأنه لا يفقه عيشاً بقيد ولا يتصور حياة بذل . والظاهر أن احتفال الناس بعكاظ لم يكن واحداً دائماً ، فقد كان في بعض السنين يربي على الغاية في الازدحام والحركة ، حتى تضيق السوق بمن فيها وحتى يربح التاجر والجالب إليه ربحاً عظيماً لا يتأتّى إلا في الفرط النادر . قال المرزوقي : « فلما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والعراق والشام .. » هي إذن معرض عام للجزيرة العربية : فيها عرض لتجارات جميع الأقطار وعرض للبيوع وعرض للعادات وللأديان واللغات والآداب ، وللسياسة . وفيها لجان رسمية على نحو ما نألف في معارضنا اليوم ، تحكم للمتفوق بتفوقه حكماً نافذاً من أقصى الجزيرة إلى أقصاها . وتزيد على معارضنا بميزة جليلة ، وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواضعها لتنتقي منها أحسنها وأخلقها بالبقاء .

لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة إلا أنا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي^(١) ، ولما جاء الإسلام وتوطدت

(١) في بعض المراجع القديمة والحديثة تخبّط في تعيين سنة افتتاحها وتناقض ظاهر : خذ لك مثلاً هذه المصادر : بلوغ الأرب للألوسي ، دائرة معارف وجدي ، الوسيط للأستاذين الإسكندري والعناني ؛ فإنها اتفقت على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة مع أن هناك حديثاً صحيحاً يفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار وعمره أربع عشرة سنة أي بعد الفيل بأربع عشرة سنة فتكون الفجار ونبل الرسول فيها قبل وجود عكاظ بسنة وهو تناقض بين . والغريب حقاً أن ينقل صاحب الوسيط — وهما ما هما فضلاً وتحقيقاً — هذا التحديد عن بلوغ الأرب على علاته في الطبعة الخامسة للوسيط ص ١٢ ثم ينقضاهما نفساهما ص ٢٧ من الكتاب المذكور فيذكر أن نبل الرسول وعمره أربع عشرة . كما فعل الألوسي تماماً . ولو نجا أحد من زلل لنجا هؤلاء الأفاضل الثقات .

أما دائرة معارف وجدي فمع ارتكابها الخطأ نفسه فقد عزّزته بثان فقالت : « عكاظ اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة أي سنة (٥٤٠) ميلادية ؟ وهذا غير صحيح لأن حادث الفيل كان سنة (٥٧٠-٥٧١) م . ولعل الألوسي رحمه الله أراد « قبل الفيل بـ ١٥ سنه » فغيرت في الطبع كلمة (قبل) بـ (بعد) ثم تابعه على الخطأ من بعده . وحينئذ تكون السنة الميلادية التي عيّنها وجدي صحيحة إذا كان افتتاح السوق قبل الفيل بخمس عشرة سنة .

ثم أتى الأستاذ أحمد حسن الزيات فذكر في كتابه « تاريخ الأدب العربي »

أركانها في الجزيرة والعراق والشام بدأ شأنها يضوئ ، ولم تنزل
قائمة إلى أن خرجت الخوارج الحمرورية مع المختار بن عوف
بمكة سنة (١٢٩) للهجرة فنهبوها فتركت إلى الآن .
وعلى هذا تكون هذه السوق قد عمرت أكثر من قرنين
ونصف القرن .



— أن عكاظ افتتحت سنة (٥٤٠ م) ولم ندر من أين استقى هذا التعمين
ولا على أي شيء بناه ، فإن كان مصدره دائرة معارف وجدي فقد
مستبك شأنها .
وإذا تأملت أحداث عكاظ التي عرضنا لها عرفت أن بعضها يرتفع إلى
ما قبل جميع هذه التواريخ التي ذكروها : فالمرأة التي باعت أنحاء السمن
بعكاظ تزوجت بعد ذلك بعبد شمس ، وعمرو بن كلثوم الذي أنشد قصيدته
في عكاظ عاش حول سنة (٥٠٠ م) . وإذا أضفت إلى هذا ما فطن
له الأستاذ أحمد أمين (الرسالة : السنة الأولى : العدد ١٣ ص ٢٥)
في بجوئه عن عكاظ والمربد ، من أن المرزوقي عد عشرة ولوا القضاء بعكاظ
قبل الإسلام ، استظهرت أن السوق مضى على إنشائها زمن قبل أن تصير
فيه هذه الأحداث كلها . من كل ذلك تعرف صحة ما ذهبنا إليه من
أنها كانت في القرن الخامس الميلادي أي قبل سنة (٥٠٠ م) حتماً .

سوق محنة

مَحَنَّةٌ موضع (وقيل بلد) قرب مكة على أميال منها ، تقع
بمر الظهران ، قرب جبل يقال له الأسفل وهو بأسفل مكة على قدر
يريد منها ، ميمها بالفتح وتكسر ^(١) . والظاهر أنها من المواطن
التي لا ينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه ، فقد
جاء في كتب السيرة : أن بلالاً لما هاجر إلى المدينة وأصيب
بالحمى ، تشوَّق إلى مكة ومواطنها وتغنَّى بقوله :

ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً بفخٍّ وحولي إذ خِرَ وجليل
وهل أردنَ يوماً مياه محنةً وهل يبدون لي شامة وطفيل ^(٢)

(١) لم في اشتقاقها أكثر من مذهب ، فقد جاء في تاج العروس أن المحنة
الكثيرة الجن ، وفي الصحاح : أرض محنة : ذات جن . قال ابن جني : « يحتمل
محنة وزنين ، أحدهما أن يكون مفعلة من الجنون كأنها سميت بذلك لشيء
يتصل بالجن أو بالجنة أعني البستان أو ما هذا سبيله ، والآخر أن يكون فعلة
من مجن يمجُن كأنها سميت بذلك لأن ضرباً من المجون كان بها . هذا ما توجه
صناعة علم العرب ، فأما لأي الأمرين وقعت التسمية فذلك أمر طريقه الخبر . »
(٢) أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١ . الإذخر والجليل : نبتان . وشامة وطفيل :
جبلان ، شرفان على محنة .

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة تقوم في العشر
الأخير من ذي القعدة^(١) ويقصدها العرب بقضهم وتضيضهم بعد
أن تنفض سوق عكاظ ، يقيمون فيها ما قصدوا له من تجارة
وفداء وتفاخر و ٠٠٠ على شبه التفصيل المتقدم في عكاظ .
ويجلب إليها ما يجلب إلى تلك من متاع وعروض ، ولم تكن الخمر
لتقل فيها شأنًا عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها من معادنها
من الشام ، ومن بصرى وغزة حتى صار يشيد بذكرها الشعراء ،
قال أبو ذؤيب الهذلي :

سُلَافَةٌ راح ضُمَّتْهَا إِداوَةٌ مَقِيرَةٌ رِدْفٌ لُمُؤْخِرَةُ الرَحْلِ
تَزودُهَا مِنْ أَهْلِ بُصْرَى وَغَزَةٍ عَلَى جَسْرَةٍ مَرْفُوعَةِ الذَّيْلِ وَالْكَفْلِ
خَوَافِي بِهَا عُسْفَانٌ ثَمَّ أَتَى بِهَا «مَجْنَةٌ» تَصِفُو فِي الْقِلَالِ وَلَا تَغْلِي^(٢)
وَمَجْنَةٌ وَعَكَاظٌ وَذُو الْمَجَازِ تَسْتَوِي فِي نَظَرِ الْحَرَمِينَ مِنَ الْعَرَبِ

(١) هذا قول جمهرة العلماء ، أما ياقوت فمع أنه وافقهم على هذا عند كلامه
على (مجنّة) ، خالفهم وناقض قوله هو نفسه فقال عند الكلام على عكاظ هذا
القول الغريب : « كانت العرب تقيم سوق عكاظ في أول شهر شوال ثم تنتقل
إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يومًا من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز
فتقيم فيه إلى أيام الحج . »

(٢) السُلَافَةُ : الخمر وكذا الراح . والإِداوَةُ : المطهرة . والمَقِيرَةُ : المطلية
بالتار . الرِدْفُ : الراكب خلف الراكب وكل ما تبع شيئًا فهو رِدْفُه . =

وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعضهم لا يردّها إلا محرّماً . قال الأزرقي :

[كانت قریش وغيرها من العرب تقول : « لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذی المجاز إلا محرّمين بالحج . » وكانوا يعظّمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدّو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم ^(١) . »

ومجنة — وإن قرنت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذی المجاز — دون هاتين السوقين شأنًا حتى إن المرزوقي لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل اكتفى بقوله : « وزاد بعضهم في الأسواق المجنة وهو قريب من ذی المجاز . »

= والراحل : مركب للبعير . والجسرة : الناقة العظيمة الماضية . والكفيل : مركب للرجال يؤخذ من كساء فيعقد طرفاه فيلقى مقدمه على الكاهل . وآخره مما يلي العجز . القلال جمع قلة : وهي الجرة العظيمة .
(١) أخبار مكة ص ١٣٢

سوق ذي المجاز

لهم في تحديدها قولان : أحدهما أنها على فرسخ من عرفة بناحية كَبْكَب ، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف . ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدي ؛ والثاني : أنه موضع بني ، ومنى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً ، والذين نقلوا الأول أكثر عدداً . وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه ، ولعل السوق أحياناً تمتد أو ينتقل الناس فيها : يقتربون ويبتعدون حتى تشغل هذه المسافة ، وهي أيضاً موضع قريب من العراق لا شأن لنا به .

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب لأنها من أسواقهم الكبرى ، ومن المواسم أيضاً قال أبو ذؤيب :
وراح بها من ذي المجاز عشية يبادر أولى السابقات إلى الجبل
وقال الليثي :

للغانيات بذى المجاز رسومُ في بطن مكة عهدهن قديم
أما التي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء
فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة ، لأن مقام قبيلته يشكر
والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك .

* * *

إذا انتشع الناس عن مجنّة حين يهل ذو الحجة ، ساروا بأجمعهم
إلى هذه السوق وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذي الحجة ،
وهو يوم التروية ، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتون فيه من الماء
ويملؤون أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة . وإلى هذه السوق
تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق قبلها ،
أو لم يشهدها وأتى للحج خاصة ، إذ أن ذا المجاز من مواسم
الحج عندهم .

تحفل ذو المجاز لوقوعها أيام الحج بجموع العرب وتجارهم
وأشرافهم ، وهي تلي عكاظ في الشأن ، ويجري فيها ما يجري
في هذه من تبايع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر . الخ
يقصدها صاحب الثأر ليتعرّف فيها واتره ، فيتربص به انقضاء
الشهر الحرام إن كان من المحرمين وإلا عاجله فأخذ بثأره ،
وروى الأصفهاني :

« أن قيس بن الخطيم لم يزل يلمس غرة من قاتل أبيه

وجدّه في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله ، وظفر بقاتل
جده بذى الحجاز ، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه ،
ولم يكن معه إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حذيفة
ابن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده ، فأتى خدش بن زهير
فنهض معه ببني عامر حتى أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا
هو واقف على راحلته في السوق ، فطعنه قيس بجرية فقتله ثم
استمر . فأراد رهط الرجل فالت بنو عامر دونه ١٠٠ الخ .»

وكثيراً ما يغير قوم على قوم فيسبون من ذراريهم فيستعبدونهم
فينشأ هؤلاء الذراري أرقاء في غير قومهم ، فيباعون في الأسواق
أيام المواسم ، فكانت الجواري والأطفال من جملة العروض
التي يقتنيها العربي في الجاهلية ويبيعه ويشتريه كما يفعل بالتمر
والثياب والسلاح حتى جاء الإسلام فأبطل سبي العربي ، جاء
في الأغاني (١١ : ٧٥) :

« أن أبا وجزة لحق أباه عبيداً - وهو صبي - سباء في الجاهلية ،
فبيع بسوق ذي الحجاز ، فابتاعه رجل من سعد واستعبده ، فضرب
عبيد هذا يوماً ضرع ناقة لمولاه فأدماه ، فلطم المولى وجه العبد ،
فخرج عبيد إلى عمر مستعدياً فلما قدم عليه قال : « يا أمير
المؤمنين أنا رجل من بني سليم ثم من بني ظفر ، أصابني سباء

في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض ، وأنا معروف
النسب ، وقد كان رجل من بني سعد ابتاعني فأساء إلي وضرب
وجهي ، وقد بلغني أنه لا سباء في الإسلام . » فما فرغ من
كلامه حتى كان مولاه قد أتى عمر على أثره فقال : « يا أمير
المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذي الحجاز ، وقد كان يقوم في
مالي ، فأساء ، فضربتة ضربة والله ما أعلمني ضربته غيرها قط ،
وإن الرجل ليضرب ابنه أشد منها فكيف بعده ؛ وأنا أشهدك
أنه حر لوجه الله . » فقال عمر لعبيد : « إنه لا سباء على عربي
وإن هذا الرجل قد امتنّ عليك ، وقطع عنك مؤونة البيعة ،
فإن أحببت فأقم معه فله عليك مئة ، وإن أحببت فالحق بقومك . »
فأقام عبيد مع السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن « اه

هذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو الحجاز التي كانت
تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حذب وصب ،
شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء ، والمفاخرة والإنشاد ،
مشهداً من أفضع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب
الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم ، وابتلعت تلك الأسواق
بضجيجها وما كانت تعجّ به من حوادث ، صوت الدعوة الإسلامية

فما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها في ذلك الرُّغاء والصخب والزحام ، فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ، ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذى الحجاز ، يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجهده ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له : « قومك أعلم بك » (١) .

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج ، موزّع السمع بين داع إلى ثار وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف للإجارة أو حمالة ، وداع إلى عصبية ، وأمر بمنكر . . . فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألّفه قط ، ولا سمع بمثله : رجلاً كهلاً وضيئاً عليه سمات الوقار والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيقة ، وسليم ، وعبس ،

وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء الحارث

ابن كعب وأولئك الحضارمة ٠٠٠ الخ

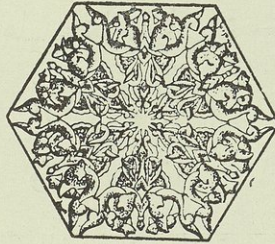
يوئم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى
الله ، وفعل الخير ، فيتجههم له هذا ، ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك
ويحقره آخر ٠٠ فيلقى من الصدّ ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ،
فلا يؤيسه ما لقي ، ولا يكفه ما أودى ، فيمضي متّداً حزبناً
إلى قبيلة أخرى وشريف آخر : يعرض نفسه عليهم ويقول :
« هل من رجل يحملني إلى قومه فإنّ قريشاً قد منعوني أن
أبلغ كلام ربي . » فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيه بوفد
الأنصار .

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة ،
فرأينا أنّ تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد تردد
في أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة .
ولئن صدف عنه الناس وازوروا في أسواق الجاهلية فقد ملأ
هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الخافقين آثاره
التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعِلماً وإنسانية وسعادة ومثلاً
عليها . وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم ، أفواج من أمم
الحضارة والعرفان ، في آسيا وأوروبا وأمريكا ؛ صدّ عنه قديماً

أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زُمر المتحضرين من كل عالم
ومخترع ومصلح وأديب وسياسي ، ومفكرٍ يستضيء بعلمه
وفكره الملايين من الخلائق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحتفظ بهذا الدرس ،
فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً ، لا
بد أنه ظافر في النهاية عليه . ولنعلم أن اليأس لا ينبغي أن يجد
سبيلاً إلى قلب المؤمن ، وأنه :

« لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ »



سوق نطاة خير

خير قرية شمالي المدينة ، بينها وبين تبوك . وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع . ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً . وقيل هي خير نفسها . وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبئة معروفة في العرب بحماها .

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة^(١) . ونظراً لوقوع هذه القرية على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن والشام ساهم أهلها بتجارة الجزيرة ، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها إلى الشام . ونجح أهلها في متاجرتهم حتى أفادوا منها غنى واسعاً واستفادوا لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة . ولا نبعد إذا قلنا إن خير مصرف الجزيرة المالي . ولما فتحها الرسول صلى الله عليه وسلم صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب . ويذكر أصحاب السيرة غنائم خير وما وجدوا فيها من كنوز ، فيذكرون أموالاً جمّة ودنيا

(١) انظر ص ١٩ وما بعدها في هذا الكتاب

عريضة . بنى اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم وميرتهم من طعام وحب وثر . وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم ، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب بن معاذ وهو أعظم حصونها غنائاً وأكثرها طعاماً وودكاً ، ثم الوطيح ، ثم السلام ثم الشق . وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة ، فجعل الصحابة يتبادلونها حتى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة . بين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة .

كان لكل حصن خازن يخبئ أموال أهله وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بني النضير فلما أسر سئل عنه فأذكر فاهتدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة .

اتسعت تجارات اليهود في خيبر وغيرها حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيرى أن يسير قوافل تجارية لحسابه إلى الشام . وهم نشروا في الجزيرة التعامل بالربا كما تقدم في أول الكتاب وأثروا إثراء ضخماً . وكلما مرت غير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خيبر . وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المجاز أي بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدىء سوق حजर .

سوق حجر

تقع بلاد اليمامة إلى غربي البحرين وجنوبي العراق . والطريق إليها من العراق وغيره طويلة شاقة . وقصبتها وأمّ قراها (حجر) وذكر اللسان أنها (الحَجَر) بالتعريف وحكى فيها الكسر أيضاً . ينزل أمراء اليمامة وولاتها في حجر ، حيث السوق وحيث تجلب إليها الأشياء ، إذ هي مصر اليمامة عامة وفي وسطها . وهي في قاعٍ فيه نخيل وماء و كان به قصور في القديم حين كانت البلدة ذات شأن . وأصلها لبني حنيفة إلا أنها شركة كالبصرة والكوفة : لكل قوم فيها خطة . لكن العدد فيها لبني عبيد من بني حنيفة وكان قد تحصن فيها مسيلمة الكذاب لما تبعته سجاح المتنبئة قبل أن يتزوجها ويقسما الأرض بينهما . وهي ذات شهرة في العرب ، اشتهرت منها زرقاء اليمامة التي ضرب المثل بحدة بصرها واشتهر أيضاً منها عرّافها الذي كان يقصد من بعيد ، والذي روي فيه بيت عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

حَجَرَ من الأسواق المتوسطة ، يقصدها العرب لما يقصدون
إليه بقية الأسواق من بيع وشراء وتناشد . ثم صار لها في الإسلام
ذكر مكرّر في أحاديث الأدب والأخبار لأنها دار جرير بن
الخطفي الشاعر ، وكثيراً ما كان ينزلها أيضاً ذو الرمة ، وكانت
في مأمن من السلطان ، نظراً لبعدها . وبقيت سوقها حتى آخر
العصر الأموي ، وذكروا أن عمران بن حطان هرب من الحجاج
إلى اليمامة فنزل بحجر .

كان يجري في هذه السوق قريب مما يجري في عكاظ من
المفاخرة :

قال علي بن شفيع : « إني لواقف بسوق حجر ، إذ أنا
يرجل عليه مقطعات خزّ وهو على نجيب مهري ، رجل من هيئته
وحالته . . لم أر قط أحسن منه وهو يقول : « من يفاخرنى ؟ ،
من ينافرنى ببني عامر بن صعصعة ، فرساناً وشعراء وعدداً وفعلاً ؟ »
قلت : « أنا . » قال : « بمن ؟ » قلت : « ببني ثعلبة بن . . .
بن بكر بن وائل . » فقال « أما بلغك أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم نهى عن المفاخرة ؟ » ثم ولى هارباً . فقلت من هذا ؟
فقال : عبد العزيز الكلبي . »

ولعل أفحل من بها (وبغيرها) من الشعراء في الإسلام

جرير ، كان إذا انتهى من أحداثه الشعرية في العراق أو الشام
وملاً الأجواء بهجائه ونفخه ، أوى إلى بلده وقومه الذين ينافح
عنهم ، فأكرموا مثواه وطاروا بأشعاره ، وإن مجلس جرير ليعد
أحد المشاهد في سوق حجر :

« كان يوماً جالساً بفناء داره في حجر فإذا راكب أقبل
فقال له جرير : « من أين وضع الراكب ؟ » قال « من البصرة »
فسأله عن الخبر فأخبره بموت الفرزدق ، فقال :

هلك الفرزدق بعد ما جدّ عته^(١) ليت الفرزدق كان عاش قليلاً
فقال له المهاجر : « بشّ ما قلت ، أتهجو ابن عمك بعد ما
مات ، لو رثيته كان أحسن بك . » ففكر قليلاً ثم قال :
« والله إني لأعلم أن بقائي بعده لقليل ، وإن كان نجمي ليوافق
نجمه ، أفلا أرثيه . . » فقليل له : « لو كنت بكيته ما
نسيتمك العرب . »

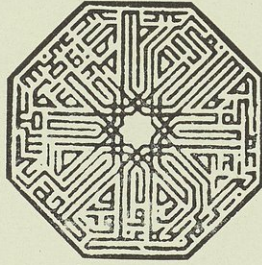
ثم قال جرير من أبيات يرثيه :

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تبت^(٢)
هو الوافد المأمون والواثق الرضى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت . .

(١) جدعه : قطع أنفه

(٢) صحّت وعوفيت

وهكذا كانت سوق حجر خاتمة المطاف لهذه النقائص الممتعة
والحرب السجال الطويلة بين فحلين من أفحل شعراء العرب ،
استأثر سوق المربد بالبصرة بأكثرها وختمت هنا في حجر .
ففي هذه السوق إذن ، أثارات مما كان يكون في عكاظ
من بيع وشراء ومفاخرة ومجالس أدب .
كانت تقوم هذه السوق بين عاشوراء وآخر المحرم .



سوق بصرى

بصرى من مشارف الشام وهي عاصمة حوران ومن كبار مدن الشام منذ الزمن الأطول قبل الإسلام ، حتى إن اسمها ليتردد في كثير من أشعار العرب . وكان أهل الشام عامة على علاقات متواصلة مع سكان الحجاز ، لكثرة أسفار هؤلاء إلى الشام . وكان النبط كثيراً ما يحملون تجارتهم بين الحجاز والشام وينقلون الأخبار بين البلدين . بل إنا لنجد لبصرى من الشهرة في الجاهلية ما لا نجد لدمشق نفسها ، لأنها كانت محطّ رجال تجار العرب من بلاد الشام يتقدّمون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن . فكانت هذه العلائق سبباً في جريان الألسنة بذكرها دون دمشق التي لا نكاد نعثر على ذكر لها في الأشعار القديمة .

كانت بصرى أيام الرومان على جانب من العظمة والمكانة وقد أنجبت أحد أباطرة الرومان : « فيلبس » الذي نصب إمبراطوراً سنة (٢٤٤) من الميلاد فقد كان عربياً من بصرى حوران .

جاء في خطط الشام ^(١) في صدد الكلام على حوران وعمرانها :
 « ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران وأحصن مدن
 (باشان) ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في بلاد تلك المدينة
 من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتو
 ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً . ويحيط بالسور ربض كثير المباني ،
 ومحيطها خمسة أميال ، لها سور عالي الجدران وثيق البنيان ،
 وقلعة لا أحصن منها في عامة بلاد الشام . ويقطع المدينة شارع
 كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه ، وشوارع
 رحبة ، وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة ، وبدائع البناء ،
 وأساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، ورُكام
 الأتقاض وبيوت الأقدمين . وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس
 الذي صار إمبراطوراً وهو من أهالي بصرى . والمشهد نصف
 دائرة قطره (٢٧١) قدماً وهو مكشوف من الأعلى مثل كل
 المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس .
 عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير
 ذلك من المباني الكثيرة . وبعضها ما يصلح أن تزدان به أعظم
 عواصم أوروبا الآن . » اهـ

انتظم سير القوافل التجارية العربية إلى بصرى قبل الإسلام
بزمن طويل . وكان رحل إلى الشام فسكنها وما حولها ، عرب
من اليمن بعد حادث سيل العرم وكانت تزعم لها الشهرة قبل
هذا الحادث أيضاً فقد جاء في الأغاني :

لما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب قام رائدهم فقال :
من كان يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأخير ، والديباج والحزير ،
فليلق بصرى والحفير ، وهي من أرض الشام فكان الذين
سكنوه غسان . اهـ

ولما عظم أمر قریش صارت غيرهم ترد بصرى في مقدمة ما
ترد من مدن الشام وتعددت أسفارهم إليها . وليس في قریش
تاجر إلا رحل إليها مراراً وعرفها حق المعرفة ، كما عرف أغلب
مدن الشام ، فاستفادوا من خبرتهم بهذه الديار فوائد جليلة لما بدأت
الفتوحات بعد الإسلام . وكتب السيرة تذكر أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم سافر إليها مرتين : مرة طفلاً ومرة تاجراً ابن
خمس وعشرين سنة . وتذكر اجتماعه بأحد الرهبان في دير^(١)

(١) جاء في مسالك الأبصار ١ : ٣٤٧ ما يأتي :

دير بصرى : هو بالشام ، وقيل هو الذي كان فيه بجيرى الراهب حكى
المازني : قال : نزلت بدير بصرى . فرأيت في رهبانه فصاحة ، وهم عرب =

هناك ، وأن الراهب دعا إلى وليمته جميع من في العير . . . مما يدل على وجود العلائق بين الفريقين وتفاهمهم معاً باللغة العربية . بحيث يجوز لنا أن نعد كورة بصرى قطراً عربياً في الجاهلية . وقد راسل رسول الله ملك بصرى عاصمة حوران فأرسل إليه كتاباً مع الحارث بن عمير كما بعث إلى غيره من الملوك . ولما كانت خلافة أبي بكر لم يفت المسلمين شأن بصرى وعظمتها ، فكانت أول ما فتحت صلحاً بعد حصار قليل ، لما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وقدم على المسلمين وهم نزول بصرى ، وضايقوا أهلها فصالحوهم ، على أن يؤدّوا عن كل حالم

= متنصرة من طيء من بني الصادر ، أفصح من رأيت . فقلت لهم : مالي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ، فقالوا والله ما فينا رجل ينطق بالشعر ، إلا أمة لنا كبيرة السن . فقلت : جيئوني بها . فجاءت ، فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :

أبى رفقة من آل بصرى تحملت توئم الحمى لُقيت من رفقة رشدا
إذا ما بلغتم سائمين فبلاغوا تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا
وقولوا : تركنا الصادري مكبلا بكبل هوى من جبكم ، مضعرا وجدا
فيا ليت شعري هل أرى جانب الحمى وقد أنبتت أجراءه بقلبا جعدا
وهل أردن الدمر ماء وقبعة كأن الصبا تسدى على متنه بُردا
فوهبت لها دريهمات . وبت في ديرهم وأكرموا ضيافتي .

ديناراً وجريب حنطة ثم افتتح المسلمون حوران جميعها وقد تم ذلك سنة ١٣ للهجرة . قال القعقاع بن عمرو يذكر أمر بصرى هذا وقد كان في الجيش المحاصر :

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفأ فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس في اليرموك جمع العشائر
ونحن - وإن لم يكن في يدنا نص عربي قديم يشير إلى غناها
وكثرة أرزاقها - نجد في شروط الصلح ما يدل على كثرة
خيراتها ، حتى لقد ادعى صاحب بصرى مرة أنه صالح
المسلمين على طعام وخلّ وزيت فكذبه أبو عبيدة ^(١) . كما أن
في كثرة ورودها على ألسنة الشعراء ما يدل على شأنها ، فإننا
إذا أردنا التقصي تعذر علينا إحصاء ما في الشعر القديم من مثل
قول أعرابي :

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا رسالتنا لئيت من رفقة رشدا ،
وقول الصمة بن عبد الله القشيري :

نظرت وطرف العين يتبع الهوى بشرقى بصرى نظرة المتطاول

وقول المتلمس (وهذا كان له ولد يقال له عبيد المنان هلك
ببصرى ولا عقب له) :

لم تدر ببصرى بما آليت من قسم ولا دمشق إذا ديس الكراديس
وقول الآخر :

ولو أعطيت من بيلاد بصرى وقتسرين من عرب وعجم
وورد في كتب السيرة ذكر لقصور بصرى هذه .

* * *

لم ينقطع قيام سوق بصرى بعد الإسلام بل زاد أمد قيامها .
وكان العرب في جاهليتهم إذا انتهوا من سوق دير أيوب أقاموا
سوق بصرى حيث كان يشرف عمال الرومان . وتطول مدة هذه
السوق طولاً يتناسب هو وما قطعوا في سفرهم إليها من زمن . وقد
بقيت تلك السوق حتى زمن المرزوقي (القرن الخامس الهجري)
إذ ذكر أنه أدركها تقوم خمساً وعشرين ليلة ونقل أنها كانت
تقوم بولاية بني أمية من ثلاثين ليلة إلى أربعين وهي مدة طويلة
ليس للعرب مثلاً في عامة أسواقهم .

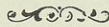
اشتهر لبصرى نوعان من البضاعة اختصت بهما . أما الأول
فالخمر لأنها كانت من مدن الشام التي يحمل منها الخمر^(١) ويتبجح
العرب بذكرها . قال أبو ذؤيب الهذلي يذكر خمرتها :

(١) كذلك صرخد وحلبون في جبل سنير كانتا مشهورتين بخمرهما أيضاً .

سُلَافَةٌ رَاحُ ضَمْنَتَهَا إِدَاوَةٌ مَقْيَرَةٌ رِدْفٌ لِمُوْخَرَةِ الرَّحْلِ
تَزُوْدُهَا مِنْ أَهْلِ بَصْرَى وَغَزَاةٌ عَلَى جَسْرَةٍ مَرْفُوعَةِ الذِّلِّ وَالْكَفْلِ
وَأَمَّا الثَّانِي فَالسُّيُوفُ وَقَدْ اشتهرت بصنعها بَصْرَى كَمَا اشتهر
كَثِيرٌ غَيْرُهَا مِنْ قُرَى الشَّامِ الَّتِي تَدْنُو مِنْ الرِّيفِ حَتَّى قِيلَ
لِلسُّيْفِ «مَشْرِفِي» نِسْبَةً إِلَى مَشَارِفِ الشَّامِ وَبَصْرَى أَحَدَهَا فَتَنْسَبُ
لِهَا السُّيُوفُ الْبَصْرِيَّةُ قَالَ الشَّاعِرُ :

يَعْلُونَ بِالْقَلْعِ وَالْبَصْرِيِّ هَامَهُمْ^(١)

وَقَالَ الْحَصِينُ بْنُ حَمَامٍ الْمَرِي يَصِفُ خَيْلَ الْغَارَةِ :
عَلَيْهِنَّ فَتْيَانٌ كَسَاهَا مُحَرَّقٌ وَكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وَأَنْعَمَا
صَفَائِحُ بَصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا وَطُرَدَا مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مَعْلَمَا^(٢)
وَأَمْرُ هَذِهِ السُّوقِ مِنْ إِشْرَافٍ وَمَكْسٍ ، إِلَى عَمَالِ الرُّومِ
عَلَيْهَا وَكَثِيرًا مَا يَكُونُونَ عَرَبًا مِنْ غَسَّانٍ .



(١) الْقَلْعُ : فَأَسٌ صَغِيرَةٌ تَكُونُ مَعَ الْبَنَاءِ ، وَمَعْدَنٌ يَنْسَبُ إِلَيْهِ الرِّصَاصُ
الْجِيدُ . (٢) الصَّفَائِحُ : السُّيُوفُ . وَالْقِيُونُ : الْحَدَادُونَ . وَالطُّرْدُ : الدَّرْعُ .
وَالْمَعْلَمُ : مَا عَلَيْهِ عِلَامَةٌ .

سوق دير ايوب

دير أيوب قرية بحوران من نواحي دمشق يزعمون أنها مسكن أيوب النبي عليه السلام ، وأن الله ابتلاه فيها ويزعمون أيضاً أن العين فيها هي التي ركضها برجله .

هذا ما ذكره ياقوت . أما القرية فهي إلى شمال بصرى وغرب أذرعات وتعرف اليوم باسم (شيخ سعد)^(١) ولا يزال إلى اليوم فيها مقام للنبي أيوب وفيها العين التي أشار إليها ياقوت وهي من القرى الصغيرة في حوران ، قليلة النفوس والشأن .

ويظهر أن لها في القديم خطراً كبيراً يقارب ما لبصرى فقد هبطتها منذ سنين بعثة أثرية (تشيكوسلوفاكية) ونقبت في تربتها ، فعثرت على آثار رومانية قديمة ، حملت منها إلى بلادها قسماً مهماً وكان في جملة ما عثرت عليه آثار حثية ومصرية وأبقت منها نصباً في دار العظم بدمشق .

(١) انظر في ذلك (الطبوغرافيا الأثرية لسوريا وفلسطين) لدوسو ص ٢٤٤

فالبدة إذن ذات مكانة قديمة لعهد الجاهلية وصدر الإسلام .
ويذكر الطبري ^(١) أنه لما « انصرف مروان (الجعدي) منزهماً ،
جمع قومه وجنده ، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية ونفرق من
معه وأسر ثلاثة رجال من ولده وهم نعيم ، وبكر ، وعمران فبعث
بهم إلى مروان ٠٠٠ وهو بدير أيوب فأمر بمداواة جراحاتهم . »
ثم ذكر ما يفيد أن مروان جعلها قاعدة حربية لتجهيز جنده وبعثهم
إلى الأطراف المنتقضة فيقول : « فأقبل نحو من عشرة آلاف
من كان مروان قطع عليه البعث بدير أيوب لغزو العراق مع
قوادهم حتى حلوا بالرُّصافة ^(٢) . »

وبقيت دير أيوب من القرى المهمة في حوران حتى ضوئل
شأنها كما ضوئل شأن بصرى وأذرعات وسائر حوران .
وهذه السوق أول أسواق الشام قياماً . فكان العرب وقريش
إذا انتهوا من أسواقهم الموسمية : عكاظ ومجنة وذى الحجاز ، وأنهوا
حجهم ورجعت وفود البلدان ، نظّموا غيرهم وتهيؤوا للسفر إلى
الشام فأقاموا تجارتهم فيها وبدؤوا بسوق دير أيوب هذه .
ومتى انتهوا منها وانتقضت اعتدوا سبعين يوماً ^(٣) ثم أقاموا
سوق بصرى .

سوق أذرعات

أذرعات بلد بالشام قرب البلقاء (وهي اليوم تعرف بإزرع)
أمرها قريب من أمر بصرى وتليها في الشأن ، وعلائق العرب
التجارية بها في الجاهلية كعلائقهم ببصرى ، واستفاضتها على اللسان
شعرائهم تشبه ما لبصرى ، من مثل قول امرئ القيس :
تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عالى^(١)
وقول الآخر :

وهيجتني من أذرعات وما أرى بنجد على ذي حاجة طرباً بعدا؟
واشتهرت بخمرها في الشعر فقال أبو ذؤيب الهذلي :
فما إن رحيق سببها التجا ر من أذرعات فوادي جذر
وقال :

فما فضلة من أذرعات هوت بها مذكرة عنس كهازئة الضحل^(٢)

(١) تنور النار من بعيد : أبصرها . (٢) المذكورة : الناقة العظيمة الرأس .
والعنس : الناقة الصلبة . وأهزأت به ناقته : أسرع . والضحل : الماء القليل .
وأتان الضحل : صخرة على فم الركبة ٦٤ ، ملساء أو بعضها ظاهر وبعضها غائر .

سلافة راح ٠٠٠ الخ ، وتنسب إليها فيقال خر أذرية .
كان يحكمها في الجاهلية عمال للروم فلما جاء الإسلام صوّل
أهلها ونالوا عهداً لأنفسهم وبلدهم . فلما كانت جيئة عمر إلى الشام
استقبلوه . قال عبد الله بن قيس :
« كنت بمن لقي عمر مع أبي عبيدة مقدّمه الشام ، فبينما
عمر يسير إذ لقيه القليسون ^(١) من أهل أذرعات بالسيوف والريحان
فقال عمر : « مه ، امنعوهم . » فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين
هذه سنتهم ، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً
لعهدهم . » فقال عمر : « دعوهم . »

تقوم هذه السوق بعد سوق بصرى بسبعين ليلة ^(٢) . ويطول
أمدّها . والغالب أنهم يقيمونها مدى الصيف . وقد بقيت هذه
السوق قائمة بعد الإسلام بكثير ، فقد أدرّكها المرزوقي ووصف
طول قيامها بقوله : « وسوق أذرعات اليوم أطولها قياماً وربما
لقيت الناس صادرين منها وأنا وارد . »

(١) القليّس : الضرب بالدفّ والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم بأصناف
اللهو ، وأن يضع الرجل يديه على صدره ويخضع — القاموس

(٢) الأزمّة والأمكنة ٢ : ١٧٠

سوق الحيرة

لم يذكر هذه السوق أحد ممن تعرض لذكر أسواق العرب مع عظم شأنها وقصد تجار العرب إليها . وليس من المعقول أن نقصد قريش وأهل الطائف ، فارس للتجارة فيها ولا يكون لهم أسواق موسمية في العراق وهي على طريقهم وأهلها عرب .
إلا أن في الأغاني ما يدلنا على سوق عظيمة موسمية قال أبو الفرج :
« خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة ^(١) . »

وبلدة كالخيرة بعيدة الصيت في جزيرة العرب ، يتحدثون بخصبها وعظمتها ومنازلها... وأحداث ملوكهم بني نصر ، وعلائقهم مع من جاورهم من العرب ، ويتحدثون عن الشعراء العظام الذين تصدوا ملوكها للنوال والهبات كالنابغة الذبياني والأعشى وحسان بن ثابت

وغيرهم... بلد كهذا لا بد أن يكون مرتبطاً بما جاوره من الأقاليم ارتباطاً تجارياً وثيقاً وهي أولى من بصرى وأذرعات بأن يكون فيها للعرب أسواق عامة .

ويطلعنا التعمق في التفتيب على أسواق ثانية تقام في أماكن من العراق ولا تقتصر على العرب وبضائعهم ، بل يخالطهم فيها أجانب من فرس وغيرهم ويحمل إليها متاع الهند وفارس كما يحمل إليها أمتعة الشام واليمن والبحرين فقد جاء في الطبري عند كلامه على فتوح العراق :

« سوق الخنافس سوق يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاة يخفرونهم... قال رجل من أهل الخيرة للمثنى : « ألا ندلك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى والسواد وتجتمع بها في كل سنة مرة ، ومعهم فيها الأموال كبيت المال ؟ وهذه أيام سوقهم... » فصبحهم في أسواقهم فوضع فيهم السيف... وأخذوا ماشاؤوا . وقال المثنى : « لا تأخذوا إلا الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته . وهرب أهل الأسواق وملاً المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحر من كل شيء... »^(١)

الحيرة مدينة واسعة الشهرة منذ القديم . ذكروا أن بانيها
يختصر ، وأنه بناها لتجار العرب الذين وجد بحضرته ثم صارت
من بعده عاصمة ملوك العراق حتى إن الطبري لذكر أن لما قبل
الإسلام أكثر من خمسة قرون ^(١) . وموضعها إلى شمال الكوفة
على ثلاثة أميال منها . طيبة الهواء كثيرة البساتين . ردّد ذكرها
الشعراء منذ الجاهلية وفتنوا بها وبخمرها وحاناتها وأديارها فكانت
بحقّ مقصّف العرب عامة . ونسبوا إليها فقالوا حاري على غير القياس
وقالوا حيري على القياس ، فمن الأول قول عمرو بن معديكرب :
كأن الإيثم الحاريّ منها يسف بحيث تبتدر الدموع ^(٢)
ومن الثاني قول عاصم بن عمرو وقد كان فيمن فتحها من
جيش المسلمين :

صبحنا الحيرة الروحاء خيلاً ورجلاً فوق أثباج الركاب
حضرنا في نواحيها قصوراً مشرفة كأضراس الكلاب ^(٣)
ولها تاريخ طويل يدل على قدمها وشهرتها قبل الإسلام وأنها

(١) تاريخ الطبري ١ : ٧٤٨ طبع أوروبا

(٢) الإيثم : حجر الكحل . وأسفّ الجرح دواءً : أدخله فيه .

(٣) الروحاء : الواسعة . وخيلاً ورجلاً : فرساناً ومشاة . والأثباج جمع

ثَبَج : وهو ما بين الكاهل إلى الظهر ، ووسط الشيء ومعظمه .

كانت ميداناً لحوادث جسام ليس هذا مقام سردها فليرجع إليها في مظانها .

وذكر ياقوت في سبب بنائها أن : « يختصر قد جمع من كان في بلاده من العرب بها فسمّته: النبط أنبار العرب ... فصار في الحيرة من جميع القبائل من مذحج وحمير وطى وكلب وتميم وتنوخ ... فأهل الحيرة ثلاثة أصناف : ثلث : تنوخ وهم كانوا أصحاب المظال ويوت الشعر ينزلون غربيّ الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها . والثلث الثاني : العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها ، وهم قبائل شتى تعبدوا لملوكها وأقاموا هناك ، وثلث : الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها . » وأشار إلى بعض هؤلاء الشاعر :

وغزا تبعّ في حميرَ حتى نزل الحيرة من أهل عدن

واشتهر في ظاهر الحيرة ببناء عظيمان هما قصر الخورنق وقصر السدير . وبقيت مسكن ملوك العرب من بني نصر ولحم حتى كان آخرهم المناذرة الذين انقضى ملكهم بالإسلام .

ارتباط هذه البلدة بفارس وخضوع أمرائها لهم وكثرة العلائق بين البلدين ، وسّع أفقها التجاري وأكثر فيها الغنى والترف وأحدث فيها نوعاً من الثقافة ليس في غيرها . فقد مرّ بك أن قریشاً

تعلمت الكتابة من أهل الحيرة ، وأن الذي قرأ صحيفة المتلمس
غلام حيري ، وأن لها رحلات وقوافل تجارية إليها وأن للنعمان
لطائم يجهزها إلى عكاظ كل سنة . وهذا الاختلاط الشديد بين
أهلها والفرس والأنباط جعل أنساب الحيريين في منزلة دون منزلة
بقية أنساب العرب حتى إن من العرب من يُعير بالنسب إلى
الحيرة . وانظر إن شئت ما كان بين قيس بن عاصم وعمرو بن
الأهتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جاء في الاغاني
أن قيس بن عاصم قال في عمرو : « والله يا رسول الله ما هم منا ،
وإنهم لمن أهل الحيرة !! » وقال فيه :

لولا دفاعي كنتم أعبداً مسكنها الحيرة فالسيّاحون

فقال عمرو بن الأهتم متأثراً بهذا التعبير الذي لم يجد له ما يفي
به إلا أن ينسب خصمه إلى الروم : « بل هو يا رسول الله
من الروم وليس منا . » ثم قال :

إن تبغضونا فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب^(١)
هذا وإن نحن استرشدنا بنقف من الأخبار تأتي عرضاً في
مطاوي الكلام ، عرفنا أن للحيرة شأنًا تجاريًا ممتازاً ، وأن عادة
العرب جرت منذ القديم بالتجارة إلى الحيرة ، وأنها كانت تؤمها

القوافل الكبرى التي تقصد البرّ حاملة متاجر الهند من عُمان إلى الشام ، فكانت الحيرة محطة كبرى لتلك القوافل المحملة . وكان أكثر الطرّاء عليها تجاراً يختلفون إليها ^(١)

ولما قتل الشّيظم بن الحارث الغساني رجلاً من قومه وهرب إلى الحيرة تظاهر بأنه « رجل من خير أقبل إلى هذه البلدة بتجارة » ^(٢) . وخرج خمسة نفرٍ من طيٍّ من ذوي الحجا والرأي يريدون سواد بن قارب الدوسي ليمتحنوا علمه . « فأهدوا إليه طرفاً من طرف الحيرة فضرب عليهم قبة ونحر لهم » ^(٣) .

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى باع في سوق الحيرة « كِرْشاً مدبوغة مملوءة عنبراً بثلاثمائة ناقة حمراء » ^(٤)

يعرض في هذه السوق الأدم والعطر والبرود والجواهر وسائر ما يعرض في بقية أسواق العرب ، مما يحمل من الشام أو اليمن أو عمان أو الحجاز أو البحرين أو الهند وفارس ، عدا ما يحمل الأعراب إليه من إبل وشياه وقرود أحياناً ^(٥) .

(١) الطبري ١ : ٢٦٧٧ .

(٢) الأُمالي : النوادر ص ١٧٩ دار الكتب .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٨٩ .

(٤) الأُغانِي ٩ : ١٢٥ دار الكتب .

(٥) الأُمالي ٢ : ٤٤ .

وفيهما أيضاً إلى هذا ، أدب وشعر وخطابة ومنافرات كما
يكون في غيرها من الأسواق ، وسنعرض لبعض ما يجري فيها
بعد قليل .

فلما كان الإسلام تضاءل شأنها التجاري ، وانصرف الناس
إلى الفتوحات فلم يميز القرن الأول للهجرة حتى صارت الحيرة
ذات لون أخذ يفتن الشبان وأهل اللهو والمجون . فطار لها صيت
بعيد ساحر في منازلها وخرمها وحاناتها^(١) وأديارها ، وصرنا
بعد هذا الزمن لا نجد ذكراً للحيرة إلا حيث مجلس شراب ،
وجماعة قصف وبذخ ، وخليفة يخرج للترويح عن النفس ، وفتيان
سئمو حياة الجد فخرجوا إلى الحيرة فنزلوا أحد أديرتها أو إحدى
حاناتها فذبجوا وطعموا وشربوا وغنّوا وأنشدوا . وأثرى أصحاب
الحانات من وراء ذلك إثراء عظيماً فصاروا يتنافسون بتجويد
الخمير ، وجذب الزائرين حتى كثر الذين ذهب ثرواتهم وفدحهم
الدين من جراء الخمرة .

« ولما حرّم بعض أمراء الكوفة بيع الخمير على خماري الحيرة
وركب فكسر نبيذهم . . جاء بكر بن خازجة يشرب عندهم

(١) عقد صاحب المسالك الأبصار فصلاً في كتابه عن حانات الحيرة
فارجع إليه في ١ : ٣٨٩ — ٣٩١ وكذلك فعل في أديارها .

على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً
وقال شعراً^(١) ويظهر أن الأمراء لم يشددوا على الخمارين حتى
رأوا من إقبال الفقيان عليهم الشر المستطير ، وحتى كان رجال
كأبي حية النميري يشربونها في الحيرة بنسيئة . وصارت
السكر في الحيرة إحدى المنى الغالية :

هل إلى سكرة بناحية الحيرة يوماً قبل المات سبيل ؟
أما بساتين الحيرة فحدث ولا حرج عما فيها من منازة ونضرة
وفتنة تحير اللب ، وتأسر العقل ، وحسبك أن تعلم أن إبراهيم
الموصلي خرج في ركب الرشيد إلى الحيرة ، فلما نام الرشيد اغتم
غفلته فركب يدور في ظهر الحيرة فنظر إلى بستان فقصده « فإذا
على بابه شاب حسن الوجه . . وإذا جنة من الجنان في أحسن
تربة وأغزرها ماء . . » فقال فيه :

جنان شماری ليس مثلك منظر لذي رَمَدٍ أَعْيَا عليه طيب
ترابك كافور ونورك زهرة لها أَرَج بعد الهدوء طيب
ثم صنع فيه لحناً وغناه الرشيد ، فأعطاه ثمن البستان أربعة
عشر ألف دينار .

لم نهتد إلى الزمن الذي تقوم فيه هذه السوق . أما ربيع
الطريق فقد جعله النعمان طُعْمَةً لبني لام من طيء لأنهم أصهاره^(١)
ونظراً لوقوع هذه السوق في سلطة المناذرة كانت عشورها إليهم
لأنهم هم المسيطرون عليها . والأمر فيها على كل حال أكمل
وأتم من بقية الأسواق من حيث النظام والأمن لأنها في أرض
مملكة .

وإليك الآن مشاهد مما كان يجري في تلك السوق على
سبيل المثال ، ولا تعجب إذا كان أكثرها في الخمر لأن الخمر
والتنصرة والعزف والشعر والغناء ، هن الطابع الخاص للحيرة :

١ - مناصرة مامية

خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، ومعه
عطر يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كل
سنة . فمر بجاتم بن عبد الله الطائي ، فسأله الجوار في أرض طيء
حتى يصير إلى الحيرة ، فأجاره . ثم أمر حاتم بجزور فنحرت
وطبخت أعضاء فأكلوا .

ومرّ حاتم بسعد بن حارثة بن لام (وكان النعمان جعل ريع
الطريق لبني لام لأنهم أصهاره) وليس من بني أبيه غير ابن
عمه ملحان ، فوضع حاتم سفرته وقال : « اطعموا حياً كم الله . »
فقالوا : « من هؤلاء معك يا حاتم ؟ » قال : « هؤلاء جيراني . »
قال له سعد : « أفأنت تجير علينا في بلادنا ؟ » قال له : « أنا ابن
عمكم وأحق من لا تخفرون ذمته . » فقالوا : « لست بهذا . »
وأرادوا أن يفضحوه كما فُضح عامر بن جُوَيْن قبله ، فوثبوا إليه ،
فتناول أحدهم حاتمًا فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أنفه ،
ووقع الشر حتى تجاوزوا ، فقال حاتم :

وددت وبيت الله لو أن أنفه هواءً فما مت المخاط عن العظم
ولكننا لاقاه سيف ابن عمه فأب ومَرَّ السيف منه على الخَطَم^(١)

(١) الخطم : الأنف .

فقالوا لحاتم : « بيننا وبينك سوق الحيرة فمجاهدك ونضع
الرهن . »

ثم نفذوا ما قالوا فوضعوا تسعة أفراس رهناً على يد رجل
من كلب ، ووضع حاتم فرسه ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة .
وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائي ، خاف أن يعينهم النعمان
ويقويهم بماله وسلطانه للصهر الذي بينهم وبينه ، فجمع إياس رهطه
من بني حية وقال : « يا بني حية إن هؤلاء القوم أرادوا أن
يفضحوا ابن عمكم في مجاده . » فقال رجل منهم : « عندي مئة
ناقة سوداء ، ومئة ناقة حمراء أدماء » وقام آخر فقال : « عندي
عشرة حصن ، على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه
إلا عيناه » وقال حسان بن جبلة الخير :

« قد علمتم أن أبي قد مات وترك مالا كثيراً ، فعليّ كل
تمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة ! »

ثم قام إياس فقال : « عليّ جميع ما أعطيتكم كلكم . »
وكان حاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا . فذهب إلى مالك بن جبار
ابن عم له بالحيرة كان كثير المال ، فقال : « يابن عم ، أعني على
مخايلتي (مفاخرتي) » فقال مالك : « ما كنت لأخرب نفسي
ولا عيالي وأعطيك . » فانصرف عنه .

ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه . فقالت له امرأته : « أيّ وهم ! هذا والله أبو سفانة حاتم ، قد طلع . » فقال : « مالنا ولحاتم ، أثبتني النظر . » فقالت : « حاتم ! » قال : « ويحك ، هو لا يكلمني ، فما جاء به إليّ ؟ » فنزل حتى سلم عليه فردّ سلامه وحياه ثم قال : « ما جاء بك يا حاتم ؟ » قال : « خاطرت على حسبك وحسبي . » قال : « في الرب والسعة ، هذا مالي (وعدّته يومئذ تسعمائة بغير) تأخذها مئة مئة ، حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . » فقالت له امرأته : « أنت تخرجنا عن مالنا ، ونفضح صاحبنا (تعني زوجها) ؟ » قال :

« اذهبي عني فوالله ما كان الذي غمّك ليردّني عما قبلي . » ثم إن إياس بن قبيصة قال : « احمِلوني إلى الملك . » وكان به نقرس ، فحمل حتى أدخل عليه . فقال : « أنعم صباحاً أبت اللعن . » فقال النعمان :

« وحيّاك إلّٰهك . » فقال إياس :

« أتمدّ أختانك بالمال والخيل وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة ؟ ^(١) أظنّ أختانك أن يصنعوا بجاتم كما صنعوا بعامر بن

(١) الأختان : الأصهار . والكنانة : جعبة السهام .

جَوَيْنَ ، ولم يشعروا أَنَّ بني حية بالبلد ؟ فَإِنْ شِئْتَ وَاللَّهِ نَاجِزْنَاكَ
حَتَّى يَسْفَحَ الْوَادِي دَمًا ، فليحضروا لمجادهم غَدًا يجمع العرب . »

فعرف النعمان الغضب في وجهه وقال له :

« يَا أَهْلَمْنَا لَا تَغْضَبْ فَإِنِّي سَأُكْفِيكَ . »

وَأَرْسَلَ النُّعْمَانُ إِلَى سَعْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَإِلَى أَصْحَابِهِ : « انْظُرُوا
ابْنَ عَمِّكُمْ حَاتِمًا فَأَرْضَوْهُ ، فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي أُعْطِيكُمْ مَالِي
تَبْذُرُونَهُ ، وَمَا أَطِيقُ بَنِي حِيَةَ . »

فَخَرَجَ بَنُو لَامٍ إِلَى حَاتِمٍ فَقَالُوا لَهُ : « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْمَجَادِ . »
وَتَرَكُوا أَرْشَ أَنْفِ صَاحِبِهِمْ وَأَفْرَاسِهِمْ وَقَالُوا :

« قَبِّحَهَا اللَّهُ وَأَبْعَدَهَا ، فَإِنَّمَا هِيَ مَقَاذِفٌ . »

فَعَدَا إِلَيْهَا حَاتِمٌ فَعَقَرَهَا وَأَطْعَمَهَا النَّاسَ^(١)

٢ - مَرْمَرَةُ شَاعِرٍ فِي وَلَدِهِ

قَدِمَ لَبْطَةُ بْنُ الْفَرَزْدَقِ الْحِيرَةَ فَمَرَّ بِقَوْمٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ فَاسْتَقْرَاهُمْ
فَقَرَّوَهُ ثُمَّ قَالُوا لَهُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » قَالَ : « ابْنُ شَاعِرٍ كَرَّمَ
وَمَادَحِكُمْ ، أَنَا ابْنُ الَّذِي يَقُولُ :

(١) الْأَغَانِي : ١٦ : ٩٥ . وَالْأَرْشُ : الدِّبَّةُ .

أضحى لتغلب من تميم شاعر^(١) يرمي الأعادي بالقريض الأثقل
 إن غاب كعب بني جُعيل عنهم وتنمر الشعراء بعد الأخطل
 يتباشرون بموته ووراءهم مني لهم قطع العذاب المرسل .
 فقالوا له : « أنت ابن الفرزدق إذن ؟ » قال : « أنا هو . »
 فتنادوا : « يا آل تغلب ، اقضوا حق شاعركم والذائد عنكم
 في ابنه . »

فجعلوا له مئة ناقة وساقوها إليه فانصرف بها^(٢)

٣ - علو لمة

شرب طخيم الأسدي بالحيرة ، فأخذه العباس بن معبد المري ،
 وكان على شرط يوسف بن عمر ، فخلق رأسه ؛ فقال :
 وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط إذا حلف الأيمان بالله برت
 لقد حلقوا منا غداً كأنها عناقيد كرم أينعت فاسبطرت^(٣)
 يظل العذارى حين تخلق لمتي على عجل يلقظنها حين جرت^(٤)

- (١) ثقله : ثره بمرة واحدة . وثقل الرحي : وضع تحتها ما بقيها من الأرض .
 ولا يثقلون الرحي إلا إذا كانت طاحنة : (٢) الأغاني ١٩ : ١٣ .
 (٣) الغداف الأسود : يعني شعره . واسبطرت : طالت وامتدت .
 (٤) الأغاني ٨ : ١٧٩ (دار الكتب) . واللثة : الشعر المجاوز شحمة
 الأذن . وجز الشعر : قصه .

٤ - غمارة وشرطي

كان الأقبش الشاعر يكتري بغلة أبي المضاء المكارى
فيركبها إلى الخمارين بالحيرة ، وكان لا يسأل أحداً أكثر من
خمسة دراهم : يجعل درهمين في كرى بغل إلى الحيرة ودرهمين
للشراب ودرهماً للطعام . فيقال إنه دفع ثمن البغل في الكراء ^(١) .
شرب يوماً في بيت خمار بالحيرة فجاء شرطي من شرط الأمير
ليدخل عليه ، فغلق الباب دونه ، فناداه الشرطي : « اسقني نبیذاً
وأنت آمن » فقال : « والله ما آمنك ، ولكن هذا ثقب في الباب
فاجلس عنده ، وأنا أسقيك منه . » ثم وضع أنبوباً من قصب
في الثقب وصب فيه نبیذاً من داخل ، والشرطي يشرب من خارج
الباب حتى سكر ، فقال الأقبش :

سألني الشرطي أن نسقيه فسقناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا فسلوا الشرطي ما هذا الغضب ^(٢)

(١) الأغاني ١٠ : ٨١ (٢) الأغاني ١٠ : ٨٦ . هذا وقد قال عبد الملك
بن مروان للأقبش : « أنشدني أبياتك في الخمرة . » فأنشده :
تربك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيهما في الإثناء قطوب
كُمَيْتٌ إذا فضت وفي الكأس وردة لها في عظام الشاربين ديب
فقال أحسنت ، ولقد أجدت وصفها ، وأظنك قد شربتها ! » فقال : « والله
يا أمير المؤمنين إنه ليربيني منك معرفتك بهذا !! »
والقذى : الوسخ في الشراب . والكيت : الأشقر .

٥- وطنية صادقة

أختم الكلام عن الحيرة بهذا الدرس البليغ الذي ألقاه علينا أحد فتيان الحيرة منذ ثلاثة عشر قرناً في حب الوطن ونصرته . وهو درس عملي يخلق بقيادة الفكر وزعماء العرب أن يستفيدوا منه فيكونوا قدوة في الوطنية العملية الحقيقية .

بلغ العرب في الاعتماد على أنفسهم والاقتصار على صناعاتهم في جميع شؤونهم أمراً عجيباً ، حتى إن بلدة كالحيرة ليست من البلدان الكبرى حينئذ في المملكة الإسلامية ، استطاع أهلها أن يعتمدوا على محصول بلادهم ويكتفوا به في كل حاجاتهم حتى المالية منها . نرى ذلك في هذا الخبر الطريف الذي سنرويهِ لك عن الأغاني ونودّ لو جرؤنا على تقليد أسلافنا في مكرماتهم تلك ، إذاً لكننا حذقنا درساً في الإخلاص الصادق للوطن ، ولما استبعدنا أموال الغرب وشركاته ، ولما كنا جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً ، جنوداً لهم - على رغم أنوفنا - نوطد أقدامهم في بلادنا بما نهافت على استهلاكه من بضائعهم ، وبما يطير من جيوبنا إلى خزائهم ومصانع أسلحتهم من أموال باهظة ، لا داعي إلى تبذيرها إلا التقليد الأعمى وقشور التمدن السخيف والترف الكاذب ، وإليك هذه الطرفة الثمينة :

« كان بعض ولاية الكوفة يذم الحيرة أيام بني أمية ؛ فقال له رجل من أهلها وكان عاقلاً ظريفاً : « أتعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والإسلام ؟ »

قال : « وبماذا تمدح ؟ » قال : « بصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها : تصلح للخف والظلف ، سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبر وبحر . محل الملوك ومزارعهم ومسكنهم ومشواهم ؛ وقد قدمتها أصلحك الله مخيفاً فرجعت مثقلاً وزرتها مقللاً فأصارتك مكثراً . » قال : « فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل ؟ » قال : « بأن تصير إليّ ، ثم ادع ماشئت من لذائد العيش فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه ! »

قال : « فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك » قال : « أفعل . » فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها ، وما صيد من وحشها : من طباء ونعام وأرانب وحبّارى . وسقاهم ماءها في قلالها وخمرها في آياتها ، وأجلسهم على رقمها (وكان يتخذ بها من الفرش أشياء ظريفة) . ولم يستخدم لهم حرّاً ولا عبداً إلا من مولديها ومولداتها من خدام ووصائف كأنهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غنّاهم حنين (الحيري) وأصحابه في شعر عدي بن زيد شاعرهم وأعشى همدان ، لم يتجاوزهما ؛ وحياهم برياحينها ، ونقلهم

على خمرها ، وقد شربوا بفواكهها . ثم قال له : « هل رأيتني
استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وافترشت وشممت
وسمعت بغير ما في الحيرة ؟ »

قال : « لا والله ، ولقد أحسنت صفة بلدك ونصرتَه فأحسنت
نصرتَه والخروج مما تضمنته ، فبارك الله لكم في بلدكم ^(١) . »



(١) الأغاني ٢ : ٣٥١ (دار الكتب)

الظلف : للبقر كالخلف للبعير وكالحافر للفرس . والجبّارى : طائر طويل
العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول . والرقم : ضرب مخطط من الوشي أو
الخز . والوصائف جمع وصيفة : وهي الجارية البالغة حد الخدمة وكذلك الوصيف .
وتقامهم : أطعمهم الثقل ، والثقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح
وغيرهما .

أسواق العرب

ب - في الإسلام

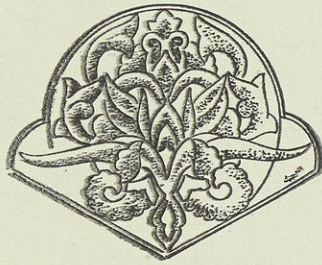


الأسواق في الإسلام

لم يعد - وقد تحضر العرب - من حاجة إلى مواسم وأسواق على ما كان عليه الحال في الجاهلية ، لأن العرب سكنت المدن الكبار من بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والروم ، ومصرت هي لأنفسها أمصاراً عظم شأنها مع الزمن كالكوكة والبصرة وبغداد والقيروان ...

فصارت تستغني كل مدينة بأسواقها الدائمة عن أسواق المواسم ، وكفى الله العرب مؤونة الترحال بين أسواق الجزيرة ، بما فتح عليهم وسهل من تجارات تأتيهم إلى مدنهم ، بحيث يجدون في كل بلد عروض كثيرة من البلدان . وعدل الذين يعانون التجارة منهم عن أسفار البوادي إلى أسفار البحار . وأصبح من البدهي تضائل الأسواق الجاهلية بتضائل آثار البداوة من حياة العرب ، وانتقلوا إلى حضارة وارفة الظلال ريانة الجنبات يأتيهم فيها رزقهم رغداً من كل مكان ، فامحت أسواق الجاهلية قبل انقضاء القرن الثاني للهجرة ورسخت أقدام التجارة في المدن والشغور .

ولكن سوقاً واحدة نشأت في الإسلام واحتفظت بكثير من
خصائص أسواق الجاهلية ، وزادت عليها بميزات واسعة أسبغتها
الحضارة الجديدة واقتضتها حاجات الرقي الحديث : تلك هي سوق
المربد في البصرة ، السوق التي استطاعت أن تكون مرآة تعكس
حياة العرب في الجاهلية كما تصوّر حضارتهم في الإسلام . وسنرى
كيف استطاعت هذه السوق أن تصهر الحياتين معاً في بوتقة
واحدة ، لتصوغ منهما هذه الحلية العجيبة التي نعرضها عليك الآن :



البصرة - المربد

يتقاضانا الكلام على المربد أن نصف البصرة ، المدينة التي كان المربد سوقها العامة ، نظراً لمكانتها التجارية ، إذ أنها ثغر العراق في الإسلام . وليس من المستطاع أن نفهم المربد على حقه إذا لم نعرف أحوال بلده البصرة ، وسينينا هذا التمهيد عن أشروح وحواشٍ كثيرة عند كلامنا على المربد نفسه .

مَصِرَت البصرة سنة (١٧) أيام عمر بن الخطاب « في أَوْعَى أرض العرب وأدنى أرض العجم كما أمر الخليفة عمر رحمه الله » ولم تكن على عهد الراشدين بالمدينة الكبيرة ، لحدائث نشأتها ، وكانت مستوخمه رديئة الهواء والماء ، ليست بالخصبة ولا الغنية ، حتى اضطر عمر إلى أن ينظر إلى أهلها نظر رحمة ، حينما شكوا إليه أمرهم ، فقد جاء في فتوح البلدان ^(١) :

« قدم الأحنف بن قيس على عمر في أهل البصرة فجعل

يسألهم رجلاً رجلاً والأحنف في ناحية البيت ، في بَت^(١) لا يتكلم فقال له عمر : « أما لك حاجة ؟ » قال :

« بلى يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير بيد الله ، إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وإنا نزلنا سبخة بشاشة لا يحف نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرع ولا ضرع ، يأتينا منافعنا وميرثنا في مثل مريء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فتربق^(٢) ولدها كما تربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع ؛ فإلا ترفع خسيستنا وتجرب فاقتنا نكون كقوم هلكوا . » فالحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء . وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحتمل لهم نهراً .

هذه بداية أمر البصرة وقد ظلت على حالها ، لم تترق منها إلى خير منها ، حتى صدرأ من أيام الأمويين ، ومضت خلافة معاوية ولم ينفرج ضيق أهلها تمام الانفراج فقد قدم الأحنف أيضاً على معاوية وافداً لأهل البصرة يستعطفه لهم ، وكان فيما

(١) البت : طيلسان من خز .

(٢) ربقه : ربطه بالربق وهو جبل فيه عدة عُرَى .

وصف به أهلها قوله : « أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول ، فالملكثرة فيها قد أطرق ، والمقلّ قد أملق ، وبلغ منه المَخَنَقُ ^(١) . »

وبانقضاء عهد الفتن فيها واستقرار الأمر بمثل زياد وابنه والحجاج ، انصرف أهلها لشؤونهم فعكفوا على الزراعة والتجارة وانتعشوا واستفاض لهم زرع ونخل وتجارا ، فمن ثمّ عدّت البصرة من أكبر ثغور الإسلام قاطبة .

أما الهواء فيها فرديّ وكذلك الماء فهو غير عذب ، حتى إنهم ليجلبونه من المسافات البعيدة . وقد حفرت فيها آقنية وجداول كثيرة تتشعب عن النهر الأعظم ، ووصف الأقدمون كثرتها وصفاً نكاد لا نصدقه . جاء في مسالك الممالك للإصطخري :

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم ، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر ، ومصرّها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل كلها . ويحيط بغربها البادية ، وليس فيها إلا أنهار . وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدّت أيام بلال بن أبي بردة

(١) زهر الآداب ١ : ٨٧ (الطبعة الثانية مبارك) المحول جمع محل : وهو القحط . والذحول جمع ذحل : وهو الثأر : يعني أنهم تقاتلوا لكثرة الحروب والفتن بينهم . وأطرق : غضّ بصره حياءً لأنه لا يجد ما يعطي . وأملق : انتقر .

فزادت على (١٢٠٠٠٠) نهر « كذا !! » تجري فيها الزوارق .
وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال ..
حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، وربما رأيت في مقدار رمية
سهم ، عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زواريق صغار ،
ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية
التي يصب فيها وأشبه ذلك من الأسامي ، فجوّزت أن يكون
ذلك في طول هذه المسافة وعرضها . وأكثر أبنيتها بالآجر
(هذا على عهد الإصطخري في القرن الرابع الهجري) وهي من بين
سائر العراق مدينة عشرية ، ولها نخيل متصلة من عبّس إلى عبادان
نيفاً وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا
بحيث نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها وهي في مستوى
الاجبال فيه ولا بحيث يقع البصر على جبال ... وبها نهر يعرف
بنهر الأبلّة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبلّة^(١) ، وعلى حافتي
هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدّت
على خيط واحد . ويتشعب هذا النهر إلى أنهار كثيرة ، فمنها
ما يقارب هذا النهر في الكبر ... وهذه الأنهار كلها مختزقة بعضها
إلى بعض وكذلك عامة أنهار البصرة حتى إذا جاءهم مدّ البحر

(١) قال في القاموس : الأبلّة : موضع بالبصرة ، أحد جنان الدنيا .

تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير تكلف ، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار ، إلا أن الغالب على مائهم الملوحة وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر معقل ثم يعذب فلا يضره ماء البحر .»

ونحن معنيون بأن نعرف عن البصرة تفاصيل مُسَهِّبة لأنها سوق العراق العامة يومئذ ، فلا غنى لنا عن شاهدها ونعتها لنقف على مكانتها وسعة غناها . ولولا هذه الصفات التي وصلتنا عن الأقدمين في مختلف حالاتها ، لما استطعنا أن نعلم التدرج الذي ترقّت فيه البصرة من الإملاق إلى الثروة . ثم صار لهذه الأرض السبخة القفرة على عهد عمر ، الشأن العظيم والمكانة البعيدة في نفوس الكبار حتى قال زياد : « لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلي عليها ! »^(١)

والذين نعتوها متفقون على رداءة هوائها مع سعة عيشها ، فقد روى ابن عبد ربه عن أبي العباس أنه قال : « إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن ، يأتيها الماء يبرده وعذوبته ، ومثل البصرة مثل المشاة يأتيها الماء بعد تغير وفساد .» وقال الحجاج : « الكوفة

بكر حسناء والبصرة عجوز بجراء أوتيت من كل حلي وزينة^(١) .
وسماها الناس لتقلب هوائها بالرّعاء قال الفرزدق :
لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء لي وطنا
والرعونة الحمق والاسترخاء .

إلا أنّ وخامتها لم تمنع أن يتكاثف فيها السكان ويطرّد لها
النموّ حتى أصبحت كما وصفها جعفر بن سليمان بقوله : « العراق
عين الدنيا والبصرة عين العراق » .

انقضى القرن الهجري الأول والبصرة قد قطعت شوطاً بعيداً
في الازدهار ، ولم تستقرّ الأمور لبني العباس في عهد المهدي ومن
بعده حتى صارت البصرة « باب^(٢) بغداد الكبير ومدخل دجلتها
المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ،
نظير مرسيلية اليوم بالنسبة إلى فرنسا ، أو جنوة لإيطاليا ، أو
ليفربول لبلاد الإنكليز . بل امتازت البصرة على تلك المراسي
بنصيب أوفر وحظ أكبر إذ كانت مقصد القوافل الواردة من
كل حذب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب ، من مجاهل

(١) المصدر نفسه . وانظر أيضاً ما جاء في أحسن التقاسيم وفي رحلة ابن بطوطة
من تقلب هوائها وعفنها . الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم . والبخر تنن
ريح الفم .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب (مجلة المجمع العلمي العربي) ١٢ : ٣٢١

الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى ، ولذلك استفحل بها العمران
و كثرت فيها المصانع والصناعات ، وصارت واسطة العرب والعجم
و حق لها أن تتلقب « بقبة الإسلام » كما سماها عمر بن الخطاب .
ناهيك ببلد جمع لحسن الموقع أضداد الأشياء وأشأت الأرزاق
ومختلف المكاسب والمطالب . . .

اشتهر أهل البصرة من قديم بالتطوُّح في الآفاق والتراخي على
الأسفار البعيدة والضرب في مناكب الأرض طلباً للرزق والتماساً
للثراء (اشتهاراً) جعل الجاحظ يصرِّح : « بأنه ليس في الأرض
بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا
وأنت واجد به البصري والمدني ^(١) » وقد اتفقت كلمة السائحين
وأصحاب الرحلات على بعد همة البصريين في الترحال وغورهم
في الاغتراب حتى قال أبو بكر الهمداني — وناهيك به من خير — :
« وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري ، ومن دخل
فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيهما بصرياً
أو حميرياً ^(٢) . » اه ملخصاً .

(١) البخلاء (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) ص ١٦٠

(٢) البلدان للهمداني (ليدن) ص ٥١

وكثرت الأصناف المجلوبة إلى البصرة من عامة الأقطار حتى
لقبت بحق بـ (خزانة العرب ^(١)) واستطاع أحد أبنائها وهو
الجاحظ ، أن يؤلف في بضائع البصرة كتاباً مستقلاً يذكر فيه
الأحجار الثمينة كالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ..
الخ. والطيب والعطر والروائح الطيبة والوشى والفرش وما يجلب
من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري وما يختار من
البزة والشواهين والبواشق والصقور ... ببتدى بصفة النوع وما
يستجد منه ومن أين يجلب وأين أحسنه . والجاحظ كما نعلم لم
يرحل إلى الهند ولا إلى فارس ولكنّ عنده في بلده تجارات تلك
الأمم كلها . ولا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن البصرة في عصر
العباسيين الذهبي كانت سوق العالم قاطبة .

ولم يقصر البصريون في الزراعة بل عكفوا عليها وجوّدوها
حتى اختصّوا بمعرفة النخيل وضروبه وأصول غراسه اختصاصاً
فاقوا به كل أحد . قال الهمداني في كتابه البلدان : « ولأهل
البصرة من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كُور
النخيل ، وذكر الجاحظ أنهم أحصوا أصناف نخيل البصرة دون
نخل المدينة ودون مصر واليامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان

(١) انظر تاج العروس .

ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها والأهواز وما بها، أيام
المعصم، وإذا ثلاثمائة وستون ضرباً من مُغلٍّ معروف وخارجي
موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب .»

وهذا افتنان غير قليل في إجادة الزراعة يدل على حذق بها
ورقي بالغ . وذلك عدا ما شهرت به من الأسماك وأنواع اللحوم
والألبان والأقطان وسائر التجارات .

ولها إلى ذلك شهرة أخرى تعيننا هنا في بحثنا كثيراً، وهي ما استفاد
فيها من علوم ولغة وأدب وشعر حتى صارت تقصد لذلك دون
سائر البلاد، وكثر فيها العلماء والشعراء والأدباء والكتاب والفقهاء
والقراء . . . كثرة تسعصي على الإحصاء، وسنلمّ بذلك في كلامنا
على سوقها الكبرى : المربد .

ولم تخل إبان ازدهارها من أن تكون متعة للناظرين ومنازه
للمتفرجين، واشتهر فيها وادي القصر الذي قال فيه الجاحظ :
« ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكاפור ،
ورأى ضباباً تحترش ، وغزلاناً وسمكاً وصياداً ، وسمع غناء ملاح
في سفينته ، وحداً جمّال خلف بعيره .»

وكان هذه الجملة الموجزة نثر ما كان الخليل بن أحمد قاله قبله :
زر وادي القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر إن شئت أو بادي

تبرى به السفن والظلمات حاضرة والضب والنون والملاح والحادي
وليس في أيدينا نعت للبصرة أبلغ ولا أكثر إحاطة ولا
أصدق ولا أدق مما قاله خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان ،
فقد جمع لنا فيه من صفات البصرة وخصائصها ما لم نجده عند
غيره ، ولا ريب فهو ابن البصرة وأحد بلغاء الناس ، وكل من
أراد معرفة البصرة في القرن الأول الهجري فهو عيال على صفة
خالد هذه ، قال :

« يغدو قانصنا فيجيء بالشبَّوط والشيم ويحيى هذا بالظبي والظليم ،
ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً ، وخزاً ودباجاً ، وبرذوناً هملجاً ،
وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، أوله الرطب ،
وأوسطه الغنب ، وآخره القصب :

فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه ، كالزيتون عندكم في
منابته ، هذا على أفنائه ، كذلك على أغصانه ؛ هذا في زمانه ،
كذلك في إبانته ، من الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ،
الملقحات بالفحل ؛ يخرجن أسفاطاً عظاماً ، وأوساطاً ضخاماً كأنما
ملئت رباطاً . ثم ينقلن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ
الأيض ، ثم تبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأخضر ،
ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر ، ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء

ليست بقربة ولا إناء ، حولها المذاب ، ودونها الحراب ، لا يقربها
الذباب ، مرفوعة عن التراب . ثم تصير ذهباً في كَيْسَةِ الرجال ،
يستعان به على العيال ^(١) .

وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عنقاً ، فيفيض مندفعاً فيغسل
غثها ، وييدي مبثها ، يأتينا في أوان عطشنا ، ويذهب في زمان
رينا ، فنأخذ منه حاجتنا ، ونحن نيام على فرشنا ، فيقبل الماء وله
عُباب وازدياد ، ولا يحجبنا عنه حجاب ، ولا تغلق دونه الأبواب ،
ولا يتنافس فيه من قلة ، ولا يحبس عنا من علة ^(٢) .

وأما بيوتنا الذهب ، فإن لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور ،
تأخذه في أوقاته ، ويسلمه الله تعالى من آفاته ، وننفعه في مرضاته .
هذا ولم تحظ — فيما نعلم — بلدة من بلاد الإسلام ، بمثل ما
حضيت به البصرة ، فقد تشارك في صفتها ثلاثة من فرسان البلاغة
والعبقرية : خالد بن صفوان والحليل بن أحمد والجاحظ .

(١) اشبوط والشم : نوعان من السمك . والساج : خشب يجلب من الهند .
والحلاج : الحسن السير . والأسفاط مفردا سَفَط : وعاء يجعل فيه الطيب
ونحوه . والرباط جمع رِبْطَة : وهي الملائة . والشَّيْة : القربة البالية . والسحاء :
القشر . والمذاب جمع مذبة : وهي من شعر ذنب الفرس يدفع بها الذباب .
والكيسة جمع كيس . (٢) العنق : سير فسيح سريع . والغث : الرديء .
والعباب : موج أو ارتفاع الماء .

سوق المربد

ننتقل من أسواق العرب في الجاهلية إلى أسواقها في الإسلام .
ونلاحظ أننا لا نرى في هذه الأسواق الشأن الكبير الذي كان
لأسواق الجاهلية ، لأن العرب - كما تقدم - تحضرت وسكنت
الأمصار وكثرت فيها الأسواق الدائمة تحوي كل نوع من أنواع
البضائع المعروفة لهم . فلم تستجد في الإسلام سوق لم تكن في
الجاهلية ، إلا ما كان من أمر المربد الذي ورث عكاظ ، وقضى
على ما كانت تتمتع به من ميزات ، منذ عصر الراشدين ، وأخذ
أمر المربد بالازدياد حين بدأ شأن عكاظ بالانحلال فالانتقاص فالموت .
نزلت العرب البصرة سنة أربع عشرة ومصرتها سنة سبع
عشرة على تخطيط وضعه عمر وأرسل من يقف على تنفيذه . وكان
المربد على الجهة الغربية من البصرة إلى البادية ، ليكون أول ما
ينزلون إذا قصدوا البصرة ، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها .
ليقضوا فيه متاعاً لهم ومرافق يتبلغون بها في ظعنهم وإقامتهم .

معنى المربد : محبس الإبل ومربطها . والمربد أيضاً بيدر التمر لأنه يربد فيه فيشمس . والرُبْدَة لون إلى الغبرة .
ومربد البصرة هذا متسع للإبل تُربد فيه للبيع . وكان في الأصل سوقاً للإبل ، حتى إذا كان عهد الأمويين صار سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليها الناس كل يوم ، كل إلى فريقه وحلقته وشاعره ، وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرُجَّاز ويؤمها الأشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون وقد وجدوا فيه مستجلاً لأبدانهم وأرواحهم التي نهكتها الفتوحات ، وحنّت إلى سابق عهدها في عكاظ فجددت منه ما سمح به الدين الجديد . بل غصّت النظر فتسامحت أحياناً وأحيت ما أemat الإسلام من حمية جاهلية وإحن وثرات وأثار عداوات ، كان يبعثها الناس من تلقاء أنفسهم ، أو بتشجيع خفي من بعض خلفاء الأمويين ، ليشغلوا الناس بعضهم ببعض عن الخلافة وما يأتي الخلفاء من هنات .

فالمربد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها . وهو مجتمع العرب ومتحدثهم ومتنزه البصريين ، يؤمه منهم من عاف عيشة المدن . وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال ، حتى اشتد ولوع الناس به وارتياحهم له . ويظهر أن الأمر

زاد على ما نعرف للمنازه اليوم من خطر ، فقد بنيت فيه الدور
الجميلة وتفاقم أمره حتى صار من الضروري لكل أحد في عصر
العباسيين ، أن يغشى المريد ، إن لم يكن لحاجة فلترويح النفس
وتتبع البصر وترويض البدن ، وحتى قال جعفر بن سليمان الهاشمي
جملته المشهورة :

« العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمريد عين
البصرة ، وداري عين المريد ^(١) » وما زال في مجده هذا حتى خرب
وخربت البصرة وتقلص العمران بينهما إلى أن صار بين المريد
والبصرة ثلاثة أميال خراب على عهد ياقوت الذي ذكره في معجمه فقال :-
« مريد البصرة من أشهر محالها . وكان يكون سوق الإبل
فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات
الشعراء والخطباء . وهو الآن بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال
وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب فصار المريد كالبلدة
المنفردة في وسط البرية . »

نقلت قول ياقوت هذا في البصرة ومريدها ، لأقول إن الذي
طراً عليها من الخراب والتأخر ، طراً على العراق كله فمن يقرأ وصف
العراق وبلدانه وجنانه ونعيمه وسكانه وعمرانه وخيراته . . في كتب

الأدب ، وخاصة في العصر الثاني والثالث والرابع للهجرة ، ثم يرحل إليه اليوم ، لا يجد وصفاً للعراق أصدق من قول ياقوت في تلك الأميال الثلاثة التي كانت عمراناً متصلاً بين البصرة ومربدها وأصبحت على عهده خراباً يباباً أفرد المربد من أمها و كان سوقاً من أسواقها ، وجعلها قرية بائنة لا خطر لها .

ولئن كان لعكاظ ذلك الأثر في اللغة العربية : ألفاظها وأساليبها ، فإن المربد كان له أيضاً في اللغة أثر بعيد يختلف بعض الاختلاف عن أثر عكاظ ، لما بين الزمانين والمكانين من التباين ؛ فعكاظ في قلب الجزيرة العربية يحج إليها أشراف العرب وفصحاؤها ، لا عجمة فيها ولا أثر لأعجميين البتة . والأمر في المربد على العكس : هو في طرف الجزيرة على الخليج الفارسي وبينه وبين الفرس قرب قريب . وزاد الاسلام والفتوح اختلاط العرب بالعجم فتطرق إلى اللغة الفساد والعجمة واللحن وغشي هذا الضعف مجالس الخاصة من العرب ، وأزرى بلهجات الفصحاء حتى صرت تسمع الأمير على المنبر في المواسم ، يلحن على ملائ من الأعراب والبلغاء والأشراف ، فعيب على الحجاج لحن وأثر عن عبيد الله بن زياد مثله ، وكذلك نقلت لحنات عن أشراف العرب . فكان المربد يعجب بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو ، معهم محابره ودفاتره يكتبون عن

فصحاء الأعراب فيه ، وهذه الظاهرة لم تكن في عكاظ قط .

ويشبه المربد عكاظ في أمر الشعر وحلقاته ، بل يزيد عليه ، فلكل شاعر حلقة ، ولكل متهاجين مجلس ، ولكل قبيلة ناد وشاعره يزود عنها ويرد عدوان قريعه من القبيلة الثانية : فلعجاج ولرؤبة حلقة ، ولأبي النجم العجلي حلقة ، ولجرير والفرزدق وراعي الإبل وذو الرمة ، لكل منهم حلقة . وكثر هذا المحصول من الرجز والشعر والنكات الأدبية كثرةً ملأت أمهات كتب الأدب بأخبارها ، ولا شك في أن المربد في هذا فاق عكاظ مراحل واسعة وفاته بعدد الشعراء والرجّاز وكثرة الرواد وطلاب الأدب . وفي المربد أطفئت ثلاثة جمرات العرب ، أطفأها جرير بقصيدته الدماغية . كان لكل من الشعراء رواة ينقلون له مقاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه ، وكان اهتمام الناس بالشعر والأدب من أقوى الأسباب العاملة في غزارته وكثرة المقبلين على تعلّمه وروايته .

ويتفرّد المربد بأمر علمي محض لم يكن له في عكاظ من أثر ، وهو أنه أرفد اللغة بمادة كثيرة ، عليها أسس النحاة قواعدهم وأصلحوها ، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الأعراب يسألونهم فيما فيه يختلفون ،

ويأخذون عنهم مستفيدين ومتعلمين . وحسبك أن تقرأ أيّاً شئت
من كتب الأدب الأمّيات كالأغاني والأُمالي والبيان والتبيين
والكامل و... لتجد أن أكثر مادتها فيما يتعلق بالعصر الأول والثاني
للهجرة ، كان المربد ميدانه وينبوعه . وخذ إن أردت كتب
التاريخ الكبرى كالطبري مثلاً ثم ابلغ في فهرس أماكنه إلى
المربد ، يأخذك العجب من كثرة المواطن التي ورد ذكر المربد فيها
مع أن الكتاب كتاب سياسة وأخبار ملوك لا كتاب عامة وأدب .
والغريب أن هذا المربد لم يكثف بأن يستأثر بكل ميزة كانت
للعكاظ ، بل جمعها وضم إليها ميزات جديدة أفادها من خصائص
عصره وطبيعة اجتماعه ، فإن كانت في عكاظ حروب موضعية
بين قبيلتين فإن المربد كان ميداناً لا كبر فتنه وأشد حرب داخلية
وقف فيها المسلم أمام المسلم يكافحه بسيفه ويشرع إليه رمحه .
كان المربد ميداناً لحروب الجمل ، أول حرب فرقت كلمة هذه
الأمّة الخيفة وجعلت بأسها بينها ، وكانت حلقة أولى في هذه السلسلة
الطويلة التي نخرت الجسم الاسلامي ومكّنت عدوه منه وكانت
أفتك به من كل حرب صليبية وغارة تنارية ووحشية أوروبية .
فلأعرض على القارئ مشهداً صغيراً مما جرى في المربد من
هذه الحرب ليحمل باقي المشاهد عليه :

خرجت السيدة عائشة مطالبة بدم عثمان ، نائمة على خلافة علي ،
ومعها مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين
وأنصاراً ، منهم الزبير وابنه وطلحة وابنه ونفر من بني أمية فيهم
مروان بن الحكم وآخرون غير هؤلاء ، فقصدت البصرة لأن لها
فيها نفراً على رأيها . وكان على البصرة عثمان بن حنيف والياً لعلي ،
وقد مهدت لأمرها بكتب أرسلتها إلى رؤساء البصرة وساداتها
فأجابها قليل ورد عليها قوم وحيد قوم . بعد هذا التمهيد القصير
أقول وصف هذا المشهد معتمداً على ما جاء في تاريخ الطبري :

« أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من
أعلاه ، أمسكوا ووقفوا وتلقاهم الناس حتى لو رموا بحجر ما وقع
إلا على رأس إنسان . وخرج عثمان أمير البصرة لعلي فيمن معه ،
ولحق بعائشة من أهل البصرة من شاء حتى غص المربد بالناس
واحتل طلحة والزبير وجموعهما ميمنة المربد واحتل عثمان بمن معه
ميسرته . فوقف طلحة يتكلم فأنصتوا له :

فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد
وما استحل منه بقتل عثمان الخليفة ، وعظم ما أتي إليه . ودعا إلى
الطلب بدمه وقال : إن في ذلك إعزازاً لدين الله عز وجل وسلطانه ،
وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه من حدود الله ، وإنكم إن

فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإني تركتم لم يقيم لكم سلطان ولم يكن لكم نظام . وتكلم الزبير بمثل ذلك ؛ فقال من بمينة المربد وكانوا يحطبون في حبل الخارجين على علي : « صدقا وبراً وقالوا الحق وأمرنا بالحق . » وقال من في ميسرته : « فجرا وغدرا وقالوا الباطل وأمرابه ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان . » وتحاثى الفريقان وتحاصبوا وأرهبوا .^(١)

فتكلمت عائشة وكانت جمهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة فحمدت الله وأثنت عليه وقالت : « كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه ويؤرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم ، فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقيّاً وفيّا ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كثروا ، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . ألا إن مما ينبغي — ولا ينبغي لكم غيره — أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل وتلت : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ

(١) تحاثى : ترامى ، والحنى : التراب . تحاصبوا : تراموا بالخصبة : وهي

المجارة . وأرهبوا : أثاروا الرهج وهو الغبار .

يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ . » آل عمران ، ٢٣

فما ج الناس وافترق أصحاب عثمان بن حنيف بعد سماعهم ما تقدم فرقتين : فقالت فرقة : « صدقت والله وبررت وجاءت والله بالمعروف . » وقال الآخرون : « كذبتم والله ما نعرف ما تقولون . » فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا . .

أوقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان نفسه ، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا من المربد في موضع الدبائين . وبقي أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تجاوزوا ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان . وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدبائين استقبلوا الناس فأخذ عليهم بفمها .

كاد الأمر يقف عند هذا ، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا حينئذ قتالا ، ولكن جماعة في أصحاب عثمان — ولعل أكثرهم ممن اشترك في دم الخليفة الشهيد — تعجلوا الحوادث وأرادوا بدء القتال ، وكان حكيم بن جبلة على الخيل وهو أول من أقبل ينشب القتال ، وأشرع أصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم ، وأمسكوا ليمسك أصحاب عثمان ، فلم ينته حكيم

ولم يثنَ ، وقاتلهم ، وأصحاب عائشة كافّون ، إلا ما دفعوا عن أنفسهم ، وحكيم يُذَمَّرُ ^(١) خيله ويركبهم بها ويقول : « إنها قریش ، ليردّينها جنبها والطيش . » واقتتلوا على فم السكة . وأشرف أهل الدور — والموقعة بجوارهم والمربد يومئذٍ سوق داخل في البلد حوله البيوت — ممن كان له في واحد من الفريقين هوى ، فرموا الآخرين بالحجارة . وأمّرت عائشة أصحابها فقياموا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها طويلاً وثار إليهم الناس حتى حجز الليل بينهم . »

هذا حادث من حوادث كثيرة وقعت في الربد واستمرت حتى انتهت حرب الجمل باندحار أصحاب عائشة . ذكرته ليقف القارئ على صورة من هذه المأساة الفادحة التي كانت وما بعدها سبباً في فرقة المسلمين وحدوث طوائف ونحل يلعن بعضها بعضاً ويحمل بعضها على بعض ، تتناكر وتنقادف وترى كل منها أن غير المسلم أقرب إليها من أهل الطائفة الثانية وكثيراً ما استعان بعضها على بعض بالأجنبي عدوهما معاً ، بل كثيراً ما عمل الدخيل على توسيع الشقة بينهما وقوّى بعضاً على بعض وأمدّ الفريقين من وراء وراء ، بالسلاح والمال ليفنيا جميعاً .

(١) التذمير : الحثّ والخصّ .

كان في المربد إذن أدب وتجارة وحرب وسياسة كما كان في عكاظ . وأستطيع أن أقسم الكلام على المربد أقساماً ثلاثة كان شأنه في كل منها مختلفاً . أما الأول فعلى عهد الراشدين إذ كان يقتصر أمره على التجارة غالباً وإن لم يعدم يوماً أن كان ساحة حرب ومسرح مأسى . وقد عرفنا مما ذكر الطبري أن به موضعاً للديباغين . فالمربد إذن سوق البصرة أيام الراشدين وأغلب ما يتاجر فيه التمر وما إليه والإبل والسلاح والغنائم مما كان يقسم على المحاربين ، فيبيعه هؤلاء في المربد .

ثم يأتي العهد الثاني أيام الأمويين وقد اتسعت السوق وكثر قاصدوها من الأطراف وازدهت بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل ، مما لم يكن في العهد الأول ، لانشغال الناس آنئذٍ بالجهاد والفتوح ، وعدم فراغ لهذه الألوان من الأدب التي لا تغزر وتتهياً إلا بعد استتباب حال الدولة ، ولم نعهد حركة أدبية نشأت إبان الفتوح حين تتأسس الدول .

وازدان هذا العهد بأفحل رجاز وشعراء أخرجهم العهد الأموي وأخص بالذكر جريراً والفرزدق والأخطل والبعيث ، وراعي الإبل وذو الرمة ، ومن الرجاز ربيعة وأباه العجاج وأبا النجم العجلي وهذا الفريق .

أما في العهد الثالث أي بين آخر العصر الأموي والقرن الثاني للهجرة ، فقد نضجت حركة المربد الأدبية والعلمية نضجاً يتسق هو وما وصلت إليه الدولة من حسن الحال وسعة الأفق ومرافق الحضارة وبسطة العلم وسعة السلطان . وكان من أبطال المربد أكابر النحاة ورواة الشعر والأدب والشعراء . والذي كان جديداً في هذا العهد ولم يكن قبله ، الناحية العلمية وأعني بها ما كان يصنعه أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وقبيلهما من غشيان لفصحاء^(١)

(١) كان المربد مدرسة عملية تعلم الفصاحة ويهرع إليه طلابها من كل وجه ونبغ منهم عدد غير قليل ، والنظام والملاحظ من مشهورهم فقد ذكر المؤرخون أن الثاني تلقف الفصاحة شفاها بالمربد . وأهل البصرة في الجملة من أفصح أهل الأمصار ، بل إن الجاحظ ليذهب أبعد من ذلك فيزعم أنهم أفصح أهل الأمصار عامة ، ولسنا نستطيع أن ننسب هذا منه إلى عصبية بلده . جاء في كتابه البيان والتبيين (١ : ٣٣ السندوي) :

[قال أهل مكة لمحمد بن منذر الشاعر : « ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة » . فقال ابن منذر : « أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم :

أنتم تسمون القدر : بُرمة ، وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول : قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » . سبأ . الآية ١٣

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت عليه ، وتجمعون هذا الاسم =

الأعراب وصبر على لوثتهم وجفائهم ، وتلقّف لما ينطقون به وإثبات له في الصحف ، يروونه ليني عليه الأساس في وضع القواعد العربية .

قال صاحب ضحى الإسلام (٢ : ٨٠) وفي قوله إجمال ما قدّمت :
كان المربد في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين مركزاً سياسياً وأديباً ، نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه وتؤلّب الناس على عليّ ، وكان المربد مركزاً للمهاجرة بين جرير والأخطل والفرزدق ، وأنتج ذلك نوعاً من أقوى الشعر الهجائي كالذي تقروءه في النقائض ، وكان لكل من هؤلاء الشعراء حلقة ينشد فيها شعره ، وحوله الناس يسمعون .
جاء في الأغاني « وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد في البصرة . »

واستمر المربد في العصر العباسي ، ولكنه كان يؤدي غرضاً

= على علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف وقال الله تبارك وتعالى : « غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مِّبْيَةٌ » الزمر ، الآية ٢٠ وقال : « وَهُمْ فِي الْغُرْفَاتِ آمِنُونَ » سبأ ، الآية ٣٧

وأنتم تسمون الطلع : الكافور والإغريض ، ونحن نسميه الطلع وقال الله عز وجل : « وَتَخْلُ طُعْمُهَا هَضِيمٌ » الشعراء ، الآية ١٤٨
فعدّ عشر كليات ولم أحفظ أنا منها إلا هذا .]

آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الأموي ، ذلك أن العصبية القبلية ضعفت في العصر العباسي بمهاجمة الفرس للعرب ، وأحس العرب بما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنائهم وقحطانيهم ، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة ، فقوي نفوذ الفرس وغلّبوا العرب على أمرهم ، وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هي أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حياة العرب ، وانصرف الخلفاء والأمراء عن مثل النزاع الذي كان يتنازعه جرير والفرزدق والأخطل ، وظهرت العلوم تزامح الأدب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالي الذين دخلوا في الإسلام ، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ، فتحول المربد يؤدي غرضاً يتفق (هو) وهذه الحياة الجديدة .

أصبح المربد غرضاً يقصده الشعراء لا ليتهاجوا ، ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون .
روى القالي في الأمالي عن الأصمعي قال : « جئت إلى أبي عمرو ابن العلاء فقال لي : من أين أقبلت يا أصمعي ؟ » قلت : « جئت من المربد » ، قال : « هات ما معك » فقرأت عليه

ما كتبت في ألواحي ، فرب به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج
يعدو في الدرجة وقال : « شمرت في الغريب » أي غلبتني .
والنحويون يخرجون إلى المربد يسمعون من أهله ما يصح
قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشعد الخلف بين مدرسة البصرة
ومدرسة الكوفة في النحو وتعصب كل لمذهبه ، وكان أهم مدد
لمدرسة البصرة هو المربد ؛ وفي تراجم النحاة نجد كثيراً منهم
كان يذهب إلى المربد يأخذ عن أهله . ويخرج الأدباء إلى
المربد يأخذون الأدب ، من جمل بليغة وشعر رصين وأمثال
وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ، كما فعل
الجاحظ : إن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ الكلام
عن النظام ، وتلقف الفصاحة من الأعراب شفاهاً بالمربد « اه
وكما كان عكاظ يؤمه كل من أراد أن يفتخر أو يعلن أمراً
تفرد به أو يشيع في الناس ماثرة أو خبراً ، كان المربد كذلك
منشرة للمحامد والمساوى ، مسرة الصديق وغيظ العدو ، فكل
من أراد أن يكبت خصماً أو يحقر قبيلة أو يشهر محمداً طلب
لها المربد يجعلها فيه ، لتكون أشيع وأسير وأبلغ في الإرضاء
والإغالة . وقد كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية
واستغاثات وشكوى ورتاء ونخر كما كان عكاظ . وأحفل ما

كان المربد ، في النصف الثاني لعهد الأمويين والثالث الأول لعهد العباسيين . فلا شرع في عرض مناظر تكمل الصورة التي وصفت ليكون القارئ ملماً بجميع ما يعرض ويجري في المربد على اختلاف المناحي والغايات ، وقد تقدمت صورة على عهد الراشدين وهي حرب الجمل . ولا ريب في أن المربد لم يستفحل أمره وتعدد مقاصده إلا فيما بعد ، في الزمن الذي ذكرت لك من أيام بني أمية وبني العباس .

* * *

١ - عونه بقبر

عبد . كاتب لبني منقر ، ضاقت حاله ولم يقدر على حيلة يجمع بها المال لسيده حتى يعتقه ؛ فلما عي بالأمر أتى قبر غالب أبي الفرزدق ، فضرب قبة عليه علامة الاستعاذة والاستغاثة ، فقدم الناس فأخبروا الفرزدق أنهم رأوا بناء على قبر غالب أيه . قصد الكاتب المربد وتقصى الخلفات حلقة حلقة ، حتى وقف على حلقة الفرزدق حيث يجلس فقال :

بقبر ابن ليلي غالب عذت بعدما خشيت الردى أو أن أرد على قسر
تخاطبني قبر ابن ليلي وقال لي فكأكل أن تلقى الفرزدق بالمصر

فقال له الفرزدق : « صدق أبي ، أنخ أنخ . » ثم طاف
على الناس حتى جمع له كتابته وفضلاً فضل للمكاتب فأنصرف
وقد أنجح مسعاه .

٢ — مجنون في حب

كان بالبصرة مجنون قاعد على ظهر الطريق بالمربد ، فكلما مر
به ركب قال :

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا علينا فقد أُمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدكم وحبّ إلينا بطن نعمان واديا
فسألت عنه ، فقيل : هذا رجل من البصرة ، كانت له ابنة
عم يحبها فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها ، فاستو له عليها .^(١)

٣ — إلهاب مال

كان زياد قد نهى أن يُنهب أحد مال نفسه ، وكان الفرزدق
أنهب ماله بالمربد . وذلك أن أباه بعث معه إبلا لبيعها فباعها
وأخذ ثمنها . فعقد عليه مطرف خزّ كان عليه ، فقال قائل :

(١) الأُمالي ٢ : ١٢٦ . والوله : ذهاب العقل من حزن ، والحيرة

« لشدّ ما عقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ، ما فعل هذا الفعل ! »

فحلها الفرزدق ثم أنهبها وقال : « من أخذ شيئاً فهو له . » وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب ، فلم يزل زياد في طلبه ، قد بلغ منه كل مبلغ ليعاقبه على ما صنع ، وقد نهى زياد في ذلك ألا يفعله أحد . وكان زياد إذا قال شيئاً وفي به . فلم يزل في هربه ذلك يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد .^(١)

٤ - نهديم دور الريحانيين

كان للبصرة وال متنسك يروى عنه الفقه ، اسمه الحارث بن عبد الله المخزومي ولقبه القُبَاع^(٢) بلغه ما يكون في المربد من الشرّ بين جرير والفرزدق وبين حييها بسببهما ، ولما رأى أنها غير منتهيين عن ذلك ، أراد أن يخطو الخطوة الحاسمة بحزم ، فأمر بالدار التي ينزلها جرير في المربد والدار التي ينزلها الفرزدق في المقبرة فهدمتا .

(١) النقائض ص ٦٠٧

(٢) القُبَاع : المكيال الضخم . ولقب الحارث بن عبد الله والي البصرة بالقُبَاع لأنه اتخذ ذلك المكيال لهم ، أو لأنهم أتوه بمكيال لهم حين ولايتهم فقال : « إن مكيالكم هذا القُبَاع » — القاموس

وكان القباع قد أراد هدم دار الفرزدق قبل هذه المرة أيضاً
في شيء بلغه ، ثم إنه كَلَّم فيه وهرب الفرزدق .
ويظهر أن هذا الجزاء كان شديداً قد بلغ من نفسي الشاعر من
مبلغاً ، حتى إن الفرزدق بعدها خنع وتملّق فقال :

أحارث داري مرتين هدمتها و كنت ابن أخت لا تخاف غوائله
وأنت امروء بطحاء مكة لم يزل بهامنكم معطي الجزيل وفاعله
فقلنا له لا تشمتنّ عدونا ولا تنس من أصحابنا من نواصله
فقبلك ما أعيت كاسر عينه زياداً فلم تقدر عليّ حبائله
فأقسمت لا آتيه سبعين حجة ولو نشرت عين القباع وكاهله
وقال جرير في ذلك :

أحارث خذ من شئت منا ومنهم ودعنا نقسّ مجدّاً تعد فواصله
فما في كتاب الله تهديم دورنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

٥ — هجاء ابليس

كان الفرزدق قد أكثر من هجاء « باهلة » حتى عيت هذه
القبيلة بأمرها وكان مما قال فيهم :
أباهل لو أن الأنام ثنّفروا على : أيهم شرّ قديماً وألأم
لفاز لكم سهما لثيم عليهم ولو كانت العجلان فيهم وجرهم

وقال أيضاً :

ألا كيف البقاء لباهلي هوى بين الفرزدق والجميل
ألت إذا نسبت لباهلي لألام من تركض في المشيم^(١)
وهل يستطيع أبكم باهلي زحام الهاديات من القروم^(٢)
فلا يأت المساجد باهلي وكيف صلاة مرجوس رجيم . الخ
إلا أن الله أراد أن يرحمهم ، فساق الفرزدق يوماً إلى الربد ،
فلقي رجلاً يقال له حمام من موالي باهلة ، ومعه نحي من سمن
يبيعه .

فسامه الفرزدق إياه فقال له : « أدفعه إليك وتهب لي أعراض
قومي ! » فقال يهب له أعراض قومه ويهجو إبليس :
ألا بشراً من كان لا يملك استه ومن قومه بالليل غير نيام
يخافون مني أن يصرك أنوفهم وأقفاءهم إحدى بنات صمام^(٣)
لعمري لنعم النحي كان لقومه عشيّة عبّ البيع نحي حمام^(٤)

(١) المشيم : محل الولد في الرحم .

(٢) الهادي : انتقدم ، والهوادي من الإبل أول رعل يطلع منها .

والقروم : الفحول .

(٣) الصّام الداهية الشديدة . يقال : صّمي صمام أي زبدي ياداهية .

(٤) النّحي : الزيق وقيل ما كنف للسمن خاصة . والعَبّ :

الكرع وتتابع الشرب .

أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبي وتم تمامي
 فررتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُلاقٍ لأيام المنون حمامي
 ألا طالما قد بتَّ يوضع ناقتي أبو الجن إبليس بغير خِطام
 يظل يميني على الرّحل واركا^(١) يكون ورأي مرة وأمامي ...
 وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي رضاه ولا يقتادني بزمام
 سأجزيك من سوءات ما كنت ستقتني

إليه جروحاً فيك ذات كلام^(٢)
 وإن ابن إبليس وإبليس ألبنا لهم بعذاب الناس كل غلام^(٣)
 هما تغلا في في من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام^(٤)

٦ - مبرير برهجو قبيلة

بنو العم قبيلة ليست من صميم العرب « نزلوا بيني تميم في
 أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ،
 فقال الناس : « أنتم وإن لم تكونوا من العرب ، إخواننا وأهلنا

(١) الوارك : المعتمد على ورّكه ، والورك : ما فوق الفخذ .

(٢) الكلام : الجروح .

(٣) لبنّ القوم : سقام اللبن ، وألبن القوم : كثر عندهم اللبن ،

ومن المجاز : لبّنه بالعصا والحجر : ضربه .

(٤) الرّجام : الحجارة .

وأنتم الأنصار والإخوان وبنو العم . « فلقّبوا بذلك وصاروا في جملة العرب . » إلا أن الاسم الذي سُمّوا به يحمل في تضاعفه سمة قوم لصقاء ، فكان فيه بعض الغضب منهم وكانوا يُضربون مثلاً في رقة النسب وضعف الشجاعة حتى قال كعب بن معدان يهجو بني ناجية ويعرض بنسبهم في قریش :

وجدنا آل سامة في قریش كمثل « العم » بين بني تميم
حضرت هذه القبيلة المربد وقد تواقف للهجاء جرير والفرزدق ،
يردّ هذا على ذلك ووراء كل قبيلته وحزبه ، فهاج الشر واقتتل
القبيلتان : بنو يربوع قوم جرير ، وبنو مجاشع قوم الفرزدق ،
فأمدت بنو العم بني مجاشع وجاؤوهم وفي أيديهم الخشب فطردوا
بني يربوع « فقال جرير : « من هؤلاء ؟ » قلوا : « بنو العم . »
فقال جرير يهجوهم ويعرض بالفرزدق وأنصاره الوضيعين هؤلاء :
ما للفرزدق من عزّ يلوذ به إلا بني العم في أيديهم الخشب
سيروا بني العم فالأهواز داركم ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب ^(١)



(١) الأغاني ٣ : ٢٥٧ (دار الكتب) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس ، لكل كورة منها اسم ويجمعها الأهواز . ونهر تيرى من نواحي الأهواز

٧ - والفرزدق لعبة

جرير والفرزدق ملاّ المربد بأشعارهما ونقائضهما وظلاًّ حديث
أهلها ما عاشا . لا يألوا أحدهما جهداً في خلق ما يعير صاحبه به ،
فهما أبداً دائبان في أن يجدا من كل شيء موضوعاً للهجاء ، ألف
منهما ذلك أهل المربد عامة . وكانت لكل حلقة يلاًّ فيها ماضية
نخراً بقبيله وهجاءً لقييل خصمه ، وكانت عبقريتهما البعيدة الغور
تفتق لهما من الشعر ألواناً تشغل بها السامعين من البدو والحضر .

هذا جرير ، وقف بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاملاً وركب
فرساً أعاره إياه أبو جهضم عماد بن حصين الحبطي . فبلغ ذلك
الفرزدق فلبس ثياب وشي وسواراً وقام في مقبرة بني حصن
ينشد بجرير ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما . فقال الفرزدق
وقد وجد في لباس جرير السلاح والدرع ، مادة لهجائه :

وإن كليلاً إذ أتاني بعبدها	كن غره حتى رأى الموت باطله
رجوا أن يردوا عن جرير بدرعه	نوافذ ما أرمي وما أنا قائله
عجبت لراعي الضأن في حطمية	وفي الدرع عبد قد أصيب مقاتله
وهل تلبس الحبل السلاح وبطنها	إذا انتطقت عبء عليها تعادله
أفاخ وألقى الدرع عنه ولم أكن	لألقي درعي من كمي أقاتله

تر كنا جرير أوهو في السوق حابس عطية : هل يلتقى به من يبادلُه
فقالوا له رُدَّ الحمار فإنه أبوك لثيم رأسه وجحافلُه
وأنت حريص أن يكون مجاشع أباك ولكن ابنه عنك شاغلُه^(١)
وما ألبسوه الدرع حتى تزيلت من الخزي دون الجلد منه مفاصله
ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب وشي اهتبلها فرصة فقال :
لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشا حاكراً جوجلاجله !^(٢)
فعرف كيف يصوب السهم ويحكم الضربة ويفوز بأضحاك
الناس من خصمه الفرزدق : اللعبة .

٨ - ضحيتة بين فحطين

هاجى جرير ثمانين شاعراً . وكان عمر بن لجأ أحدهم ؛ وكان
جرير قد هجاه بقوله :

ياتيمُ تيمَ عدي لا أباً لكم لا يقدفَنكمُ في سوءة عمر
أحين صرتُ سماماً يابني لجأ وخاطرتُ بي عن أحسابها مضر^(٣)
فبينما جرير واقف بالمربد وقد ركبته الناس وعمر بن لجأ مواقفه

(١) النقائض ص ٦٢٣ . الخطمية : الدرع . أفاخ : تفاج . وفتح

نخذه وفـا . عطية : أبو جرير . والجحافل للخيل والبغال والحمير : بمنزلة الشفة .

(٢) الكرّ ج : المهر . معرب .

(٣) السمام : جمع سم . وخاطر : راهن . والحسب : مفاخر الآباء

يتهيأ للردّ عليه ببيته ، هدأت الضجة فقال عمر هذين البيتين وكان
قد رفده بهما الفرزدق :

لقد كذبتَ وشر القول أ كذبه ما خاطرت بك عن أحسابنا مضر
ألبت فروة خوار على لوئم لا يسبق الحلبات اللوئم والخور
سمعها جرير ففكر ثم فطن للأمر فقال : « قبحاً لك يا بن
لجأ ، أهذا شعرك ؟ كذبت والله ولوئمت ؛ هذا شعر حنظلي ،
هذا شعر العزيز (يعني الفرزدق) . » فأبلس عمر وما ردّ جواباً .
وكان في الحلقة غنيم بن أبي الرقراق فطار حتى أتى الفرزدق
فضحك له وأخبره الخبر ، فاستلقى الفرزدق يضحك حتى فحصى
الأرض برجليه ، وقال في ساعته يريد عمر بن لجأ ، هذا الذي
دخل بين فحلين فسقط مطّرحاً بين أقدامهما :

وما أنت إن قرماً تميم تساميا أخا التيم إلا كالوشيطه في الغرم^(١)
فلو كنت مولى الظلم أو في ثيابه ظلمت ولكن لا يدي لك في الظلم
ويرجع الخبر بذلك إلى جرير فتنبسط أساريه ويعلوه البشر
إذ سمع هذين البيتين ، ورأى لأول مرة كلمة إنصاف من ذلك
الذي ملأ عليه الأرض هجاءً وشرّاً فيقول :

(١) الوشيطة : قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم ، وهم وشيطة
في قومهم : حشو فيهم ؛ والدعي لا يدخلونه عادة في الغرم .

« ما أنصفني في شعر قط قبل هذا . » يعني قوله (إن قرما
تميم تساميا) .

٩ - الحكم في تنافر ساعرين

[لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قتلت بنو سليم وهم
من قيس ، مقتلة من بني فهر وبني كنانة .
فلما وجه معاوية في خلافته بسر بن أرطاة الفهري لقتل شيعة علي ،
نهضت وجوه قيس إلى معاوية وقالوا :
« نسألك بالله والرحم ألا تجعل لبسر على قيس سلطانا فيقتل قيساً
بمن قتلت بنو سليم من بني فهر وبني كنانة يوم فتح مكة . » فقال
معاوية : « يا بسر ليس لك سلطان على قيس . »
سار بسر حتى أتى الطائف فقات له ثقيف : « ما لك علينا سلطان ،
نحن من قيس . » فسار حتى أتى همدان وهم في جبل لهم يقال له شبام ،
فتحصنت فيه همدان ثم نادوا : « يا بسر نحن همدان وهذا شبام . » فلم
يلتفت إليهم ، حتى إذا اغتروا ونزلوا إلى قراهم آغار عليهم فقتل وسبى
نساءهم فكان أول مسلمات سبين في الإسلام . ومر بجي من بني سعد
نزول بين ظهري بني جعدة بالفليج (موضع لبني جعدة بنجد) فأغار
بسر على الحي السعديين فقتل منهم وأسرفقال أوس بن مغراء في ذلك :
مشرّين ترعون النجيل وقد غدت بأوصال قتلاكم كلاب مزاحم^(١)
فقال النابغة يحميه :

(١) المشرّ : الباسط ثوبه في الشمس ، والنجيل : جنس من الحمض

مَنى أَكَلت لحومكم كلَّاي أَكَلت بديك من جرب تهم
 وهاج الشر بين الشاعرين لما كان بين القبيلتين من ذحول وعداوة .
 ولم يكن أوس مثل النابغة ولا قريباً منه في الشعر . فقال النابغة : « إني
 وإياه لنبتدر بيتاً أبنا سبق إليه غلب صاحبه . » فلما بلغه قول أوس :
 لعمرُك ما تبلى سرايل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها
 قال النابغة : « هذا البيت الذي كنا نبتدر إليه . » فغلَّب أوس
 عليه .]

كان مفهوماً أن يناضل كل شاعر عن حيّه ويدفع عنه ما
 يلصقه خصمه به ، فتأرّث الهجاء بين النابغة وأوس ، واستطال
 أوس بنسبه إلى معدّ ، ثم كانت الحكومة بين الشاعرين في
 المربد : سوق العرب في الإسلام . وهذه رواية الأغاني في
 القضاء بينها :

اجتمع النابغة الجعدي وأوس بن مغراء في المربد ، فتنافرا
 وتهاجيا ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ؛
 فقال أوس :

لما رأت جعدة منا وردا ولّوا نعاماً في البلاد رُبدا^(١)
 إن لنا عليكم معدّاً كاهلها وركنها الأشدا
 فقال العجاج :

(١) الورد : الجيش . والرُّبْد : جمع ربداء وهي النعامة المختلطة السواد

كل امرئ يعدو بما استعدا

وقال الأخطل يعين أوس بن مغراء ويحكم له :

وإني لقاض بين جعدة عامر وسعد قضاء بين الحق فيصلا
أبو جعدة الذئب الخبيث طعامه وعوف بن كعب أكرم الناس أولا

وقال كعب بن جعيل :

إني لقاض قضاء سوف يتبعه من أم قصد أولم يعدل إلى أود^(١)
فصلاً من القول تأتم القضاء به ولا أجور ولا أبغي على أحد
(نالت) بنو عامر سعداً وشاعرها كما (تنال) بنو عبس بني أسد
وهكذا باء النابغة على فحولته بشر ما يبوء امرؤ إلى أهله
وفاز أوس بحكومة هو لاء القضية غير العادلين .

١٠ - نقر سحف

تكوّف جماعة بمربد البصرة على الشاعر ذي الرمة ، وهو
قائم وعليه برد قيمته مئتا دينار . فاجتمعوا إليه وهو ينشد
ودموعه تجري على لحيته حزناً وأسفاً على عهد صاحبتة خرقاء :
ما بال عينك منها الدمع ينسكب . . الخ

بيننا ذو الرمة بالمربد والناس مجتمعون إليه ، إذا هو بخياط

(١) أم : قصد ، الأود : العوج والميل

يقف ويقول : « يا غيلان » (اسم ذي الرمة) :
 أنت الذي تستنطق الدار واقفاً من الجهل : « هل كانت بكن حُلُول ؟ »
 فقام ذو الرمة وفكر زماناً ثم عاد فتعد في المربد ينشد فإذا
 بالخياط قد وقف عليه وكان ، ذو الرمة قد قال في خرقاء صاحبه
 هذين البيتين المشهورين :

أيا ظية الوعاء بين جُلاجل وبين النقا أنت أم أمّ سالم
 هي الشبه ، لولا مدرّياها وأذنها سواء وإلا مشقة في القوائم^(١)
 فقال الخياط يعرض بهذين البيتين ويسخر من تشبيهه هذا :
 « أنت الذي شبهت عنزاً بقفرة لها ذنب فوق استها أم سالم
 وقرنان إما يلزقانك يتركا بجنبك يا غيلان مثل المواسم
 جعلت لها قرنين فوق شواتها^(٢) وربك منها مشقة في القوائم »
 فجل ذو الرمة وبهت ، وقام فذهب . ولم ينشد بعدها في
 المربد حتى مات الخياط^(٣) .

(١) الوعاء : راية من رمل لينة تنبت أحرار البقول . والنقا من
 الرمل : القطعة تنقاد محدودة . المشقة : التفرج في قوائم ذات الحافر .
 المدرى : القرن ، والمشط

(٢) الشوى : قحف الرأس

(٣) الأغاني ١٦ : ١١٤

١١ - إعدام فيميلة

كان الراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد
بالبصرة يجلسون فيها ، وكان الراعي قد ضخم أمره ، وكان من
شعراء الناس ، فدخل في المنافرة بين جرير والفرزدق وقضى على
الأول للثاني وكان فيما قاله :

يا صاحبي دنا المسير فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا
وقال :

رأيت الجحش جحش بني كليب تيمم حوض دجلة ثم هابا
(يعني جريراً) .

فلما أكثر الراعي من ذلك قال جرير لرجال من قومه :
« هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق علي وهو يهجو
قومه وأنا أمدحهم . » ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم
يركب دابته لئلا يعلم به أحد ، فتعرض للراعي يريد أن يلقاه
من حيال حيث كان يمر إذا انصرف من مجلسه بالمربد . فر
الراعي على بغلته وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى ،
وإنسان يمشي معه يسأله عن بعض الأمر . فلما استقبل جرير
الراعي قال له : « مرحباً بك يا أبا جندل . » ، وضرب بشماله على

معرفة بغلته ، ثم قال يا أبا جندل : « إنك شيخ مضر وشاعرها وقد
بلغني أنك تفضل عليّ الفرزدق تفضيلاً قبيحاً وهو ابن عمي دونك ،
فإن كان لا بد من تفضيل فأنا أحق به لمدحي قومك وذكرني
إياهم . ويكفيك من ذلك إذا ذكرنا أن تقول : كلاهما شاعر
كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة . » فبينما جرير كذلك أقبل
ابن الراعي جندل ، حتى ضرب عجز دابة جرير حتى كاد يقطع
إصبع رجله وقال لأبيه : « لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب
كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً . » وضرب البغلة ضربة
فرمحت جريراً رحمة وقعت منها قلنسوته ، قال جرير : « فوالله لو
عرج عليّ الراعي لقات سفيه غويّ (يعني جندلاً ابنه) ولكن لا
والله ما عاج ، فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي . »
فانصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في عليّة له
قال : « ارفعوا لي باطية من نبيذ وأسرجوا لي . » ففعلوا . فجعل
يهمهم ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرج حتى
نظرت إليه فإذا هو : يحبو في الفراش عرياناً ، لما هو فيه ،
فانحدرت فقالت : « ضيفكم مجنون ، رأيت منه كذا وكذا . »
فقالوا لها : « اذهبي لطيتك ، نحن أعلم به وبما يمارس . » فما زال

كذلك حتى كان السحر ، ثم إذا هو يكبر : قد قلها ثمانين
ميتاً في نمر ، فلما ختمها بقوله :

خُفُضَ الطرف إنك من نمر فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
كبر ثم قال : « أخزيته ورب الكعبة . »

ثم أصبح ، حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم
المربد ، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فادّهن ،
وكفّ رأسه ، وكان حسن الشعر ثم قال : « يا غلام أسرج
لي . » فأسرج له حصاناً . ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان
موقع السلام قال : « يا غلام . » ولم يسلم :

« قل لعبيد : أبعتك نسوتك تكسبن المال بالعراق ؟ أما
والذي نفس جرير بيده لترجعن إلى أهلك بمير يسووهن ولا
يسرهن ، أما أنا فقد بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا المربد ، فلا
يسبهم أحد إلا سببته . وإن علي نذراً : إن جعلت في عيني
غَمْضاً حتى أخزيك . » ثم اندفع جرير في قصيدته :

أَقْلِي الموم عاذل والعبابا وقولي إن أصبت لقد أصابا
فأنشدها فنكس الفرزدق وراعي الإبل ، وأزمّ القوم ، حتى
إذا بلغ قوله :

بها برص بجانب إسكتيها . . .

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطى عنقه^(١) لئلا يفطن
جرير فيخزيه في مجلسه ذاك ؛ ففطن لها جرير فأتم البيت هكذا
وكان الفرزدق لقنه إياه :

بها برص بجانب إسكتيها كعنققة الفرزدق حين شابا
ولعله في الأصل على غير ذلك . فانصرف الفرزدق وهو
يقول : « اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه
لا يقول غير هذا ، ولكن طمعت بالسلامة فغطيت وجهي
فما أغناني ذلك شيئا . »

واسترسل جرير في الإنشاد حتى بلغ قوله مخاطباً الراعي :
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فأسقط في يد الراعي وبني نمير عامة . وقال الفرزدق « غضه
والله فلا يجيبه ولا يفلح بعدها أبدا . »

وسرعان ما تناقل هذا البيت أهل المربد ، وانفض المجلس
عليه . وسار الراعي فوجد البيت سبقه إلى أهله وقومه فاستحيا ورحل .
وهكذا انطفأت قبيلة نمير آخر جمرات العرب في المربد ،
أمام هذا المحفل الحاشد ، على يد جرير الشاعر .

(١) الإسكة : جانب فرج المرأة ، وهما إسكتان . والعنققة :
شعرات بين الشفة السفلى والذقن .

١٢ — ردّ عمروان

قدم معن بن أوس المزني (البصرة) فقعده ينشد في المربد .
توقف عليه الفرزدق وأراد العبث به فقال : « يا معن ، من الذي
يقول :

العمرك ما مزينة رهط معن بأجفان نطاق ولا سنام ^(١) »
فقال معن : « أتعرف يا فرزدق من الذي يقول :

العمرك ما تميم أهل فلج بأرداف الملوك ولا كرام ^(٢) »
فراه الفرزدق صلباً فتنصل وقال له : « حسبك إنما جربتك . »
فأجابه معن بالهجة الحازم : « قد جربت وأنت أعلم . »
فانصرف وتركه .

١٣ — سلاطنة

كان المربد إلى ذلك يفسح مجالاً لمتعصبة الشعوية وأراذلهم ،
فينالون من الحسب الزاكي والأصل الكريم ويتطاولون ، وكانوا
يدسون سمومهم في أفكار الموالي والعبيد قال الأصمغاني :

(١) من معاني الجفن : الشجر الطيب الربح

(٢) الردف : الردف ، وكل ما تبع شيئاً فهو ردّفه

« وقف رجل من بني زيدٍ شريف ، لا أحب أن أسمىه »
على بشار فقال له : « يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا »
تمدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك
الولاء ؛ وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل . » فقال
له بشار :

« والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أزكى من عمل
الآبرار ، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه . ولو
شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت ، ولكن موعذك
غداً بالمربد . » فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشاراً
يخسر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فإذا
رجل ينشد :

شهدت على الزيدي أن نساء

(وأخش بشار في تنمة البيت) فارتاع الشريف وسأل عمن
قال هذا البيت ف قيل له : « هذا لبشار فيك . » فرجع إلى
منزله من فوره ولم يدخل المربد حتى مات .

فانظر في بضاعة المربد هذه ، واعجب كيف ينقبض فيه
الآخيار ويتسلط الأشرار !

١٤ - معركة الرمّاز

نترك حلبة الشعراء إلى حلبة أخرى أطرف وأظرف ، لأن أصحابها ذوو أصول بدوية مقيمون في الحضر . تلك هي حلبة الرجاز أبي النجم العجلي وروبة وأبيه ، فننظر كيف يتنافس هؤلاء ، حتى إذا سكنت الريح بينهم أنت قبائلهم فأنارتها وكدرت ما بينهم حتى يعود الشر جذعة ^(١) كما كان بدأ ، ولعل المنظر الذي سنعرضه بعد قليل أروع منظر شهده المربد .

« قال فتیان من عجل لأبي النجم : هذا روبة بالمربد يجلس فيسمع الناس شعره ، وينشد الناس ويجتمع إليه فتیان من بني تميم ، فما يمنعك من ذلك ؟ » فقال : « أو تحبون هذا ؟ » قالوا : « نعم » قال فأتوني بعس ^(٢) من نبيذ فأتوه به فشرب ثم نهض وقال :

إذا اصطبحت أربعاً عرفتني ثم تجشمت الذي جشمتني
وأقبل إلى المجلس بالمربد فلما رآه روبة أعظمه وقام له عن

(١) أصل الجذع : ولد الشاة في السنة الثانية والأثني جذعة . وطفئت حرب بين قوم فقال أحدهم : إن شئتم أعدناها جذعة : يريد من أول
(٢) العسّ بالضم : القدح الكبير

مكانه وقال : « هذا رَجَّازُ العرب » وسأله أن ينشدهم فأنشدهم

أرجوزته التي أولها : الحمد لله الوهوب المجزل

وكان إذا أنشد أزيد ووحش^(١) بشيابه وكان من أحسن

الناس إنشاداً . فلما فرغ منها قال روبة : هذه أمّ الرجز .

إلا أن هذا الصفاء بين الرجازين واعتراف روبة وإقراره

بفضل أبي النجم ورضى هذا عن روبة لم يدم طويلاً ، فسرعان

ما أهاج الشرّ بينهما غواة الرجز ، فمالبثا أن فسد ما بينهما واشتدت

المنافسة إلى الغاية . وأنت إذا أردت أن تستمتع وتقتلى وتستفيد ،

فأثر خصومة أو منافسة ، أو هج شراً بين أدبيين أو شاعرين

أو عالمين ، تجد متعة وطرافة تنعم بهما من حيث شقي

الرجلان . هذا ما صنع قوم أبي النجم لما رأوا العجاج (أبا

روبة وقريع أبي النجم) خرج محتفلاً عليه جبة خز وعمامة

خز ، على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس

مجمعون فأنشدهم قوله : « قد جبر الدين الإلهُ خبير »

فذكر فيها ربيعة قوم أبي النجم وهجهم . فانطلق رجل من

الناس من بكر بن وائل يشتدّ عدواً إلى أبي النجم في بيته ، فقال

له يستحشه وهو يلهث : « أنت جالس وهذا العجاج يهجونا

(١) أي رمى بها .

بالمربد ، قد اجتمع عليه الناس ! ؟ » فتحرك أبو النجم وقال :
« صف لي حاله وزيه الذي هو فيه . » فوصف له ، فقال :
« ابغني جملاً طحاناً قد أكثر عليه من الهناء ^(١) جاء إليه بجمال
كله قروح وقطران ، فأخذ أبو النجم سراويل له فجعل إحدى
رجليه فيها واتزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خطامه إلى من
يقوده . فانطلق حتى أتى المربد وقد لحقه ما لا يحصى لما رأوا من
الهيئة الغريبة ، حتى دنا من العجاج في حلقة فقال لقائد جملة : اخلع
خطامه ، فخلعه وأخذ أبو النجم ينشد أرجوزته .
« تذكر القلب وجهلاً ما ذكر »

والعجاج على نافته يسمع ، ونفسه تحدثه بشريصبيه . وجعل جمل
أبي النجم يدنو من ناقة العجاج يتشممها ، والعجاج يتباعد عنه لئلا
يفسد ثيابه الخبز ورحله الثمين الثقيل ، بالقطرن . وما زال الجمل
يتقرب من الناقة والعجاج يتقهقر حتى وصل أبو النجم في إنشاده
إلى قوله :

« شيطانه أنثى وشيطاني ذكر »

فثارت عاصفة من الضحك والاستحسان من كل صوب وضح
بها المربد ، وتعلق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه .

(١) هنا الإبل : طلاها بالهناء وهو القطران يضعونه منها مواضع الجروح

١٥ - صحابي بكتاب نبوي

وهذا رجل من ضرب آخر قديم ، أفلت منذ قرن ، ليكون
في المربد كما تكون العاديّات في المعارض أو دور الآثار والمصانع :
روى الأصمعي عن يزيد بن عبد الله قال : « بينما نحن بهذا
المربد جلوس ، إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس فوقف علينا
فقلنا : « والله لكأنّ هذا الرجل ليس من أهل البلد . » قال
الأعرابي : « أجل والله . » وإذا معه قطعة من جراب أو أديم
فقال : « هذا كتاب كتبه لي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . »
فأخذناه فقرأناه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

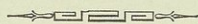
هذا كتاب من محمد رسول الله لبني زهير (حي من عكل) :
إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة
وفارقتم المشركين وأعطيتم الخمس من الغنائم وسهم النبي والصفى
فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله ، لكم ما للمسلمين وعليكم
ما عليهم .

فقال القوم وقد تكاثروا حوله : « حدّثنا أصالحك الله بما
سمعت من رسول الله . » قال : « سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « صوم شهر الصبر ، وصوم ثلاثة من كل شهر ، يذهبن وحرَّ الصدر . »

فقال له القوم : « أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ » فأثارة شكهم هذا وأغضبه فقال : « أراكم تخافون أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا حدثتكم حديثاً . » ثم أهوى إلى الصحيفة وانصاع^(١) مدبراً . »

قال المحدث : فقليل لي لما تولى : هذا النمر بن تولب العكلي^(٢) الشاعر !



(١) انصاع : انقتل راجعاً مسرعاً .

(٢) كان النمر يسمى الكيتس لحسن شعره . وهو جاهلي أدرك الإسلام وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
 إنا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضحراً فيها عسر
 نطعمها الشحم إذا قل الشجر والخيل في إطعامها اللحم ضرر
 عاش إلى أن خرف وأهترَ وكان هجيراً أن يقول : « أصبحوا
 الركب ، أغبقوا الركب » كعادته التي كان عليها . ومن شعره قوله :
 لا تغضبن على امرئ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب
 وإذا تصبك خصاصة فارجُ الغنى وإلى الذي يعطي الرغائب فارغب
 وقوله :

وأعلم أن ستدركني المنايا فإلاً أتبعها تتبعني
 أهتر : خرف . وهجيره : دأبه وعادته .

١٦ — من محن السياسة

أتركُ معركة الرّجّاز تلك ، وأترك أبا النّجم في زهو ظفّره
ونشوة انتصاره وقد سرّه أن يولّي العجاج مدحوراً مقهوراً ، وأن
يسري خبر ما صنع واخترع في أسواق البصرة كلّها سريان
الكهرباء ، وأجوز مشهد النمر بن تواب الأعرابي الغريب الذي ،
وأقف بالقارئ على مشهد آخر يبعث العبرة ، ويهيج من النفس
مكامن الثورة فيها والمقت للسياسة وما تجرّه من ويلات :

أوقع الخليفة أبو جعفر المنصور بالخراسانية إذ قتل يعسوبها أبا
مسلم ، وخلص من عمه الذي ناواه ، وبقي عليه أن يستأصل شأفة
العلويين الذين لهم في النفوس المكنة البعيدة والتجلّة والاحترام ؛
فشدّ عليهم وقيدهم وحبس منهم وقتل .

ونحن الذين رأينا بالمربد ، صورة من كل ما يجري فيه حينئذ من
دين وأدب ، ومعرضاً لعادات اجتماعية وأساليب تجارية ، سنرى
فيه أيضاً صدّى لما يتردّد في أمصار الإسلام إذ ذاك من شدة
على العلويين وتضييق وأخذ بالخنّاق .

في مربد البصرة سليمان بن علي من رؤوس بني العباس الذين
أوقعوا بالعلويين ، وحوله جماعة من أشراف الناس . فإنه لجالس

مجلسه ، وإذ بكبير العلويين إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب : شيخ عليه أمارات الحزن والمهابة والوقار معاً ، وإلى جنبه المفضل الضبي ، ويمشي مع الشيخ صبيان من ولده قد ضمهم إليه .

لمح إبراهيم مكان سليمان بن علي فوقف على رأسه وأمامه أطفاله ، وقال بصوت متهدج تخنقه العبرة وأشار إلى سليمان : « هؤلاء منا ونحن منهم ، إلا أنهم فعلوا بنا وصنعوا . . . » (وذكر كلاماً يعتدّ عليهم فيه بالإساءة) . . . « قال هذا فتحرّكت الرحمة في نفوس السامعين جميعاً لما آل إليه أمر بني علي ، وحدّثتهم أنفسهم بشيء على بني العباس وقسوتهم ، على أبناء عمومتهم . ثم توجه الرجل لوجهه وتمثل بهذه الأبيات :

مهلاً بني عمنا ظلامتنا	إنّ بنا سورة من القلق
لمثلكم تحمل السيوف ولا	تغمز أحسابنا من الرّق
إني لاني إذا انتميت إلى	عزّ عزيز ومعشر صدّق
بيض سباط كأنّ أعينهم	تكحل يوم الهياج بالعلق ^(١)

فقال له المفضل وهو يتبعه : ما أفحل هذه الأبيات فلن هي ؟

(١) سورة الغضب : وثوبه وحدّته . والغمز : العيب . السباط : الحسان القد والاستواء . والعلق : الدم .

قال : « لضرار بن الخطاب الفهري قالها يوم الخندق وتمثل بها علي
ابن أبي طالب يوم صفين والحسين بن علي يوم قتل ، وزيد بن علي . »
ثم لحق القوم فلم يمض قليل حتى أتاه نعي أخيه محمد قتله رجال
أبي جعفر ، فتمثل إبراهيم :

نبئت أن بني ربيعة أجمعوا أمراً خلاهم لتقتل خالدا
إن يقتلوني لا نصب أرماعهم نأري ويسعى القوم سعياً جاهدا
أرمي الطريق وإن صددت بضعة وأنزل البطل الكمي الجاحدا
فسأله المفضل لمن هذه الأبيات ؟ فقال : للأحوص بن جعفر بن
كلاب تمثل بها يوم شعب جبلة . ثم لم يلبث أن أقبلت عساكر
أبي جعفر واقتتل مع أصحاب إبراهيم هذا . وقتل من الفريقين
من قتل وكاد يكون الظفر لإبراهيم ^(١) .

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٠٩ :

وتتمة رواية المفضل هذه : [فلما رأى البياض بقل والسواد يكثر
قال لي : « يا مفضل حرّ كني بشي يهون علي بعض ما أرى . » فأشدته :
ألا أيها الناهي فزارة بعدما أجدت بسير إنما أنت حالم
أبى كل حر أن يبيت بوتره ويمنع منه النوم إذ أنت نائم
أقول لفتيان العشي تروّحوا على الجرد في أفواههن الشكائم
قفوا وقفه : من يحيي لم يخز بعدها ومن يخترم لا تتبعه اللوائم
وهل أنت - إن باعدت نفسك منهم لتسلم - فيما بعد ذلك سالم =

١٧ - استعراض الأثم

إذا كانت المعارض اليوم تزخر بالناس من مختلف الأمم فإن المربد اقتصر على العرب والفرس فقط . وكان مضى على هذين الجنسين أكثر من قرن وهما يتمازجان دماً وطبائع وعادات ، حتى تعلم كثير من الفرس النازلين في بقاع أغلب أهلها عرب ، اللغة العربية وثقفوها وأحسنوا التكلم بها نظماً ونثراً . ولم يخل المربد من هذه الطبقة الجديدة ، فقد كانت تعشاه وتضيف إلى ما به من ألوان ، لوناً حديثاً لا عهد للناس بمثله .

= فقال لي : « أعد » فتنهت وندمت ، فقلت : « أو غير ذلك ؟ » فقال : « لا ، أعدها ، فأعدتها ، فتطال على سرجه ، وتمطى في ركابه حتى خلته قد قطعها ، ثم حمل فطعن رجلاً وطعنه آخر ، فقلت : « أتباشر الحرب بنفسك والعسكر منوط بك ؟ » فقال : « إليك عني يا أخا بني ضبة ، كأن عوبقاً أخا بني فزارة نظر في يومنا هذا حيث يقول :
ألمت خُناس وإِمامها أحاديث نفس وأسقامها
يمانية من بني مالك تطاول في المجد أعمامها
وإن لنا أصل جرثومة ترد الحوادث أيامها
يرد الكتيبة مفولة بها أفنها وبها ذامها
ثم حمل حملة جاءه فيها سهم عائر ، فشغله عني وكان آخر العهد به . [اه
ويختارم : يمت شاباً . والأفن : ضعف العقل . والدام : الذم .

وقد رُوي أَنَّ أديب العرب وفارس : عبد الله ابن المقفع ، دعا
جماعة بالمربد ناحية وطرح عليهم هذا السؤال : « أي الأمم
أعقل ؟ » فكانت الأجوبة مختلفة . واستعرض المجيبون أحوال
من يعرفون من الأمم ؛ فلا علينا وقد شهدنا مشاهد النضال في
المربد من حروب وهجاء ، أَنَّ نشهد مجلساً علمياً هادئاً يضم نخبة
من ذوي العقول الراجحة والآراء الحصيفة :

قال شبيب بن شيبه أحد بلغاء العرب وجليس الملوك :
« كنا وقوفاً بالمربد ، وكان المربد مألّف الأشراف ، إذ
أقبل ابن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام ، فردّ علينا السلام ثم
قال : « لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ،
ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تهيد الأرض ، وأرحتم
دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما
قضى الله لكم من شيء تنالوه . »

فقبلنا وملنا . ولما استقرّ بنا المكان قال لنا :

« أي الأمم أعقل ؟ ! »

فنظر بعضنا إلى بعض ! فقلنا لعله أراد أصله من فارس فقلنا :

« فارس . »

فقال : « ليسوا بذلك ؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ،

ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم
عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم
في نفوسهم . »

قلنا : فالروم ، قال أصحاب صنعة . قلنا : فالصين ، قال
أصحاب طُرْفَة . قلنا : فالهند ، قال أصحاب فلسفة . قلنا :
فالسودان . قال : شر خلق الله . قلنا : فالترك . قال : كلاب
مختلصة . قلنا : فالخزر . قال : بقر سائمة . قلنا : فقل . قال :
العرب . . فضحكنا . .

فقال : أما إني ما أردت موافقتكم ولكن إذ فاتني حظي
من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة . إن العرب حكمت على
غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم وسكان
شعر وأدم . يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بجهوده ، ويشارك في
ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بفعله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير
حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم
أنفسهم ورفعتهم همهم . وأعلمتهم قلوبهم وألسنتهم . فلم يزل حباء
الله فيهم ، وحبائهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم
أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه
وخلافته بهم إلى الحشر ، الخير فيهم ولهم . قال سبحانه :

« إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ » . الأعراف ، الآية ١٢٧ .

فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم ، ودفع الحق
باللسان أكبت للجنان .

١٨ - اعلان مجمل

وإليك بعد أن استمتعت بعلم ابن المقفع وأدبه ، صراعاً يخيل
إليك إذ تقرؤه أنه كان في الأولبياد ، لأحد أبطال يونان ، أو أنه
جرى على غرار ما يجري في بلاد الإسبان ، على يد مصارعى الثيران ،
بطله فارس عربي شجاع شاعر شديد البأس والبطش ، على خلاف
ما تعهد في الشعراء . هو هلال بن الأسعر أحد الجبارين العمالقة
الضخام ، كأنه من قوم عاد . كان هلال هذا أعظم الناس غناء
في حرب ، يرد مع الإبل فيأكل كل ما وجد عند أهله ثم يرجع
لا يذوق فيما بين ذلك طعاماً ولا شراباً . عُمر طويلاً ومات بعد
بلايا عظام مرت على رأسه .

« كان يوماً في إبل له وذلك عند الظهيرة في يوم شديد وقع
الشمس ، محتدم الهاجرة ، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كسائه
ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس ، فبينما هو كذلك

إِذْ مرَّ به رجلان : أحدهما من بني نهشل والثاني من بني فُتَيْمٍ ، كُنَّا
أَشَدَّ تَمِيمِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ بَطْشًا ، يُقالُ لأحدهما الهَيَّاجُ ، وقد
أَقْبَلَا مِنَ الْبَحْرَيْنِ وَمَعَهُمَا أَنْوَاطٌ^(١) مِنْ تَمَرٍ هَجَرَ ، وَكانَ هلال
يُنَاحِيهِ الصَّعَابُ ، فلما انْتَهيا إِلى الإِبِلِ ، ولا يَعْرِفانَ هلالًا بِوَجْهِهِ
ولا يَعْرِفانَ أَنَّ الإِبِلَ لَهُ ، ناديا : ياراعي أَعْنَدَكَ شَرابَ تَسْقِينا ؟
وَهُما يَظَنّانِهِ عِبدًا لِبَعْضِهِمْ . فناداهما هلال ورأسه تحت كِسائِهِ :
« عَلَيْكَ النّاقَةُ الَّتِي صَفَتْها كِذا فِي مَوْضِعٍ كِذا فَأُنِخّاها فَإِنْ عَلَيْها
وَطَبِيبٌ مِنْ لَبَنٍ ، فَاشْرَبْ مِنْهُما ما بَدَا لَكَما » . فقال أحدهما : « وَيحكُ ،
انْهَضْ يا غلام فَاتْ بِذلِكَ اللَّبَنُ » . فقال لهما : « إِنْ تَكُ لَكَما حَاجَةٌ
خِستائِيانِها فَتَجِدانِ الْوَطِيبِينَ فَتَشْرَبانِ » فقال أحدهما : « إِنَّكَ يا بَنِ
الْأَخْناءِ لَغَلِيطُ الْكَلَامِ ، قُمْ فَاسْقِنَا » . ثم دنا مِنْ هلال وَهُوَ عَلى تَلْكَ
الْحَالِ . فقال لهما هلال : « أَرَأَيْكُمَا وَاللّهِ سَتَلْقِيانِ هَوانًا وَصِغارًا »
فَسَمِعَا ذلِكَ مِنْهُ فَدَنا أَحدهما فَأَهْوَى لَهُ ضَرْبًا بِالسَّوْطِ عَلى عِجْزِهِ
وَهُوَ مُضْطَجِعٌ ، فَتَنَاولَ هلال يَدَهُ فَاجْتَذَبَهُ إِليه وَرَمَاهُ تَحْتَ فِخْذِهِ
ثُمَّ ضَغَطَهُ ضَغْطَةً ، فَنادى صَاحِبَهُ : وَيحكُ أَغْثَنِي قَدْ قَتَلَنِي . فدنا
صَاحِبُهُ مِنْهُ ، فَتَنَاولَهُ هلال أَيْضًا فَاجْتَذَبَهُ فَرَمَى بِهِ تَحْتَ فِخْذِهِ الأُخْرى .
ثُمَّ أَخَذَ بَرَقابِهِما فَجَعَلَ يَصْكُ بَرؤُوسَهُما بَعْضًا بَعْضًا ، لا يَسْتَطِيعانِ

(١) النوط : الجلة الصغيرة فيها تمر والجمع أنواط

أن يمتنعاً منه . فقال أحدهما : « كن هلالاً ولا نبالي ما صنعت . »
 فقال لهما : « أنا والله هلال ، ولا الله لا تفلتان مني حتى تعطيني
 عهداً وميثاقاً لا تخيسان به : لتأتين المربد إذا قدمت البصرة ثم
 لتناديان بأعلى أصواتكما بما كان مني ومنكما . » فعاهداه وأعطياه
 نوطاً من التمر الذي معهما ، وقدمتا البصرة فأتيا المربد فناديا بما
 كان منه ومنهما . وكان إعلان طنان دوى في فضاء المربد .
 وهكذا جمع المربد بطولة القوة والصراع والجبروت البدني ،
 إلى جانب بطولة الشعر والأدب والخطابة ، فكان معرضاً تام الأداة
 وافي الفروع . وتم للأسواق العرب به خاتمة المزايا والكمال ، وأصبح
 في وسع من شاء الاستمتاع بأكثر عادات العرب وأخلاقهم
 ودينهم وسياساتهم وحرهم وأديهم وسباقهم وصراعهم ، أن يفوز
 بأمنيته من أقصر طريق ، إذا استعرض ما كانت عليه أسواقهم في
 الجاهلية والاسلام .



استدراكات

- ١ -

قرأ فريق من أهل الفضل ، مقدمة الكتاب عقب طبعها ،
قرأوا من الحق الواجب علينا ، وقد عرضنا لذكر « معرض
دمشق وسوقها » وأثينا على ما فيه من كل نفيس معجب ، أن
تثبت ما يلي :

أسأت إدارة هذا المعرض إلى الأمة وكرامتها كل الإساءة :
في إباحتها القمار والخمر ، وفي غضبها الطرف عن مفسد كثيرة
نشأت عن اختلاط الرجال بالنساء ، وفي إحيائها الليالي الساهرة
تقيم فيهن الحفلات الراقصة ، يتصدرها أشخاص رسميون ، بينا
كان العرب في فلسطين يخوضون الدماء ويسلط على رؤوسهم
شواظ وقذائف وحمم ، وهم يكافحون ويجالدون ويصابرون ، عدوين
الدين ، ويتعرضون لنار جيشين قويين . فليتنا إذ لم نقم بحق
نجدة إخواننا ، راعينا المروءة والذوق على الأقل ، فنزّهنّا معرضنا
عن المظاهر المزرية .

ولئن كان المعرض قد مثل الشام بمصنوعاته ونفائسه التي كانت بحق مفخرة من أعظم مفاخر هذه الأمة المجيدة ، إن إدارته لم تكن — فيما أباحت — تمثل البلاد بشيء ؛ فقد شذت عن كل إدارات المعارض التي سبقتها ، إذ خصصت هذه أياماً للنساء وأياماً للرجال ، ولم تندفع في سبيل التقليد السخيف اندفاع المعرض الأخير ، فكانت بذلك أصدق خبراً عن البلاد التي أقامتها .

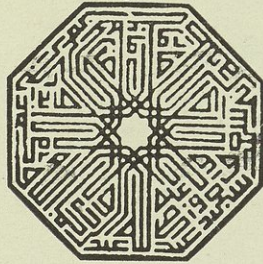
ولكل أمة تقاليد وأخلاق وشعور ، لا تقوم لها قائمة ولا يحترم لها مكانة ، إلا إذا تمسكت بها تمسك الغريق بجبال النجاة ، وأيا امرئ خرج على شيء منها فقد خرج على أمته وبلاده .

نقول هذا ونحن لا ينقضي عجبنا من أن تصدر تلك الكبراء عن معرض دمشق ، بينما مديره الذي أطلقت يده في إدارته وموظفيه ، رجل معروف بمثانة الخلق وصحة المبدأ ، والصلابة في تطبيقه .

ولكن يظهر أن الشأن ليس — دائماً — في إحسان اختيار الرأس . إن الناس كانوا إذا قروءوا في الصحف أخبار فلسطين وما يدوي في أجوائها من رصاص وبارود . . . قطع عليهم قراءتهم أصوات الأسهم النارية تطلق في جوّ المعرض ابتهاجاً بغير شيء ، فكان الألم يرسم علامته على وجوه أكثر الشاميين . وكان

على الصحف التي تمثل الرأي العام ، وعلى الطبقات المثقفة
وأهل الحل والعقد أن ينكروا ما يثلم كرامة البلد ويمس مروءته ،
لكنه لم يرتفع في استنكار ذلك — مع الأسف — صوت ، إلا
صوت بعض الجمعيات الدينية ، التي استجيت لدمشق بلد الفضيلة أن
تؤذى في سمعتها .

هذه كلمة نقولها للحق والتاريخ وقد مضى على انقضاء المعرض
ثمانية أشهر .



هناك أشياء جرت سهواً على غير الترتيب في الأصل ، فرائنا
أن ننبه عليها ، وإن كانت ثانوية كمالية :

١ — والفقرة التي بين (ص ١٩ س ٣) و (ص ٢٠ س ٧)
كان يحسن أن تكون بعد (ص ٢١ س ٢٥) ، وكذلك الحاشية
(٢) في ص ٤٤ محلها في (ص ٤٥) حيث أُشير إليها في
(س ٧) برقم (٣) خطأ .

٢ — والفقرة التي بين (ص ٤٠ س ١٥) و (ص ٤١ س ٦)
أشير إليها في الأصل لتجعل حاشية ، فأثبتها الطابع في صلب البحث
٣ — وحرب الفجار متقدمة في الزمن على حلف الفضول
نخالف بينهما الطابع . كما فعل في سوقى بصرى ودير أيوب ،
فإن الثانية هي السابقة .

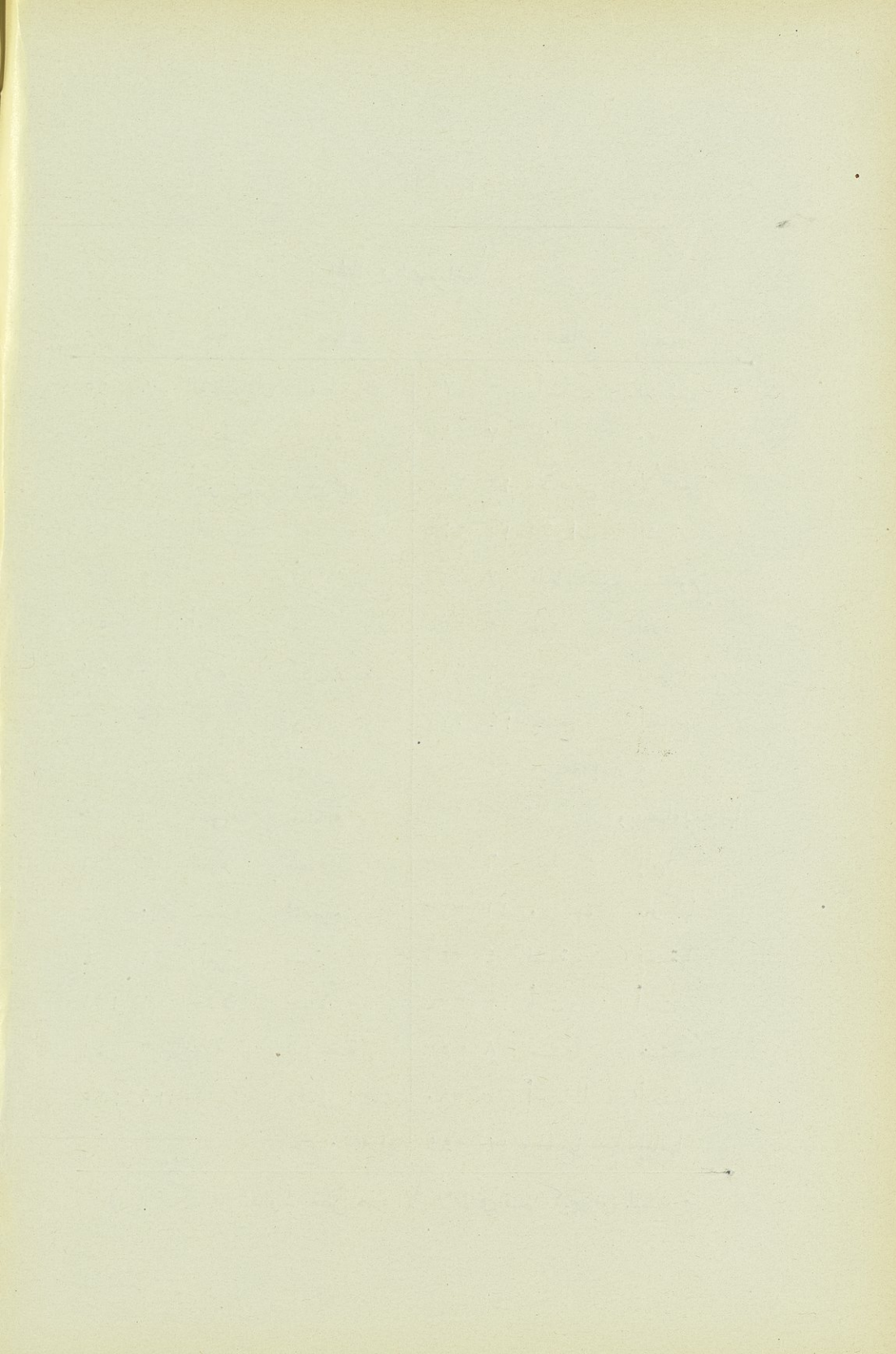
٤ — سها الطابع عن إثبات الرقم (٢ : ١٦٦) إلى جانب
(كتاب الأزمنة والأمكنة) في حواشي الصفحات : ٦٦ ،
٦٧ ، ٦٨ كما سها عن إثبات بعض تفاسير لكلمات غريبة .

لم يسلم الكتاب على رغم العناية البالغة ، من إسقاط بعض
نقط وحركات وحروف يفتن لها القارئ لأول نظرة ، وقد
أثبتنا جريدة في المهم منها فيما يلي :

(١)
الخطأ والصواب

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
١٥	٩	العُظيمتان	العُظميان	١٧٩	٢	أَنشئت	أَنشئت
١٨	٦	دربة	دراية	١٨٧	٣	٣٠	
٣٣	١٣	أَعْرَضَ	أَعْرَضَ	٢١١	١٢	الأصعي	الأصمعي
٤٥	١٤	الضريبة	لضريبة	٢١٢	١١	الشراب	الشراب
٤٩	٩	مر	أمر	٢٢٦	٧	فإننا نستطيع	نستطيع
٥٣	١١	أو	و	٢٣٤	٣	نفوذ	نفوذ
٥٢	١٠	لأنه	كان لأنه	٢٦٠	٦	بنمي	بنمي
٦٣	١٣	كما	وكما	٢٧٦	١٤	المديح	المديح
٧١	٤	يُضِل	يُضِل	٣٠١	١١	وبييعه ويشتريه	
٧٥	٤	مبثوثة	مبثوثة			وبييعها ويشترىها	
١١٦	٣	للغوه	بالغوه	٣١٨	٦	ليها	إليها
١٢٠	١٠	تنضرم	تنضرم	٣٢٣	١١	ملوكهم	ملوكها
١٣٤	٦	وأمنّ	ومنّ	٣٢٦	٤	فسهتهن	فسهتها
١٣٩	١	جدلاً	جدلاً	٣٣٤	١٣	أبت	أبيت
١٤١	١٣	عتبة	ابن عتبة	٣٥٧	٨	مستجاً	مستجماً
١٧٥	١٩	وقال :	وقال : لك	٣٨٠	٣	أحسابنا	أحسابها
			حجج . « اه	٣٩٩	١٤	والمها	والمأما

(١) تمكنا من تدارك بعض هذه الأغلط في قسم كبير من النسخ .



فهارس الكتاب :

- | | | |
|-----|-------------------------|---|
| ١ - | فهرس الأعلام | |
| ٢ - | الأماكن | = |
| ٣ - | الأشر والأهم وما بينهما | = |
| ٤ - | المصادر | = |
| ٥ - | الأشعار | = |
| ٦ - | الموضوعات | = |

ملحظة

لا عبارة لهذه الألفاظ في ترتيب الجداول:

أل	ابن
أبو	بنو
أم	آل

فهرس الأعلام

أ

الأحوص بن جعفر بن كلاب ٣٩٨	آدم (عليه السلام) ١٢٥
أحيحة بن الجلاح ٨٨	إبراهيم (عليه السلام) ٦٣ ٦٢
الأخطل ٣٦٦ ٣٦٨ ٣٦٩	١٢٤
٣٨٣ ٣٨٢	إبراهيم بن عبد الله بن حسن ٣٩٧
الأخفش ٣٧٠	٣٩٨
الأزرقى (صاحب كتاب أخبار مكة)	إبراهيم الموصلي ٣٣٠
٢٩٦ ٢٥١ ٢٢٧ ٢٢٤ ٦٥	أبرهة ٩٠
٢٩٨	إبليس ٣٧٤ — ٣٧٦
إساف (صنم) ١٠ إساف بن يعلى ٧٠	ابن إبليس ٢٧٦
ابن اسحق ١٤٦	أبين ٢٣٢
أسد بن جابر ٢٢٣	أبي (القارىء الصحابي) ١٧٥
أسد بن هاشم بن عبد مناف ١٢٥	ابن الأثير (صاحب النهاية) ٣٩ ٤١
أسطرابون ١٧	أحمد أمين ٢٩٥
الإسكندر ١٦	أحمد حسن الزيات ٢٩٤
الإسكندري (الشيخ أحمد) ٢٩٤	أحمد بن موسى ٢٣٦
أسماء المرية ٢٥٦	الأحنف بن قيس ٣٤٥ ٣٤٦
الأشتر ٢٦	
الأشعث بن قيس ١٧٠ ٢٣٩	
الأصبغ بن عمرو الكلي ١٩٧	

امية الأصغر ٢٩٠	الإصطخري (صاحب كتاب مسالك
امية بن أبي الصلت ١١٠ ١١٥	المالك) ٢١٦ ٢٢٥ ٢٣٠ ٣٤٧
١٧١	٣٤٨
امية بن عبد شمس ٨٥	الأصفهاني (انظر أيضاً : أبو الفرج
أنيس (سائس فيل أبرهة) ٩٠	الأصفهاني) ١٤٦ ١٥٨ ١٧٩
أوس بن مغراء ٣٨١ — ٣٨٣	٣٠٠ ٣٨٩
إياس بن قبيصة الطائي ٣٣٣ ٣٣٤	الأصمعي ٢٢ ٢١١ ٢٨١ ٣٦٧
أيوب (عليه السلام) ٣١٩	٣٦٩ ٣٩٤
	ابن الأعرابي ٣٩
ب	الأعشى ١٦٩ ٢٠٤ ٢٧٥ —
	٢٧٨ ٣٢٨
باذان ٢٠٥ ٢٠٦	أعشى همدان ٣٣٩
بثينة ٢٠٩	الأفروع بن حابس ٢٤٤ ٢٥٢
بجزة بن قيس القشيري ٢٨٧ — ٢٨٩	الأفيسر (الشاعر) ٣٣٧
بحيرى الراهب ٣١٤	أكيدر (دومة) ١٦٦ ١٨٧
البخاري (صاحب الصحيح) ٤٠	١٨٨ ١٩٥ — ١٩٧ ١٩٩ —
٤٥ ١٧١ ١٧٢ ١٧٥	٢٠١ ٢٣٤
بختنصر ٣٢٥ ٣٢٦	الألوسي (صاحب كتاب بلوغ الأدب)
أبو براء (عامر بن مالك سيد قيس) ١٥٢	٢١ ٣٤ ٣٥ ١٨٠ ٢٠٠
البراض بن قيس الضمري ١٤٨ — ١٥٢	٢٢٠ ٢٤٧ ٢٩٤
برة بنت مر ٧٨	أبو أمامة التميمي ١٧٥
بسر بن أوطاة ٣٨١	امية بن أسكر الكناني ١٥٧ ٢٥٤
بشار بن برد ٣٦٩ ٣٩٠	٢٥٥

ت

تبع ٣٢٦
تماضر بنت الإصبع ١٩٧
أبو تمام ١٢٠
تميم بن مر ٧٨

ث

الثعالبي (صاحب كتاب ثمار القلوب)
٢٣١ ١٢٤ ١٢٢ ٢٢

ج

جابر (الصحابي) ٤٣
الجاحظ ٢٧٤ ١٢٢٠ ١٢٠ ٧٩
٣٧٠ ٣٦٧ ٣٥٥ ٣٥٣—
جارية بن سليط ٢٨٣
جبير بن مطعم ٦٤
ابن جعدان (انظر أيضاً: عبد الله بن
جعدان) ١٥١ ١٤٤ ٢٢
٣٥١ ١٧٠ ١٥٢
جذل الطعان ١٥٧
جوير بن الخطفي ٣١٠ ٣٠٩ ٧٨
٣٧٣ ٣٦٩٦ ٣٦٨ ٣٦٦ ٣٦٠
٣٨٨—٣٨٥ ٣٨٠ — ٣٧٧ ٣٧٤

أبو بصير (انظر أيضاً الأعشى) ٢٧٥
ابن بطوطة ٣٥٠
البعيث ٣٦٦
البغدادي (صاحب خزائن الأدب) ١٨٠
بكر ٣٢٠
البكري (صاحب معجم ما استعجم)
٢٤٩

بكر بن خازجة ٣٢٩
أبو بكر الصديق (انظر أيضاً: الصديق)
١١١ ٩٧ ٩٣ ٦٠ ٢٦ ٢٥
٢٢٨ ٢٢٦

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث
ابن هشام ١٥٨
أبو بكر الهمداني (انظر أيضاً :
الهمداني) ٣٥١
البلاذري (صاحب كتاب فتوح البلدان)
٤٩ ٤٨

بلال بن أبي بودة ٣٤٨ ٣٤٧
بلال الصحابي ٢٩٦
بورتر ٣١٣
ابن يدره ٢٨٢

الحارث بن عامر ٩٢	جرير بن عبد الله البجلي ٢٤٤
الحارث بن عمير ٣١٥	جعفر بن سليمان الهاشمي ٣٥٨
الحجاج بن يوسف الثقفي ٣٠٩ ٣٤٧	أبو جعفر المنصور ٣٩٦ ٣٩٨
٣٥٩ ٣٤٩	الجلندي ١٨٥ ١٨٧ ٢٢٧ ٢٢٩
ابن حجر (المحدث) ٥٤	٢٣٤
ابن أبي الحديد (شارح نهج البلاغة)	جميل بن معمر الشاعر ٢٠٩ ٢٧٩
٢٧ ٨٦ ٨٧ ١٢٧	جنديل (ابن راعي الإبل) ٣٨٦ ٣٨٥
حذيفة بن بدر الفزاري ٣٠١	أبو جنديل (انظر أيضاً: راعي الإبل)
حرام بن جابر ٢٢٣	٣٨٦ ٣٨٥
حرب بن أمية ١٤٩ ١٥١ ١٥٢ ١٥٤	ابن جني ٢٩٦
١٥٦ ١٥٩ ٢٤٦ ٢٧٢	أبو جهضم (عباد بن حصين الحبطي)
أبو حرب بن أمية ٢٤٦	٣٧٨
حسان بن ثابت ١٥٨ ١٥٩ ٢٧٥	
٢٧٦	ع
حسان بن جبلة الخير ٣٣٣	أبو حاتم ٢١١
أبو الحسن البكري ٢٣٩	حاتم بن عبد الله الطائي ٣٣٢ - ٢٣٥
حسن حبشي (انظر أيضاً: محمد حسن حبشي) ١٨	حارث ؟ ٢٦٧
حسن حسني عبد الوهاب ٣٥٠	الحارث بن حلزة ٢٩٩
الحسن بن عادية ٢١٧	الحارث بن ظالم ٢٦٣ ٢٦٤
الحسين بن علي بن أبي طالب ١٤٠	الحارث بن عبد الله الخزومي (انظرها : القباع) ٣٧٣ ٣٧٤
١٤١ ٣٩٨	الحارث بن قيس ٩٣
الحصين ؟ ٢٦٧	الحارث بن كدة الثقفي ١٦٠

الحفساء ٢٥٤ ٢٥٨ - ٢٦٠ ٢٧٥

٢٧٨

خوقاء (صاحبة ذي الرمة) ٣٨٣ ٣٨٤

ابن الخس التغلبي ٢٦٣

خلف الأحمر ٢١١ ٢١٢

الخليل بن أحمد ٣٥٣ ٣٥٥

خيري بن عبادة ٢٠٧

خير الدين الزركلي ٢٤٨

د

ابن دارة ٢٨٢

داود (عليه السلام) ٣١٨

داود بن عيسى بن موسى ٢٢٣ ٢٢٤

دحية بن خليفة الكلبي ٢٥

ابن دريد ٤١

دريد بن الصمة ٢٧٠

دوسو ٣١٩

ابن الديان ٢٥٤

ذ

أبو ذؤيب الهذلي ٢٠٤ ٢٩١ ٢٩٩

٣١٧ ٣٢١

ذو الرمة ٣٦٠ ٣٦٦ ٣٨٣ ٣٨٤

الحصين بن الحمام ٣١٨

ابن الحضرمي ٥٩ ٦٠ ١١٤

الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد

شمس ٣٢٣ ٣٣٢

حكيم بن جبلة ٣٦٤ ٣٦٥

حمام (مولى بأهله) ٣٧٥

حنين الحيري ٣٣٩

حوثرة ٢٩٠

ابن حوقل ١١١

أبو حية النميري ٣٣٠

خ

الخازن (المفسر) ٥٠ ٥٢ ٥٣ ١٧٥

خالد ؟ ٣٩٨

خالد بن أوطاة الكلبي ٢٤٤

خالد بن جعفر بن كلاب ٢٦٢ ٢٦٣

خالد بن صفوان ٣٥٤ ٣٥٥

خالد بن الوليد ٤٩ ٥٢ ٥٣ ٩٣

١٩٧ ١٩٩ ٣١٥

خداش بن زهير ١٥٣ - ١٥٥ ٣٠١

خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) ١١١

١١٢ ٢٢٢ ٢٢٣

خناس ؟ ٣٩٩

٢٨٥ — ٢٨٩ ٢٩٤ ٣٠٣

٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٩ ٣١٤ ٣١٥

٣٢٧ ٣٦٢ ٣٨١ ٣٩٤ ٣٩٥

رشدي (انظر أيضاً : محمد رشدي)
٢٥٠

الرشيد ٢٢٠ ٢٨١ ٣٣٠

رياح بن الأسل الغنوي ٢٦١ ٢٦٢

رياح بن عمرو بن ربيعة بن عقيل ٢٦٥
ريطة ١٥٨

رينولد نيكلسون (انظر أيضاً :
نيكلسون) ٩٠

ز

ابن الزبيري (انظر أيضاً : عبد الله بن

الزبيري) ٨٤ ١٠٦ ١٥٨ ١٥٩

الزبيدي (عاش في الجاهلية) ١٤٠

الزبيدي (العالم باللغة) ٢٩٩

الزبير بن العوام ١١٨ ١٥٥ ٣٦٢
٣٦٣

ابن الزبير بن العوام (أنظر أيضاً : عبد

الله بن الزبير) ١٤١ — ١٤٣ ٣٦٢

زرعة بن عمرو بن خويلد ٢٥٧

الذهبي (المؤرخ) ١١٩

أبورافع الخبيري ١٩ ٣٠٧

راعي الإبل (انظر : أيضاً أبو جندل)

٣٦٠ ٣٦٦ ٣٦٨ ٣٨٥ — ٣٨٨

روثة بن العجاج ٣٦٠ ٣٦٦ ٣٩١
٣٩٢

ريب (اسم حمل) ٢١٣

أبو ربيعة ٢٦٥

ربيعة بن حذار ٢٥٧

ربيعة بن عمرو (حوثة) ٢٩٠

أبو ربيعة بن المغيرة ١٠٥ ١٥٨
٢٤٦

رسول الله ﷺ (انظر أيضاً : النبي)

ومحمد) ٢٧ ٣٧ ٣٩ ٤٣ — ٤٥ ٤٨

٥١ ٥٣ ٥٤ ٥٦ ٥٨ ٦٤ ٩٠

٩١ ٩٥ ١٠٣ ١٠٨ ١١٢

١١٣ ١١٧ ١١٨ ١٢٢

١٣٨ — ١٤٠ ١٤٦ ١٤٧

١٥٥ ١٥٨ ١٥٩ ١٧١ ١٧٢

١٧٥ ١٩٦ — ١٩٨ ٢١٧

٢٢٢ ٢٢٦ ٢٣٩ ٢٧٤

سعيد بن سعد بن سهم ١٥٨	الزرقاني (شارح المواهب) ٧١
أبو سفانة (انظر أيضاً : حاتم) ٣٣٤	١٩٨ ١١٦
أبو سفيان بن أمية ١٥٦ ١٥٩ ٢٤٦	زهير بن جذيمة ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٦
سفيان بن حرب ٢٤٦	زهير بن ربيعة (أبو خراش) ١٦٠
أبو سفيان بن حرب ٩٢ ٩٧ ١٠٠ ١٠٧	زياد ٩٧ ٣٤٧ ٣٤٩ ٣٧٢ - ٣٧٤
١٠٨ ١١٤ ١١٦ ١٥٢ ١٥٦	ابن زياد (انظر أيضاً : عبيد الله بن زياد)
ابن سلام ١٠٥ ١٥٥	٣٤٧
سلكان بن سلامة ٥٠	زيد بن علي ٣٩٨
سلمى بنت عمرو بن زيد ٨٨	
سليمان (عليه السلام) ١٧ ٢٠٣	
سليمان بن علي ٣٩٦ ٣٩٧	
سليمي ؟ ٢١٦	
سمير بن سلمة القشيري ٢٦٥ ٢٦٦	
سنان ؟ ٢٦٧	
السندوبي (طابع البيان والتبيين) ٣٦٧	
سواد بن قارب ٣٢٨	
سويد بن عدي ١٧٠	
سويد بن قيس (صحابي) ٢١٤	
السهيلي ٧٧	
ابن سيده ١٦٥	
سيف بن ذي يزن ٩١	

	س (
	أم سالم (انظر أيضاً خرفاء) ٣٨٤
	ستافسكي ٩٧
	سجاح (المتنبي) ٣٠٨
	سدوم ٢٨٢
	ابن سعد (صاحب الطبقات الكبرى)
	١٩ ٢٢ ٨٣ ٨٥ ٨٧ ١١٧
	١١٨ ١٢٣ ١٢٨ ١٣٢ ١٣٩
	١٤٦ ١٧٩ ١٩٥
	سعد بن أبي وقاص ١٠٦ ١١٩
	سعد بن حارثة بن لام ٣٣٢ ٣٣٥
	سعد بن زيد مناة ٢٥١
	سعد بن الربيع الأنصاري ١١٧
	أبو سعيد الخدري ١٧١

ش

شأس بن زهير العبسي ٢٦١ ٢٦٢

شبيب بن شيبة ٤٠٠

الشاخ ٢٨٤

الشنفري ٢٢٣

شيبة بن هاشم (انظر أيضاً: عبدالمطلب)

٨٨ ٨٩

شيبة بن ربيعة ٢٥٨ — ٢٦٠

شيخ موهو ٣٠ ٢٨١ ٢٨٢

الشيخم بن الحارث الغساني ٣٢٨

ص

صاحب الرسالة (انظر : رسول الله) ١٣٦

ابن صخر ١٦٠

صخر بن عمرو بن الشريد ٢٥٦ ٢٥٨ —

٢٦٠ ٢٧٥ ٢٧٨ ٢٧٩

الصدىق (انظر أيضاً : أبو بكر الصديق)

١٩٩

صعصعة بن صوحان ٣٢

صفوان بن أمية ٩٣ ١٧٠

صلصل بن أوس ٦٧

الصمة بن عبد الله القشيري ٣١٦

ض

ضباعة بنت عامر بن قوط ٢٨٨

ضرار بن الخطاب الفهري ٣٩٨

ضمضم بن عمرو الغفاري ١١٤

ط

أبو طالب بن عبد المطلب ١١١ ١١٢

الطبري (المؤرخ المفسر) ٥٢ ٥٤

١٠٦ ١٧٩ ١٩٩ ٣٢٠ ٣٢٤

٣٢٥ ٢٢٨ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٦

طخيم الأسدي ٣٣٦

طريف بن تميم العنبري ٢٦٤ ٢٦٥

طلحة ٣٦٢

ابن طلحة (محمد) ٣٦٢

ع

عائشة (أم المؤمنين) ٤٥ ١٥٨

٣٦٢ — ٣٦٥ ٣٦٨

عاتكة بنت عبد المطلب ١٦١

العاص بن وائل السهجي ١٣٨

عاصم بن عمرو ٣٢٥

عاصم بن جوين ٢٨٤ ٣٣٢ ٣٣٤

٢٩٥ ٢٩٠ ١٣٥	عاصر بن الطفيل ٢٥٥ ٢٥٤
عبد العزيز السكلاوي ٣٠٩	عاصر بن الطرب العدواني ٢٥١ ١٦٩
عبد الله بن أبي بن سلول ٤٥	عاصر بن مالك (انظر: أبو براء) ٥١
عبد الله بن جحش ١١٣ ٥٩ ٥٨	عباد بن حصين الحبطي (أبو جهضم) ٣٧٨
عبد الله بن جدعان (انظر أيضاً: ابن جدعان) ١١٥ ١١٠ ١٠٩	أبو العباس ٣٤٩
١٥٤ ١٥١ ١٤٤ ١٣٩ ١٣٨	ابن عباس ١٢٤ ٧٨ ٧٦ ٤٣
٢٥٠	١٧٥ ١٣٤ ١٢٨
عبد الله بن جعدة ٢٦٦ ٢٦٥	العباس بن عبد المطلب ٥٣ ٥٢ ٤٩
عبد الله بن الزبيري (انظر أيضاً: ابن الزبيري) ١٥٧	١٠٩ ٩٤ ٩٢ ٩١ ٨٩ ٥٦
عبد الله بن زبيدة ٢٨٢	١١٧ ١١١
عبد الله بن الزبير (انظر أيضاً: ابن الزبير) ١٤٢ ١٤٠	العباس بن محمد ٢٢٠
عبد الله بن عباس (انظر أيضاً: ابن عباس) ٨٩ ٧٦	العباس بن معبد المري ٣٣٦
عبد الله بن عمر (انظر أيضاً: ابن عمر) ٢١٧	عبد أمية ٢٩٠
عبد الله بن المقفع (انظر: بن المقفع) ٤٠٠	عبد الدار ٨٢
عبد الله بن قيس (انظر أيضاً: أبو موسى الأشعري) ٣٢٢ ١٧١	ابن عبد ربه ٣٤٩ ١٧٩ ٩٢
عبد المدان بن الديان ١١٠	عبد الرحمن بن عباس ٩٠
عبد المطلب بن هاشم ٨٨ — ٩١	عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي ١٤١
	عبد الرحمن العامري ٢٨٧
	عبد الرحمن بن عوف ١١٩ — ١١٧
	١٩٧ ١٩٦
	عبد الرحمن بن ملجم ٢٥٢
	عبد شمس ١٣١ ١٣٠ ١٢٧ ٨٣

عثمان بن حنيف ٣٦٢ ٣٦٤	عبد الملك بن مروان ٧٧ ١٤٢ ١٤٣
عثمان بن عبد الله ٦٠	٢٠٩ — ٢١١ ٣٢٧ ٣٥٤
عثمان بن عفان ٢٥ ٢٦ ٥٠ ٥٣	عبد مناف بن قصي ٨٢ ٨٣
٩٧ ١١٧ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٨	أبو عبد مناف ١٥٧ ١٥٨
العجاج ٣٦٠ ٣٦٦ ٣٨٢ ٣٩٢	عبد بن عبيد بن خالد ٠٠ بن حنظلة
٣٩٦ ٣٩٠	٢٩٠
عدن بن نعثان بن سبأ ٢١٦	عبيد (أبو أبي وجزة) ٣٠١ ٣٠٢
عدي (جد قيس بن الخطيم) ٣٠١	أبو عبيد ٢٠٩
عدي بن زيد ٣٣٩	أبو عبيدة (الغوي) ٣٩
عردة بن حزام ٣٠٨	أبو عبيدة بن الجراح ٣١٦ ٣٢٢
عروة الرحال ١٤٨ ١٥١ ١٥٢	عبيد بن حصين الراعي (انظر أيضاً :
عروة بن الورد ٣٠	راعي الإبل وأبو جندل) ٣٨٧
عطية (أبو جرير الشاعر) ٣٧٩	عبيد الله بن زياد (انظر أيضاً : ابن
عفيف بن معد بكرب ١٧٠	زياد) ٣٥٩
عكرمة ١٣٤	عبيد الله بن عباس ٩٠
العلاء بن الحضرمي (انظر أيضاً : ابن	عبيد المنان (ابن التلمس) ٣١٧
الحضرمي) ١١٣	عتاب بن أسيد ٤٨ ٥٤
علي بن أبي طالب ٢٦ ٢٥٢ ٣٦٢	ابن عتبة (انظر أيضاً : الوليد بن عتبة)
٣٦٣ ٣٦٨ ٣٨١ ٣٩٨	١٤١
علي بن شفيع ٣٠٩	أبو عتبة (انظر أيضاً : أبو هلب) ٢٨٧
أبو علي القالي (انظر أيضاً : القالي)	عتبة بن ربيعة ٢٥٨ — ٢٦٠
١٢٩ ٢١١	عتبة بن غزوان ٣٤٧
عمان بن نعثان بن سبأ ٢١٦	العتبي ١٢٠

٣٦٩ ٣٦٧	ابن عمرو (انظر أيضاً: عبد الله بن عمرو)
٢٩٥ ٢٩٢ ٢٤٥ عمرو بن كلثوم	١٧٥ ١٤٢ ٤٤
٩٦ عمرو بن لحي	٩٠ ٤٩ ٢٦ ٢٥ عمرو بن الخطاب
٢١٣ ٢١٢ عمرو بن مالك	٢٠٨ ١٧١ ١١١ ٩٧ ٩٣
٣٢٥ ٢٦٨ عمرو بن معد بكرب	٣٤٧-٣٤٥ ٣٢٢ ٣٠٢ ٣٠١
٢٩٤ العناني (الشيخ مصطفى)	٣٧٦ ٣٥٦ ٣٥١ ٣٤٩
١٦٨ عنزة	١٥٩ عمرو بن أبي ربيعة
١٥٥ العوام بن خويلد	٣٨٠ ٣٧٩ عمرو بن لجأ
٢٦٧ ابن عوف ؟	٣٢٠ عمران ؟
٢٨٣ عوف الأصم	٣٠٩ عمران بن حطان
٣٩٩ عوف (الغازي)	٨٤ عمرو (انظر أيضاً: هاشم)
٢١٢ ٢١١ عيسى بن عمر النخعي	٣٢٧ عمرو بن الأتم
	٤٨ عمرو الثقفي

غ

٣٧٣ ٣٧١ غالب (أبو الفرزدق)	٢٤٦ عمرو بن أمية بن عبد شمس
٣٨٠ غنيم بن أبي الرقراق	٢٤٧ أبو عمرو بن أمية بن عبد شمس
٣٨٤ غيلان (انظر أيضاً: ذوالرمة)	٥٨ عمرو بن الحضرمي (انظر أيضاً: ابن الحضرمي)
١٠٠ أبو غيلان	٢٥٩ ٢٥٨ ٣٣ عمرو بن الشريد
١٠٧ ١٠٢-١٠٠ غيلان بن سلامة	٢٨٠ ٢٧٨
	١٠٧ ٩٧ ٧١ عمرو بن العاص
	١٩٩

ف

٤٠ ابن فارس (صاحب المجمل)	١٢٠ عمرو بن عتبة
	٢١٩ ٢١٢ ٢١١ أبو عمرو بن العلاء

الققعاع بن عمرو ٣١٦
 القلقشندي ١٨٠ ١٨٨
 قنافه الكبي ١٨٧ ٢٠١
 قيس بن الحدادية ٢٤٦
 قيس بن الخطيم ٣٠٠ ٣٠١
 قيس بن زهير بن جذيمة ٢٦٤
 قيس بن عاصم ١٦٩ ٢٦٧ — ٢٦٩
 ٣٢٧
 قيس بن عبد يغوث المرادي ٢٦٨
 قيصر ٧٢ ١٢٢ ١٢٨ ١٢٩
 ١٣٢ ٢٨٤

ك

الكاهن الخزاعي ٨٥
 كوز بن ربيعة ١٥٤
 كسرى ٧٢ ١٠١ ١٠٦ — ١٠٨
 ١١٠ ١٣١ ١٦٦ ١٦٧ ٢٠٥
 ٢٠٦ ٢١٤ ٢١٥
 كعب بن الأشرف ٥٠ ٥١
 كعب بن جعيل (كعب بني جعيل)
 ٣٨٣ ٣٨٢ ٣٣٦
 كعب بن لوئي ٨٠
 كعب بن معدان ٣٧٧

الفاكه بن المغيرة ١٥٨
 أبو الفرج الأصفهاني (انظر أيضاً :
 الأصفهاني) ٣٢٣ ٣٢٨
 الفورزدق ٣١٠ ٣٣٦ ٣٥٠ ٣٦٠
 ٣٦٦ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧١ — ٣٧٥
 ٣٧٧ — ٣٨٠ ٣٨٥ — ٣٨٩
 الفضل بن العباس ٨٩
 فهر بن مالك ٧٦ ٧٧
 فيليبس (الأبراطور الروماني) ٣١٢
 ٣١٣

ق

القالبي (انظر أيضاً : أبو علي القالي)
 ٢٨ ٢٩ ٣٢ ٧٠ ٩٠ ١٢٩
 ١٣١ ١٦٨ ١٦٩ ٢١٩ ٣٦٩
 القباع (انظر أيضاً : الحارث بن عبدالله
 المخزومي) ٣٧٣ ٣٧٤
 قثم بن العباس ٩٠
 قرة بن هبيرة القشيري ٢٤٥
 قريش بن يخلد ٧٦
 القزويني ٢٣٩
 قس بن ساعدة الإيادي ٢٤٤ ٢٧٣
 ٢٧٤ ٢٩١
 قصي بن كلاب ٧٥ — ٧٨ ٨٠ — ٨٢ ١٠٤

٣٢٧ ٣١٧ المتلمس	أم كلاب (امراة أمية بن الأسكر) ٢٥٤
المتنبى ١٠ ١٠٧	كلاب بن ربيعة ١٤٤ ٢٥٠
المتنى بن حارثة الشيباني ٣٢٤	ابن الكلي ٧٠ ٧٧ ٢٠٥
محجن الجشعي ٢٩٠	كليب ٢١٣
محرق ٢٧٥ ٣١٨	الكميت ٨٠
الحلق الكلابي ٢٧٦ - ٢٧٨	كنانة بن الربيع ٣٠٧
محمد (انظر أيضاً : رسول الله ، والنبي)	ابن كوز ٢٥٧

٣ ٥٨ ٥٩ ٦٤ ١١١ ١١٢
١١٤ ١١٦ ١٢٠ ١٩٧ ٢٨٨
٣٩٤

محمد بن جبير بن مطعم ١٤٣
محمد حسن حبشي (انظر أيضاً :
حسن حبشي) ٩٠
محمدرشدي (انظر أيضاً : رشدي) ١٠٩
محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم
٢٥٢

محمد بن عبد الله بن حسن ٣٩٨
محمد بن الغمر ٢٠٣
محمد بن مناذر ٣٦٧
ابن حمية ١٦٠
المخبل ٢٤٥ ٢٥١
المختار بن عوف ٢٩٥
مخرمة العبدي ٢١٤

ل

لامنس ٩١
لبطة بن الفرزدق ٣٣٥
ابن لجأ (انظر أيضاً : عمر بن لجأ) ٢٨٠
أبو لهب بن عبد المطلب (انظر أيضاً :
أبو عتبة) ٢٨٥ - ٢٨٧
الليثي ٢٩٩
ابن ليلي (غالب ابو الفرزدق) ٣٧١

م

المازني ٣١٤
مالك ١٦١
مالك بن جبار ٣٣٣
أبو مالك ٣٥٠
مبارك (زكي مبارك طابع زهر الآداب)
٣٤٧

المطلب بن عبد مناف ٨٣ ٨٩ ١٢٧	امروء القيس بن حجر ٢٠٥ ٢٥٤
١٣٥ ١٣٠	٢٨٤ ٣٢١
معاذة ٤٥	مروة بن عوف بن ذبيان ٢٦٧
معاوية (الخليفة) ٣٢ ٩٠ ٩٧	مروة بن معتب الثقفي ١٥٥
١٤١ ١٤٢ ١٥٦ ١٥٩ ٣٤٦	المرزوقي ٣٥ ٤٠ ٦٠ ٦١ ٦٨
٣٨١	١٠٢ ١٨٠ ١٩١ ٢٠٠ ٢٠١
معاوية بن عمرو بن الشريد ٢٥٦	٢٠٤ ٢١٨ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٣٣
٢٥٨ ٢٥٩ ٢٧٨ ٢٧٩	٢٤٠ ٢٤٤ ٢٤٩ ٢٥١ ٢٨٤
المعتصم ٣٥٣	٢٩٣ ٢٩٥ ٢٩٨ ٣٠٧ ٣١٧
معمر بن الحارث ٢٧٦ ٢٨١	٣٢٢
معن بن أوس المزني ٣٨٩	مروان بن الحكم ١١٩ ٣٦٢
المغيرة بن نوفل بن عبد مناف ١٥٨	مروان بن محمد (الجعدي) ٣٢٠
المغيرة بن شعبة ٩٧ ٩٨	مسعود بن معتب الثقفي ١٥٤
المغيرة بن عبد الله الثقفي ٤٨	مسلم (صاحب الصحيح) ٣٥ — ٤٠
المفضل الضبي ٢٥٤ ٣٩٧ ٣٩٨	أبو مسلم (الخراساني) ٣٩٦
ابن المنقفع ٤٠٠ ٤٠٢	أبومسمع (انظر أيضاً: الحلق) ٢٧٨
المقوقس ٢٢ ١٢٢	المسور بن مخزومة بن نوفل ١٤١
ماحان ٣٣٢	مسيكة ٤٥
المنتجع ٢١١ ٢١٢	مسيلمة (الكذاب) ٣٠٨
ابن منذر ٣٦٧	المشمر بن عمرو الحيري ٧٦
المنذر بن ساوى ١٦٦ ١٨٥ ١٨٧	أبو المضاء الكاري ٣٣٧
١٨٨ ٢٠٧ ٢١٥	مطرود الخزاعي ٨٨ ٨٩ ١٢٧
منظور بن سيار ٢٨٤	

أبو موسى الأشعري (انظر أيضاً : عبد الله بن قيس) ١٧١ ١٩٩	أبو النجم العجلي ٣٦٠ ٣٦٦
٣٤٦	الضمر بن كنانة ٧٦ — ٧٩
مولر ١٨	النظام ٣٦٧ ٣٧٠
المهاجر ٣١٠	النعمان بن قبيصة ١٠٦
المهدي (الخليفة) ٣٥٠	النعمان بن المنذر ١٤٧ ١٤٨ ١٦٧
أبو المهدي الأعرابي ٢١١	١٨٤ ٢٠٦ ٢٤٣ ٢٦١ ٣٠٧
المهازل ٢١٢ — ٢١٤	٣٢٧ ٢٣١ — ٣٣٥
الميداني صاحب (مجمع الأمثال) ٢٥٤	نعيم ؟ ٣٢٠
	نعيم بن ثعابة ٧٠ ٧١
	النمر بن تولب العكلي ٣٩٥ ٣٩٦
	أبو نواس ٣٦٩
نائلة (صنم) ٧٠	نوفل بن عبد شمس ٢٩٠
نائلة بنت زيد ٧٠	نوفل بن عبد مناف ٨٣ ١٢٧ ١٣١
أبو نائلة سلكان ٥١ ٥٠	١٣٥
الناطقة الجعدي ٣٨١ — ٣٨٣	النووي ٣٨
الناطقة الذيباني ٢٥٣ ٢٥٧ ٢٧٥	أبو نهشل ١٥٨
٣٢٣	النيسابوري ٧١
النبي (انظر أيضاً : رسول الله ﷺ)	نيكلسون ١٨ ٩٠
٢٥ ٤٨ ٥٩ ٦٥ ٨١ ٩٠	
١٠٨ ١١١ ١١٤ ١٢٠ ١٤٠	
١٦٩ ٢١٤ ٢٧٤ ٣٩٤	هاشم ؟ ٢٦٧
النجاشي ٢٣ ١٢٢ ١٢٨ ١٣٢	هاشم بن حرملة ٢٥٦

هاشم بن عبد مناف ١٩ ٧٢
 ٨٣ — ٨٩ ١٢٣ — ١٣٤
 هوقل ١٠٨ ١٠٩ ١٩٧
 ابن هشام (صاحب السيرة) ٢٣
 ٥٠ ٦٠ ٥٨ ٦٤ ٧٠ ٧٧ — ٧٩
 ٨١ ٨٢ ٨٩ ١٢٧ ١٤٠
 ١٤١ ١٤٣ ١٤٦ ١٤٧ ١٧٢

ي

ياقوت (صاحب معجم البلدان) ٨٨
 ١٨٠ ١٩٦ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٧
 ٢٢٤ — ٢٢٦ ٢٢٨ ٢٣٢
 ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٩ ٢٤٩ ٢٥٠
 ٢٩٧ ٢٩٩ ٣١٩ ٣٢٦ ٣٥٨
 ٣٥٩
 يحيى اليزيدي (انظر أيضاً : اليزيدي)
 ٢١١

يزيد بن زمة ٩٢
 يزيد بن الصعق ٢٣٥
 يزيد بن عبد الله ٣٩٤
 يزيد بن عمرو الغساني ٢٦٣

يزيد بن عبد المدان ٢٥٤ ٢٥٥
 ٢٦٨ ٢٦٩
 اليزيدي (انظر أيضاً : يحيى اليزيدي) ٢١٢
 اليعقوبي (المورخ) ١٨٠ ١٨٥ ٢٣٨
 يوسف بن عمر ٣٣٦
 واقد بن عبد الله التميمي ٥٩ ٦٠
 الواقدي ١٩٨
 وجدي (فريد وجدي) ٢٩٤ ٢٩٥
 أبو وجزة (بن عبيد) ٣٠١
 الوليد بن عتبة بن ربيعة ٢٥٨ — ٢٦٠

و

فهرس الأماكن

أ

أنقرة ١٢٨ ١٢٩	آسية ٢٠ ٢٣٢ ٣٠٤
الأهواز ٣٧٧	الأبطح ١١٠ ٢٦٠
أواره ١٤٨	الأبلة ٣٤٨
أوروبا ١٧ ٨٣ ٣٠٤ ٣١٣ ٣٢٤ ٣٢٥	الأثداء ٢٤٩
الأهواز ٣٥٣	الأحقاف ٢١٧ ٢٣٩
إيطاليا ٣٥٠	أخشامكة (جبلان) ٧٩
أيلة (العقة) ١٦ ٢٢ ١٨١	أدم ١٨٨ ١٩١

ب

باب البريد (بدمشق) ٤	أذرعات ٤٤ ١٦٧ ١٨١ ١٨٧
بابل ١٦	٣٢٠ ٣١٩ ٣٢٤ ٣٢٦ ٣٢٧
باب المنذب ١٨ ٢٣٢	إزرع ٣٢١
بارق ٢٢٢	الأسفل (جبل) ٢٩٦
باشان ٣١٣	الأسقى ١٨٧ ١٩١
بترا ١٨	إفريقية ٢٠ ٩٠
البحر الأحمر ١٨ ٢٣٢	أمريكا ٣٠٤
بحر الصين ٢٢٥	الأنبار ٣٣ ٣٢٦
بحر فارس ٢٢٥	أندرين ٤٤ ١٦٧
البحر المتوسط ١٧ ١٨	الأندلس ٢٣٦

اللقاء ٣٢١	٢٣٠ ٢٢٥ ١٥	البحر الهندي
البندقية ٩١	٢٣٢	
البيته ٢٤٨	٢١٨ ٢١٦	بحر اليمن
البيت (بيت الله) ٦٧ ٦٦ ٦٤ ٦٢	— ١٨٠ ٢٣ ٢١ ١٥	البحرين
٩٤ ٩١ ٨٦ ٨٠ ٧٢ ٧٠ ٦٩	٢١٧ ٢١٥ ٢٠٨ ٢٠٣ ١٨٣	
١٣٣ ١٢٦ ١٢٤ ١٠٣ ١٠٢	٣٥٢ ٣٢٨ ٣٢٤ ٣٠٨ ٢٥١	
١٥٨ ١٣٤	٤٠٣	
ت	١٨٤ ١٨٠ ١١٧ — ١١٤	بدر
	٢٥٨ ١٩١ ١٨٦	
نوام ٢٢٥	١١٧	براديس
نبوك ٣٠٦ ١١٧	٣٠٨ ٢١٦ ١٩٥ ١٧٨	البصرة
تدمر ١٧ ١٦	٣٥٥-٣٤٥ ٣٤٣ ٣١١ ٣١٠	
تهامة ٢٢٢ ٢٢١ ١٤٨	— ٣٦٧ ٣٦٢ ٣٥٩	
نيزى (نهر) ٢٧٧	٣٨٣ ٣٧٧ ٣٧٣ ٣٧٢ ٣٧٠	
ث	٤٠٤ ٣٩٦ ٣٨٩ ٣٨٥	
	١٨١ ١٦٧ ٩٥ ٢٢	بصرى
ثبير ٢٨٠	٣١٨-٣١٢ ٢٩٧ ٢٤٣ ١٨٧	
ثبلان ١٢١	٤٠٨ ٣٢٤ ٣٢٢-٣١٩	
ج	٣٧٤ ٧٩	البطحاء (بطحاء مكة)
	١٥٣	بطن مر
الجامعة السورية (بدمشق) ٨ ٥	٣٥٠ ٣٤٣ ٥	بغداد
جبلاطي ١٩٦	٢٥	القيبع
جبل نعيم ٢٣٧	٧١	بكة

الجزيرة	٢٢-١٩	١٦	١٥	العرب	١٣٨
٢٤	٤٧	٦٢	١١٥	١٦٥	حجر اليمامة
١٦٦	١٧٧	١٨٠	٢٠١	٢١٧	١٨٠ ١٦٦ ١٦٥
٢١٨	٢٢٦	٢٢٩	٢٣٠	٢٣٥	١٨٧ ١٨٦ ١٨٩ ٢١٠ ٣٠٧
٢٤٢	٢٤٣	٢٦٣	٢٧٤	٢٩٥	٣١١ - ٣٥٨
٣٠٠	٣٠٦	٣٠٧	٣٢٣	٣٤٣	الحجون ١٣١
٣٨٤	جلاجل				الحديبية ١٠٨
٨٧	جمع				حراء ٢٨٠
١٠٥	الجند	١٨٠	١٨٦	١٩١	الحرم ٦٣ ٦٥ ٦٦ - ٧٢ ٧٥
٣٥٠	جنوة				٨٠ ٨٢ ٩٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٣٤
١٩٥	الجوف				١٣٧ ١٥٢ ١٥٣ ١٧٣ ١٧٧
					الحريرة ١٥٩
					حصن السلام ٣٠٧
					حصن الشق ٣٠٧
					حصن الصعب بن معاذ ٣٠٧
					حصن القموص ٣٠٧
					حصن الكتيبة ٣٠٧
					حصن ناعم ٣٠٧
					حصن نطاة ٣٠٧
					حصن الوطيج ٣٠٧
					حضر موت ١١ ١٦٦ ١٨٥
					١٨٧ - ١٩٠ ٢٣٩ - ٢٤١
					الحفير ٣١٤
					حابون ٣١٧
					الجزيرة
					١٦ ١٨ - ٢٢ ٢٥ ٤٧
					٩٤ ٩٥ ١٣٠ ١٧٣ ١٧٤
					٢١٧ ٢٢١ ٢٣٠ ٢٣٢ ٣١٢ ٣٢٨

ع

حباشة	٥٧	١١٢	١٧٩	١٩٠
٢٢٧	٢٢٦	٢٢٤	٢٢٤	٢٢٧
الحبشة	١٥	١٧	٢٢	٢٣ ٥٩
٧٢	٨٥	٩٥	١١٣	١٢٢
١٢٤	١٢٦	١٢٨	١٣٠	١٣٣
١٣٥	١٨٢	٢٢٠	٢٢١	٢٣٠
٢٣٢	٣١٢			
الحجاز	١٦	١٨	٢٢	٢٥ ٤٧
٩٤	٩٥	١٣٠	١٧٣	١٧٤
٢١٧	٢٢١	٢٣٠	٢٣٢	٣١٢ ٣٢٨

دار العظم (بدمشق) ٣١٩
دار الكتب المصرية ١٠٧ ٧١
٣٤٠ ٣٣٦ ٣٢٨ ١٠٩
دار الندوة ١١٦ ١٠٩ ٨٦ ٨١
دار نيوز ٤٠٠
دارين ١٨٣ ١٨٢
الدباغين (في سوق البصرة) ٣٦٤
٣٦٦

دبي ٢٢٩-٢٢٨ ١٨٧ ١٨٥ ١٨٢

٢٣١

دجلة ٣٨٥

دمشق ٢٣٧-٢٣٥ ١٠-٧ ٥-٣

٤٠٥ ٣١٩ ٣١٧ ٣١٢

الدمعة ٢٤٨

دومة الجندل ١٨٤ ٦١ ٣٦ ٣٤

٢٠٢-١٩٥ ١٩٠-١٨٧ ١٧٥

٢١٤ ٢٠٧

دومة الحيرة ١٩٥

دير أيوب ٣٢٠-٣١٩ ٣١٧ ١٨٧

٤٠٨

ذ

ذو المروة ١٤٠

حمص ٢٣٦ ١٠٨
حوران ٣١٦ ٣١٥ ٣١٣ ٣١٢
٣٢٠ ٣١٩
الحيرة ٩٩ — ٩٧ ٩٥ ٣٣ ٢١
١٨٣ ١٨١ ١٧٧ ١٦٧ ١٤٧
٢٠٧ ١٩٦ ١٩٥ ١٩١ ١٨٤
٢٤٣ ٣٢٣-٣٤٥

غ

خزانة العرب (البصرة) ٣٥٢

الخط ٢١٤ ١٨٣

خليج العجم ١٧

الخليج الفارسي ٢٠٨ ١٩٥ ١٨

٣٥٩ ٢١٦

الحنافس (سوق في العراق) ٣٢٤

الحنديق ٣٩٨

الخورنق ٣٢٦

خير ١٤٩ ١١٧ ٤٨ ٣٩ ٢٠

٣٠٧-٣٠٦ ١٨٩ ١٨٧ ١٥٠

٣٥٣ ٣٢٨

د

دار الآثار (بدمشق) ٧

السند ٢٣٣	ذو الحجاز ٥٧ ٦٢ ٦٦ ١٢٤ ١٧٣
منير ٣١٧	١٨٠ ١٨٥ — ١٨٧ ١٨٩
السوس الأقصى ٣٥١	١٩٠ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ — ٣٥٥
سوق النبط ١٩ ٨٧	٣٠٧ ٣٢٠
السلحون ٣٢٧	

س

الشام ٣ - ٥ ٧ ١٦ ١٧ ١٩	
٢٠ ٢٢ ٢٣ ٢٥ ٢١ ٢٢	
٨١ ٨٤ ٨٥ ٨٧ ٨٨ ٩٠	
٩٥ - ٩٧ ١٠٠ ١٠٧ ١٠٨	
١١١ ١١٣ ١١٤ ١١٨ ١١٩	
١٢٤ - ١٢٦ ١٢٨ ١٣٠ ١٣٤	
١٥٨ ١٦٧ ١٧٣ ١٧٤ ١٨٣	
١٩٥ ١٩٦ ٢٠١ ٢١٧ ٢٢١	
٢٤٣ ٢٩٣ ٢٩٥ ٢٩٧ ٣٠٦	
٣٠٧ ٣١٠ ٣١٢ - ٣١٥ ٣١٧	
٣١٨ ٣٢٠ - ٣٢٢ ٣٢٤ ٣٢٨	
٣٤٣ ٤٠٦	

شامة ٢٩٦	
شباب ٣٨١	
الشجر ١٦٥ ١٨٥ ١٨٧ - ١٩٠	
٢٢٨ ٢٢٥ - ٢٣٥ ٢٣٣	

الربذة ١١٧

الردم ١٥٨

ردمان ٨٣ ٨٩ ١٣٠

ردينة ١٨٣

الرصافة ٣٢٠

روضة الأجداد ١٨٠

روضة دعي ١٨٠

الروم ١٢٢ ٢٣٣ ٣٤٣

ز

زبيد ٢٢٦

زمنم ٨٧ ٩٠

س

السدير ٣٢٦

السلفية (مطبعة) ٧٦

سلمان ٨٣ ٨٩ ١٣١

سمرقند ٩٠

ض

ط

الطائف ٢١ ٢٣ ٣٣ ٤٨ ٤٩
 ٥٨ ٨٠ ٨٩ ٩٥ ١٠٢
 ١٠٥ ١١٣ ١٨٣ ٢٤٤ ٤٤٨
 ٣٢٣ ٣٧٢ ٣٨١
 طفيل ٢٩٦

ظ

ع

عبادان ٣٤٨
 عبادس ٣٤٨
 العبلاء ١٥٥
 عدن ١٦ ١٦٥ ١٨٠ ١٨٢
 ١٨٥-١٨٨ ١٩٠ ٢٣٢-٢٣٤
 ٢٣٨ ٣٢٦
 العراق ١٥ ١٧ ٢٢ ٤٢ ٦١
 ٧١ ٧٢ ٨٣ ٩٧ ١٠٠ ١٠٦
 ١٧٣ ١٧٤ ١٨٣ ١٨٤ ٢٠١
 ٢٠٢ ٢١٧ ٢٢٦ ٢٤٣ ٤٤٨

٢٣٨ ٢٣٩ ٢٥١

شرب ١٥٦-١٥٧ ٦ ٢٤٦
 الشرق ١٧
 الشعب ٧٩ ٨٠
 شعب جبلة ٣٩٨
 شماری ٣٣٠
 شمطة ١٥٢-١٥٣
 شيخ سعد ٣١٩

ص

صغار ٥٧ ١٨٢ ١٨٥ ١٨٧
 ١٨٩ ١٩٠ ٢٢٥-٢٢٧
 ٢٢٨ ٢٤
 الصحراء الكبرى ٣٥١
 صرخد ٣١٧
 الصعاب ٤٠٣
 الصفا ٢٠٣ ٢٠٤
 صفين ٣٩٨
 صنعاء ١٦٥ ١٦٦ ١٨٥
 ١٨٧-١٩٠ ٢٢٦ ٢٣٥-٢٣٨
 ٢٣٩
 الصين ١٨٢ ٢٢٦ ٢٢٩ ٣٥١

عمواس ٩٠

العين ٢٠٣

غ

غدير الحقل ٢٣٧

غزة ٨٩ ٨٨ ٨٣ ٢٦ ٢٢ ١٨

١٢٨ ١١١ ١٠٩ ١٠٧ ٩٥

٢٩٧ ٢٤٣ ١٨١ ١٦٧ ١٣٠

٣١٨

غمدان ٢٣٦

ف

فارس ٢٠٨-٢٠٦ ١٨٢ ١٣٥

٢٣٣ ٢٣٠ ٢٢٠ ٢١٨ ٢١٤

٣٢٦ ٣٢٤ ٣٢٣ ٢٤٣ ٢٣٤

٣٧٧ ٣٥٢ ٣٤٣ ٣٢٨

فنج ٢٩٦

فدك ١٤٨

الفرات ٣٢٦

فرغانة ٣٥١

فرنسا ٢٥٠

فلج ٣٨٩ ٣٨١

فلسطين ٤٠٦-٤٠٥

٢٩٩ ٢٩٥ ٢٩٣ ٢٩٢ ٢٥١

٣٠٨ ٣١٠ ٣١٥ ٣٢٠ ٣٢٣-٣٢٣

٣٢٥ ٣٤٣ ٣٤٥ ٣٤٨ ٣٤٩

٣٥٠ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٨٧

عرفة ٢٥٠ ١٧٤ ٨٧ ٦٥-٦٣

٢٩٩ ٣٠٠

عرفات ٢٩٩ ١٧٥

عسفان ٢٩٧

العقبة ١٩٥ ١٦

عكاظ ٥٨ ٥٧ ٣٣ ٢٢ ١٠

١٢٤ ١١٢ ٦٩ ٦٦ ٦٢

١٥٣-١٥١ ١٤٧ ١٤٥ ١٤٤

١٦٧ ١٦٥ ١٦١ ١٥٩-١٥٥

١٨١ ١٧٦ ١٧٤ ١٧٣

٢٤٠ ٢٢٧ ١٩٠ ١٨٤

٢٩٨ ٢٩٧ ٢٩٥-٢٩٤

٣١١ ٣٠٩ ٣٠٣ ٣٠٢ ٣٠٠

٣٦٠ ٣٥٩ ٣٥٦ ٣٢٢ ٣٢٠

٣٧٠ ٣٦٦ ٣٦١

عمان ١٦٥ ١٠٥ ٢١ ١٨ ١٥

٢٠٧ ٢٠٥ ٢٠٣ ١٨١ ١٦٧

٢٢٥ ٢٢١-٢٢٠ ٢٠٨

٣٥٢ ٣٢٨ ٢٥١ ٢٢٨

ق

القانس ٢٤٨

قبة الإسلام (البصرة) ٣٥١

قيس ٧٩

قرطاجة ٩١

قرطبة ٥

قنسرين ٣١٧

قنونا ٢٢٢

القهاوي ٢٤٨

القيروان ٣٤٣

ك

كرمان ٣٥٢

الكعبة ٧٠ ٨١ ٨٦ ٩٦

١٠٣-١٠٥ ٣٨٧

الكوفة ٣٠٨ ٣٢٥ ٣٣٩

٣٤٣ ٣٤٩ ٣٥٣ ٣٧٠

ل

ليدن ٢٤ ٤٠ ٤٣ ٤٤ ١١١

٣٥١

م

مارد ١٩٥ ١٩٦

مأرب ١٨ ٣١٤

المجمع العلمي العربي بدمشق ٤ ٥

محنة ٥٧ ٦٢ ٦٦ ١٦٧ ١٧٣

١٧٤ ١٨٠ ١٨٦ ١٨٧ ١٩٠

٢٥٠ ٢٩٩ - ٢٩٨ ٣٠٠

٣٠٢ ٣٠٣ ٣٢٠

المدائن ٢٠٥

مدائن كسرى ٣٢٤

مدرسة التجهيز بدمشق ٧ ٨

المدرسة العادلة ٤

المدينة (انظر أيضاً: يثرب) ١٩-٢٢

٢٥ ٥١ ٥٩ ٩٠ ١١٣

١١٧ ١٣٧ ١٤٠ ١٩١

١٩٥-١٩٧ ٢٨٠ ٢٩٦ ٣٠٦

٣٥٢ ٣٦٣

المربد ١٧٨ ١٧٩ ١٩١ ٢٩٥

٣٤٤ ٣٤٥ ٣٥٣ ٣٥٩-٣٥٤

مر الظهران ٢٩٦

مرسيلية ٣٥٠

مر والشاهجان ٢٢٤

٩٦ ٩٥ ٩٠ ٨٧ ٨٥-٧٩ ٧٧
 ١١٣ ١١٠ ١٠٦ ١٠٤ ١٠٢
 ١٣١-١٢٩ ١٢٧ ١٢٤ ١١٤
 ١٥١ ١٤٠ ١٣٨-١٣٥ ١٣٤
 ١٧٣ ١٦٩ ١٦٧ ١٥٨ ١٥٢
 ٢١٩ ٢٠١ ١٩١ ١٨٦ ١٨٠
 ٢٥٠ ٢٤٨ ٢٤٣ ٢٢٤-٣٢٢
 ٣٩٦ ٢٩٥ ٢٩٢ ٢٨٠ ٢٥١
 ٣١٨ ٣٧٤ ٣٦٧ ٣٠٣ ٢٩٩

منعج ٢٦١

١٨٠ ١٧٤ ٨٧ ٨٢ ٧٠ منى
 ٢٩٩ ١٩١ ١٨٦ ١٨٤

ن

٣٠٨ ٣٨١ ١٤٨ ٢١ نجد
 ٣٢١ ٣١٥
 ١٨٤ ١٨٠ ١١٠ ٤٩ نجران
 ٢٧٠-٢٦٨ ٢٠٣ ١٩١ ١٨٦
 ١٥٣-١٥١ ١١٣ ٥٩ نخلة
 ٣٥٧-٣٥٦ ١٨٩ ١٨٧ نطاعة
 ٢٠٦ نطاع
 ٣٧٢ نعيان
 ٢٣٦ نقيل السود

المزة ٢٣٦
 المزدلفة ١٧٤
 المسجد الحرام (انظر أيضاً : الحرم)
 ١١٠

مسجد خاتون ٢٣٦
 مسجد المدينة ١٤٠
 المشارف ٢٣ ٢٢
 مشارف الشام ٣١٢
 المشقر ١٨٩ ١٨٧ ١٦٧ ١٦٦
 ١٩٩ ١٩٠ ٢٥٧-٢٥٣

٢٢٧ ٢١٨ ٢١٧
 مصر ١٢٢ ١٠٧ ٢٢ ١٨-١٥
 ٣٥١ ٣٤٣ ٢٩٣ ٢٣٢ ١٧٣
 ٣٥٢

معافر ٢٣٨ ٢٣٣
 معقل (نهر) ٣٤٩
 المقبرة (بالبصرة) ٣٧٣
 مقبرة بني حصن ٣٧٨
 مقبرة بني مازن ٣٦٥
 المكتبة الظاهرية ٤٠
 مكربة ١٨
 مكة ٤٩ ٤٨ ٢٣ ٢٢ ١٨
 ٧٥ ٧٢ ٧١ ٦٧ ٦٤ ٦٢ ٥٨

وادي لية ٢٤٨
الوحيدة ٢٧٩ ٢٨٠

غمره ٦٤
نينوى ١٦

ي

ه

يثرب ٤٨ ٥٠ ٢٧٩ ٣٠١ ٣٢١
اليتموك ٣١٦
اليكسوم ١٢٤
اليامة ١٦٥ ١١٠ ٢٠٦ ٢٠٧

هجر ٢١ ٢٣ ٤٤ ١٦٥-١٦٧
١٨٠ ١٨١ ١٨٦ ١٨٨ ١٩٠
٢٠٣-٢٠٦ ٢٠٨-٢١٥
٢١٨ ٢٢٠ ٢٤٣ ٤٠٣

٢٥١ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣٥٢
اليمن ١٥ ١٦ ١٨ ٢١ ٢٢
٤٨ ٧٠-٧٢ ٧٩ ٨١ ٨٣ ٩٥
١٠٧-١١٠ ١١٩ ١٢٤-١٢٦

الهند ١٥-١٨ ٩٥ ١٨٢ ٢٠٨
٢١٤ ٢١٨ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٩
٢٣٠ ٢٣٢ ٣٣٣ ٣١٢ ٣٢٤
٣٢٨ ٣٥٢

١٣٨ ١٣٠ ١٣٥ ١٣٨ ١٧٧
١٨٤ ٢٠٥ ٢٠٨ ٢١٧ ٢٢١
٣٢٢ ٢٢٦ ٢٣٣ - ٢٣٩
٢٤٣ ٢٤٥ ٢٤٨ ٢٥١ ٢٨١
٢٩٣ ٣٠٦ ٣١٢ ٣١٤ ٣٢٤
٣٢٨

و

وادي جدر ٣٢١
وادي عليب ٢٣٧
وادي القرى ٤٨ ١١٧
وادي القصر ٣٥٣



فهرس الأسر والامم

وما ينسبها

الأفغان ١٧٣
بنو أمية بن عبد شمس ٧٩ ٩٢ ١٤٢
١٤٣ ١٥٩ ٢٤٦ ٣٣٩ ٣٧١
الأمويون ٣٤٦ ٣٥٧ ٣٦٢
٣٦٦ ٣٦٨ ٣٧١
الأنباط ٣٢٧
إنجائرا (الإنكليز) ١٦ ٣٥٠
الأنصار ١٠٥ ١٢١ ١٧١ ٣٠٤
٣٦٢
الاولس ٣٠١
إياد ٢٧٤ ٢٨١ ٢٨٢

ب

باهلة ٣٧٤ ٣٧٥
بزاربون ١٧٣
بنو بكر ١٤٩ ١٥٦ ٢١٢
بكر بن عبد مناة ٦٦
بكر بن وائل ٣٩٢

أ

بنو آكل المرار ٢٤٠
الأنباء (فرس اليمن) ١٨٥ ١٨٧
٢٣٨ ٢٣٤
الأنراك ١٧٣
الأحاييش ١١٦ ١٥٤ ٢٥١
الأحباش ٩٠
الأحوار ٢١٨
الأحلاف ٣٢٦
الأزد ٢١٧ ٢١٨ ٢٢٢ ٢٢٣
٢٦٥
الأسبان ٤٠٢
أسد ٦٦ ٦٧ ٩٢ ١٢٧
٣٨٣ ٢٥٧ ٢٠٢
أسيد ٢٦٥
الأعاجم ٨٣ ١٢٩ ٢١٩
الأعراب ٣٦٨ — ٣٧٠
الافونج ٢٣

ت

الترك ٤٠١

تغلب ٢١٢ ٣٣٥ ٣٣٦

تيم ٦١ ٩٢ ٩٣ ٢٠٢ ٢٠٥-٢٠٧

٢١٤ ٢٥١ ٢٥٣ ٢٦٨-٢٧٠

٢٨٢ ٣٢٦ ٣٣٦ ٣٧٦ ٣٧٧

٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٩ ٣٩١

تنوخ ٣٢٦

تيم ١٨٥ ٣٧٩ ٣٨٠

تيم عدي ٣٧٩

ت

بنو ثعل ٣٣٤

بنو ثعلبة بن بكر بن وائل ٣٠٩

ثقيف ٤٨ ٥٢ ١٥٥ ١٥٦ ٢٥٠

٣٨١

ج

بنو جدعان ١١٠

جديد ٢١٧

جديلة ٦٢

جديلة طي ١٩٩

بنو جذيمة ٢٥٧

جورم ٨٠ ١٣٩ ٣٧٤

جشم ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٩٠

بنو جعدة ٣٨١ — ٣٨٣

بنو جعيل ٣٣٦

جمع ٩٢ ٩٣ ١٥٨

الجن ٣٧٦

ع

بنو الحارث ٢٦٩

بنو الحارث (في عمان) ٢١٧

الحارث بن كعب ٣٠٤

حبشة ١٦٦ ٢١٨

الحبشان ٩٥

حدان ٢١٧

الحضارمة ٣٠٤

حمير (الحميريون) ١٨ ٢٣٢ ٢٣٤

٢٣٥ ٢٣٨ ٣٢٦

حنيفة ٣٠٣ ٣٠٨

بنو حية ٣٣٣ ٣٣٥

٣١٨ ١٣٧ ١٣٣ ١٢٩ ١٢٧

٤٠١ ٣٢٧ ٣٢٢

الرومان ٢٣ ٧٢ ٩٦ ١٨١ ٣١٣

٣١٧ ٣١٣

ريطرة ١٥٨

ز

زيد ١٣٨

زهرة ١٣٨

بنو زهير (من عكل) ٣٩٤

بنو زيد (من آل أبي طالب) ٣٩

س

آل سامة ٣٧٧

سبأ ١٨ ١٨

سبخينة (انظر : قريش) ١٥٣

سدوس ٢٠٣

بنو سعد ٢٠٥-٢٠٧ ٢٦٩ ٣٠١

٣٨٣ ٣٨١ ٣٠٢

السكون ٢٠١

بنو سليم ١٥٧ ٢٨٠ ٣٠١ ٣٨١

سهم ٨٨ ٩٢ ٩٣ ١٥٧

السودان ٤٠١

ف

خشم ٦٦ ٦٧ ١٢٦ ٢٨٣

الخراسانية ٣٩٦

خزاعة ٦٢ ٨٠ ٢٤٦ ٢٥١

الخرز ٤٠١

الخرزج ٨٨

خندف ١٥٥

الخواارج الحرورية ٢٩٥

د

بنو دهمان ٢٦١

بنو الديان ١١٠ ٢٥٤

ذ

بنو ذبيان ٢٧٥

ر

الراشدون (الخلفاء) ٣٤٥ ٣٦٦

٣٦٨

ربيعة ٦١ ٢٠٢ ٢٠٦ ٣٢٤

٣٩٨

الروم ١٥ ٢٣ ٨٥ ٩٥ ١٠٩ ١٢٤

ش

الشراة ٢٢٥

بنو شيبان ٢٦٤

ص

بنو الصادر ٣١٥

الصحابة ١٤١

الصين ٤٠١

صينيون ١٧٣

ض

ضبة ٣٩٩

ط

طسم ٢٠٣

طئي ٦١ ٦٦ ٦٧ ١٢٦ ٢٠٢

٣١٥ ٣٢٦ ٣٢٨ ٣٣١ ٣٣٢

ظ

بنو ظفر ٣٠١

* * *

ع

عاد ٤٠٢

بنو عامر ١٥٢ ٢١١ ٣٠١ ٣٨٢

٣٨٣

عامر بن صعصعة ٦٦ ٢٧١ ٢٧٢

٢٨٧ — ٢٨٩ ٣٠٣

العباهة ١٢٤

بنو العباس ٣٥٠ ٣٧١ ٣٩٦ ٣٩٧

العباسيون ٣٥٢ ٣٥٨ ٣٧١

العباد ٣٢٦

عبد الدار ٩٢

عبد شمس ١٤٢

عبد القيس ٢٠٣ ٢٠٧ ٢٨٢

بنو عبد الله بن زيد ١٨٧ ٢٠٧

بنو عبد الله بن دارم ٢١٥

بنو عبد المطلب ٢٨٧ ٢٨٩

بنو عبد مناف ٨٨ ٨٩ ١٢٧ ١٢٨

١٣٠ ١٣١ ١٥٣ ٢٨٧

عابس ٢٦٢ ٣٠٣ ٣٨٣

العبلات ٢٩٠

بنو عبيد (من حنيفة) ٣٠٨

عتيك ٢١٧

٣٢١ ٣٢٠ ٣١٨ ٣١٧ ٣١٤

٣٣٨ ٣٣٥ ٣٣٢ ٣٢٨ — ٣٢٣

٣٥٧ ٣٥٦ ٣٥١ ٣٤٥ — ٣٤٣

٣٧٧ ٣٧٦ ٣٦٩ ٣٦٠ ٣٥٩

٤٠١ — ٣٩٩ ٣٩٢ ٣٨٨ ٣٨٢

٤٠٥ ٤٠٤

عضل ٢٥١

عكل ٣٩٤

العلويون ٣٩٦

بنو علي (بن أبي طالب) ٣٩٧

بنو العم ٣٧٦ ٣٧٧

بنو عمرو بن تميم ٦٧

بنو عمرو الثقفي ٤٨ ٥٣

بنو عمرو بن مرثد ٦١ ٢٠٢

الغنايس ٢٤٧

بنو العنقاء ٢٧٥

عوف بن كعب ٣٨٣

غ

آل غالب ٢٦٠

غسان ١٧٧ ١٨٥ ٢٠٠ ٢١٧

٣١٨ ٣١٦ ٣١٤ ٣٠٣

غطفان ١٤٨ ١٤٩ ٢١١ ٢٥١

عجل ٣٩١

العجلان ٢٧٤

العجم ١٠٧ ١٢٩ ٣١٧ ٣٤٥

٣٥٩ ٣٥١ ٣٤٧

عدي ٩٢ ٩٣

عذرة ١٩٦ ٣٠٤

عرب ١٠ ١١ ١٥ — ٢١

٢٣ — ٢٥ ٢٧ — ٢٩ ٣١ — ٣٤

٤٠ ٤١ ٤٣ — ٤٥ ٥٠ ٥٧

٥٨ ٦٠ — ٦٣ ٦٥ — ٧٢ ٧٧

٧٨ ٧٩ ٨١ ٨٣ ٩٤ ٩٦ — ٩٩

١٠٣ — ١٠٦ ١١٠ ١١٢ ١٢٠

١٢٢ — ١٣٤ ١٣٧ ١٣٩

١٤٥ ١٤٧ ١٤٨ ١٥١ ١٥٣

١٦٥ ١٦٧ ١٦٩ ١٧١ — ١٧٣

١٧٦ ١٧٨ — ١٨٤ ١٩٩ ٢٠١

٢٠٣ — ٢٠٧ ٢٠٩ ٢١٤ ٢١٥

٢١٧ ٢١٨ ٢٢٤ — ٢٢٩ ٢٣٣

٢٣٤ ٢٣٨ ٢٤٤ — ٢٤٩ ٢٥١

٢٥٢ ٢٥٦ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦١

٢٦٥ ٢٧٤ ٢٧٦ ٢٧٩ ٢٨١

٢٨٤ ٢٨٨ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٦

٣٠٠ — ٣٠٢ ٣٠٦ ٣٠٩ — ٣١٢

١٨٤ ١٧٧ ١٧٣ ١٧١

٢٤٣ ٢٤١ ٢٤٠ ٢٢٢ ٢٠١

٢٦٢ ٢٥٨ ٢٥١ ٢٥٠ ٢٤٤

٣٠٤ ٢٩١ ٢٨٩ ٢٨٧ ٢٦٣

٣٢٦ ٣٢٣ ٣٢٠ ٣١٤ ٣٠٧

٣٧٧ ٣٦٥

قضي ٨٥ ١٠٦ ١٦١

قضاة ٦٦ ١٢٦ ٣٢٤

قفقاسيون ١٧٣

قيس ٦٩ ١٠٢ ١٥١ ١٥٢ ١٥٦

٣٨١ ٢٨٢ ١٦١

قيس بن ثعلبة ٦١ ٢٠٢

قيس بن عيلان ١٤٤ ٢٥٠ ٢٥١

قينقاع ٢٢٢

ك

بنو كعب ٣٠٤ ٣٨٧ ٣٨٨

بنو كعب بن ربيعة ٢٨٧

بنو كعب بن لوئي ٨٠

كلاب ٣٨٧ ٣٨٨

كلب ٦١ ١٨٥ ١٨٨ ١٩٦ ١٩٩

٢٠٠ ٢٠٢ ٣٢٦ ٣٣٣

غفار ٩٥

غني ١٤٩ ٢٢٤ ٢٦١ ٢٦٢

ف

فارس (انظر أيضاً : فرس) ١٥

١٠٨ ١٠٧ ١٠٠ ٨٥ ٢١

١٢٧ ١٣٧ ٢١٩ ٤٠

الفراغة ١٨

الفرس ١٦ ٢٣ ٧٢ ٩٥ ١٠٩

٣٢٤ ٢٣٤ ٢١٨ ١٨١ ١٧٣

٣٩٩ ٣٦٩ ٣٥٩ ٣٢٧

الفرنجية (انظر أيضاً : إفرنج) ١٧٤

فزارة ٢٨٤ ٣٠٣ ٣٩٨ ٣٩٩

بنو فقيم ٤٠٣

فهر ٧٥ ٧٧ ٧٨ ١٣٨ ٣٨١

ق

القرامطة ٢٠٩

قريش (القرشيون) ١١ ٢١ ٢٥ ٣٢

٥٧ - ٦٢ ٦٤ - ٦٦ ٦٩ - ٧٢

٤٩ ٧٣ - ٧٤ ١٢٣ - ١٣٦

١٣٨ - ١٤٠ ١٤٣ - ١٤٥

١٥١ - ١٥٧ ١٥٩ - ١٧٠

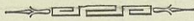
مزينه ٣٨٩	كليب ٣٧٨ ٣٨٥ ٣٨٦
بنو المستكبر ٢١٨ ٢٠٧	كنانة ٦٢ ٧٠ ١٤٨ ١٥٣-١٥٧
آل مسروق بن وائل الحضرمي ٢٤٠	١٥٩ ١٩٦ ٢٦١ ٢٧٠ ٢٧٢
المصطلق ٢٥١	٢٩٧ ٣٨١
مضر ٦١ ١٤٧ ٢٠٦ ٢٠٩	كندة ١٨٥ ٢٤٠ ٢٨٤ ٣٠٤
٢٦٩ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨٦	
معد ٧١ ٣٨٢	
المعينون ١٧	بنو لام ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٥
مغاربة ١٧٣	بنو لجأ ٣٧٩
بنو المغيرة ٤٨ ٥٢ ١٥٨	لحم ٣٢٦
المناذرة ٣٢٦ ٣٣١	
بنو منقر ٣٧١	
المهاجرون ٣٦٢	
مهرة ١٨٥ ٢٣٠ ٢٣١	مازن ٢٦٥ ٣٦٥
٢٨٢ ٢٨١ ٣٠	بنو مالك ٢٢ ٢١٣ ٢١٧ ٣٩٩
	بنو مجاشع ٣٧٧
	بنو محارب بن خصفة ٢٨٦ ٣٠٣
	بنو مخزوم ٨٨ ٠٢ ٩٣ ١٢٥
	١٥٦
بنو ناجية ٣٧٧	بنو مدركة بن خندف ٢٦٠
النبط (انظر: الأنباط) ١٨٣ ٣١٢	مذحج ٢٥٤ ٢٦٧ ٢٦٩ ٣٢٦
٣٢٦	مرة ٣٠٣
نزار ٢٩٣	مزاحم ٣٨١
بنو نصر ١٥٦ ٢٥٠ ٢٦١ ٢٧٢	المزون ٢٨٢
٣٠٤	

ل

م

ن

٢٥١ ٢٥٠ ١٥٩ ١٥٧-١٥١	٣٢٣ ٢٠٧ (في الحيرة)
٢٦٧ ٢٦٦ ٢٦٣ ٢٦١ ٢٥٥	٣٢٦
٢٧٢ — ٢٧٠	بنو النضير ٣٠٧
٤٠١ هند	٣٨٨ ٣٨٧ غمير
	بنو نهشل ٤٠٣
ي	نوفل ٩٢ ١٤٢ ١٤٣
٢١٧ محمد	
٣٧٧ بنو يربوع	ه
٣٠٠ يشكر	١٢١ ٩٤ ٩٢ ٨٥ ٧٩ هاشم
٢١ ٢٠ اليمينيون	١٣٨
٤٠٢ ١٠ بونان	٢٦٥ الهجيم
١٠٨ ٥١-٤٧ ٣٣ ٢٠ ١٩ يهود	٣٨١ همدان
٣٠٧ ٣٠٦ ١٠٩	١٤٨ ١٤٤ ٦٩ ٥٧ هوازن



فهرس مصادر الكتاب (١)

٢٣٦ ٢٣٥ ١٤٥ ٢٣	الإكليل	٢٥١
١١٠ ٨٣ ٧٠ ٢٩ ٢٨	الأمالي	٢٥٢ ٢١١ ١٦٩ ١٦٨ ١٢٩
٣٧٢ ٣٦٩ ٢٦١ ٣٢٨	أبطال الضبي	٢٨٣
	أنساب الأشراف	
ب		
	البخلاء	٣٥١
٣٥٢ ٣٥١ ٢٤	البلدان	
١٤٥ ١٢٥ ٩٥	بلوغ الأرب	١٨٠
٢٩٤ ٢٤٧ ١٨٠	البيان والتبيين	٢٧٤ ٣٦١ ٣٦٧
ت		
٨٠ ٤٠ ٣٥ ٢٨	تاج العروس	٢٠٨ ٢١٦ ٢٣٢ ٢٣٧ ٢٩٦
٣٥٢		
٣٥٠	أحسن التقاسيم	
	الأخبار الطوال (للدبنوري)	
١٧٥ ٦٥	أخبار مكة (للزرقى)	٢٩٨ ٢٩٦ ٢٢٤
٣٥	الازمنة والأمكنة (للعزوقى)	٦٦ --- ٦٨ ١٨٠ ٢٠٤ ٢٠٧
٢٠٧ ٢٠٤ ١٨٠ ٦٨ --- ٦٦		٢٨١ ٢٤٨ ٢٣٨ ٢٣٣ ٢٢٧
٢٨١ ٢٤٨ ٢٣٨ ٢٣٣ ٢٢٧		٤٠٨ ٣٢٢ ٣٢٠ ٢٨٤
٤٠٨ ٣٢٢ ٣٢٠ ٢٨٤	أساس البلاغة (للزمخشري)	٤١
٤١	الإسلام والحفارة العربية	
	الأصنام	٧٠
	الأغاني	٩٩ ١٠٢ ١٠٧ ١٠٩
١٠٩ ١٠٧ ١٠٢ ٩٩		١١٠ ١١١ ١٤٥ ١٤٧ ١٥٢
١١٠ ١١١ ١٤٥ ١٤٧ ١٥٢		١٧٠ ٢٠٥ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١٢
١٧٠ ٢٠٥ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١٢		٢٤٥ ٢٤٦ ٣٠١ ٣٣٥ - ٣٣٨
٢٤٥ ٢٤٦ ٣٠١ ٣٣٥ - ٣٣٨		٣٨٢ ٣٧٧ ٣٦٨ ٣٦١ ٣٤٠
٣٨٢ ٣٧٧ ٣٦٨ ٣٦١ ٣٤٠		٣٩٨ ٣٨٤

(١) تشير الأرقام إلى مواطن الاستشهاد بالمصدر في هذا الكتاب

ج

جمهرة أشعار العرب
الجمهرة لابن دريد ٤١

ح

حضارة العرب

خ

خزانة الأدب ٧٦ ٧٧ ١٥٥ ١٨٠
خطط الشام ٣١٣

د

دائرة معارف وجدي ٢٩٤ ٢٩٥
دلائل النبوة ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٩

ر

رحلة ابن بطوطة ٣٥٠
رسائل الجاحظ ٧٩
رياض الصالحين ٢١٤

ز

زهر الآداب ١٢٢ ٣٤٧
الزواجر لابن حجر ٥٤

تاريخ الادب العربي ٢٩٤

تاريخ التمدن الإسلامي (لزيدان)

تاريخ الخلفاء الراشدين (للنجار)

تاريخ الذهبي

تاريخ الطبري ١٠٦ ١٩٩ ٣٢٤

٣٢٥ ٣٢٨ ٣٦٢

تاريخ العرب الأدبي نيكلسون ١٨ ٩٠

تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٩

تاريخ اليعقوبي ١٨٠

تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٠

التبصر في التجارة

تفسير أبي الحسن البكري ٢٣٩

تفسير الخازن ٥٠ ٥٢

تفسير الطبري ٥٢ ٥٤

تفسير النيسابوري ٧١

التنبيه والاشراف

التوراة ١٧

تيسير الوصول

ث

ثمار القلوب للثعالبي ٢٢ ١٢٢ - ١٢٤

٢٣١ ٢٨٢ ٣٥٨

* * *

س

مبائك الذهب

سيرة ابن هشام ٢٣ ٥٠ ٥٨ ٧٧

٧٨ ٨١ ٨٢ ١٢٧ ١٣٨

١٤١ ١٧٢ ١٩٦

ش

شرح مسلم ٣٥ — ٤٠

شرح المواهب (للزرقاني) ١٩ ٧١

١١٢ ١٩٨

شرح نهج البلاغة ٢٧ ١٢٧ ١٣٢

١٤١

الشعر والشعراء (لابن قتيبة)

ص

صبح الأعشى ١٨٠

الصحيح ٤٠ ١٩٥ ١٩٦

صحيح البخاري (ليدن) ٤٠ ٤٣-٤٥

١٧١ ١٧٢ ١٧٥

صحيح مسلم ٣٧ ٤٠

صفة جزيرة العرب ١٨٠ ٢١٧ ٢٢٦

٢٣٠ ٢٣٦

ص

ضحى الإسلام ٣٦٨

ط

طبقات الشعراء (لابن سلام) ١٠٥

الطبقات الكبرى (لابن سعد) ١٩

٢٢ ٨٣ — ٨٥ ٨٧ ٨٨ ١١٧

٨ ١ ١٢٣ ١٢٨ ١٣٢ ١٣٩

١٩٦ ٣١٦

الطبوغرافيا الأثرية لسورية وفلسطين

(لدوسو: بالفرنسية) ٣١٩

ع

عجائب المخلوقات ٢٣٩

العرب وأطوارهم

العقد الفريد ٧٧ ٩١ ٩٢ ١٠٨

١١١ ١٢٠ ١٤٥ ١٤٦ ٢١٥

٢٧١ ٣٤٩

عيون الأخبار (لابن قتيبة)

ف

الفائق (للزمخشري) ٤١

فتح الباري (لابن حجر)

٣٠٨ ٢٠٨ ٨٠

فتوح البلدان (للبلاذري) ٤٨ ٣٤٥

فجر الإسلام ٢٣

م

مارأيت وما سمعت (للزركلي) ٢٤٨

مجلة الرسالة ١٨ ٩٠ ٢٩٥

مجلة المجمع العلمي العربي ٣٥٠

مجلة المشرق ٩٢

مجمع الأمثال (للميداني) ٢٥٤

المجمل (لابن فارس) ٤٠

الحاسن والأضداد للجاحظ

محيط المحيط ٤١

الخصص (لابن سيده) ٤٢ ١٨٤

مدنية العرب في الجاهلية والإسلام

٢٥٠ ١٠٩

مراسد الاطلاع ٢٠٣ ٢٢٠ ٢٤٩

٢٥٠

مسالك الأبصار ٢١٣ ٣١٤ ٣٢٩

مسالك الممالك للإصطخري ٢١٦

٢٣٧ ٢٣٠ ٢٢٥

المسالك والممالك (لابن حوقل) ١١١

المصباح المنير ٤١ ٧٧

ق

القاموس ٢٢ ٣٦ ٣٨ ٤٢ ٥٧

١٣٤ ١٣١ ١٢٤ ٧٧ ٦٣

٢٧٣ ٣٤٨ ٣٢٢ ١٤٦ ١٣٩

القرآن الكريم^(١) ٢٤ ٢٥ ٣١-٣٣

٤٨ ٥١ — ٥٤ ٥٩ ٦٤ ٧١

١٢٦ ١٢٤ ١٢٣ ١١٧ ١١٦

٢١٨ ١٧٥ ١٧٣ ١٧٢ ١٣٣

٣٦٧ ٣٦٤ ٣٦٣ ٣٠٥ ٢٣٩

٣٦٨

ك

الكامل: لابن الأثير

الكامل للبرد ٣٦١

الكشاف ٢٣٢

ل

لسان العرب ٢٨ ٣٥ ٤٠ ٧٦

(١) ثبت هنا مواضع الاستشهاد بالآيات الكريمة وإن لم يرد قبلها اسم

القرآن الكريم .

ن

النقائض ٣٧٣ ٣٧٩

النوادر ٢٩ ٩٠

النهاية (لابن الأثير) ٩ ٤١ ١٩٥

نهاية الأرب (للنويري)

و

الوسيط ٢٩٤

معجم البلدان لياقوت (انظر ياقوت)

٢٢٤ ٣٥٨

معجم ما استعجم للبكري ٢٤٩



فهرس الأشار

صدر البيت	ص	الثافية	ص	الثافية
واذكروا حلف ذي الجار وما	٣٠٠	الكفلاء	٣٠٠	٣٨٥
١				٣٣٧
٢				٣٢٥
٣				٣٨٨٤٣٨٧
٤				٣٩٥
٥				٢٥١
٦				٣٧٧
٧				٨٩
٨				٢١٧
٩				
١٠				
١١				
١٢				
١٣				
١٤				
١٥				
١٦				
١٧				
١٨				
١٩				
٢٠				
٢١				
٢٢				
٢٣				
٢٤				
٢٥				
٢٦				
٢٧				
٢٨				
٢٩				
٣٠				
٣١				
٣٢				
٣٣				
٣٤				
٣٥				
٣٦				
٣٧				
٣٨				
٣٩				
٤٠				
٤١				
٤٢				
٤٣				
٤٤				
٤٥				
٤٦				
٤٧				
٤٨				
٤٩				
٥٠				
٥١				
٥٢				
٥٣				
٥٤				
٥٥				
٥٦				
٥٧				
٥٨				
٥٩				
٦٠				
٦١				
٦٢				
٦٣				
٦٤				
٦٥				
٦٦				
٦٧				
٦٨				
٦٩				
٧٠				
٧١				
٧٢				
٧٣				
٧٤				
٧٥				
٧٦				
٧٧				
٧٨				
٧٩				
٨٠				
٨١				
٨٢				
٨٣				
٨٤				
٨٥				
٨٦				
٨٧				
٨٨				
٨٩				
٩٠				
٩١				
٩٢				
٩٣				
٩٤				
٩٥				
٩٦				
٩٧				
٩٨				
٩٩				
١٠٠				

صدر البيت	الغافية	ص
فلا والله لا ألقي وشرباً فلا ولدت بعد الفزوق حامل وبالجليرة البيضاء شيخ مسلط	حيث تبات برت	١٧٠ ٣١٠ ٣٣٦
أمي باني الأسكر بن مدح	٠٠	٢٥٥
ومن بك مثلي ذاعبال ومقترأ	مطرح	٣٠
أبكي أبي عمراً بين غزيرة أبي عميد الأبطعين كيهي	هجوردا يريدها	٢٥٩ ٢٦٠
صدر البيت	الغافية	ص
أكلتم أرضنا فغير دتموها ألم يبلغكم أنا جدعنا إن الفساة قبلنا إباد	حصيد بالتقاد نكاد أود	١٧٤ ١٥٥ ٢٨٢ ٣٨٣
أني لفاض قضا سوف يتبعه أيا رفقة من آل بصري تحملت تعدون قتلاً في الحرام عظيمة	رشد راشد	٣١٦ ٥٩
زر وادي القصر نعم القصر والوادي فأبلغ إن عرضت بنا هشاماً لما رأت جعدة منا وردا	الوليدا ٠٠	٣٥٣ ١٥٤ ٣٨٢
له داع بككة مشعمل مات الندى بالشام لما أن ثوى بنت أن بني ربيعة أجهوا	بنادي لا يبعد خالدا	١١٠ ٨٨ ٣٩٨
ووشان الدين هم استنبوا	البلاد	٢١٧

ج - ن

ح

د

صدر البيت	القافية	ص
وہیجنتی من آذرعاً وما أرى	بعدا	۳۲۱
أبوكم قصي كان بدعي مجمًا	فهر-	۷۵
إذا ذقت فاما قلت طعم مدامة	التجبر	۷۴
ألم يباغاك ما فعلت قريش	أبورا	۱۵۶
ألمی قصيًا عن الجحد الاساطير	• •	۱۰۶
أنا أذیناک وقد طال السفر	• •	۳۹۵
بدأنا بجمع الصغرين فلم ندع	الناخر-	۳۱۶
بقبر ابن ابلی غالب عذت بعدما	قسر	۳۷۱
نذكر القلب وجهلا ما ذكر	• •	۳۹۳
ذربني للهني أسى فاني	الفقر	۳۰
سأكسب مالا أر أموت ببلدة	قبري	۳۰
شيطانه أني وشيطاني ذكر		
شهدت على الزبدي أن نساءه		
فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم		
فخللت معنالج البطاح		
فسر في بلاد الله والشمس الغنى		
فلما اجتمعنا بالعلالي بيننا		
فما إن رحيق سبتها التجار		
في الداهيين الأول		
قد جبر الدين الإله فجبر		
لقد كذبت وشر القول أ كذبه		
لنا الجنات الغر بلمن بالضحى		
منا الذي ترك العوام مجندلا		
نبئت زرة والسفاهة كانهما		
شيطانه أني وشيطاني ذكر		
شهدت على الزبدي أن نساءه		
فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم		
فخللت معنالج البطاح		
فسر في بلاد الله والشمس الغنى		
فلما اجتمعنا بالعلالي بيننا		
فما إن رحيق سبتها التجار		
في الداهيين الأول		
قد جبر الدين الإله فجبر		
لقد كذبت وشر القول أ كذبه		
لنا الجنات الغر بلمن بالضحى		
منا الذي ترك العوام مجندلا		
نبئت زرة والسفاهة كانهما		

صدر البيت	الثافية	ص
وَأَزْدَ لَهَا الْبَحْرَانِ وَالسَّيْفُ كُلَّهُ وَأَعْصَفْنَ بِالْدَّوْمِيِّ مِنْ رَأْسِ حَصْنِهِ وَإِنْ صَخْرًا نَأْتُمُ الْهَدَاةَ بِهِ وَرَبْتَ غَارَةً أَرْضَعَتْ فِيهَا وَلَا مَرْتَحَ لِلْعَيْنِ أَوْ مَتَقْنَصُ وَمَنْ يَرِ صَنْعَاءَ الْجَبُودِ وَأَهْلَهَا وَمَنَا رُبَيْسَ الْقَوْمِ لِبَلَّةٍ أَدْلَجُوا بِأَلِّ فُهِرٍ لِمُظْلُومٍ بَضَاعَتُهُ يَاتِنِمْ نِمْ عَدِي لَا أَبَا لِكُم بِصَاحِبِي دَنَا الْمَسِيرَ فُسِيرَا بِأَمِنْ رَأْيٍ كَهَفَقَةِ ابْنِ يَدْرِهِ	المشقر المشقر نار نحر نحر حميرا النحر والنحر عمر جزيرا ..	٢١٧ ١٩٩ ٢٧٥ ٢٠٨ ١٠٦ ٢٣٥ ٢٠٦ ١٣٨ ٣٧٩ ٣٨٥ ٢٨٢
صدر البيت	الثافية	ص
	ز	٢٦٨
	س	٣١٧
	ص	٨٤
	ط	١٦٠
	عيطا	١٦٠
	نركت الفارس البذاخ منهم	١٦٠
	***	١٦٠

صدر البيت	الثافية	ص
إذا من مبلغ حسان عني سأُنشر ما حيت لهم كلاماً فإنك ضحكك إلى كل صاحب	عكاظ عكاظ عكاظاً	٢٩١ ٢٩١ ٢٩١
إذ طلعتنا نقيط السود لاح لنا حتى كأنني للحوادث صرورة سائل بنا في قو منّا كان الإثمد الحاراري منها وداهية جهال الناس منها	ع مستنقع تقرع معاذ الدويع ضلوعي	٢٣٦ ٢٠٤ ١٦١ ٣٢٥ ١٤٩
جاءت هوازن أرسالاً وإخوتها جيسن بين رمله وقف زعمتم أن إخوتكم قریش عكرو العلاء هشم الثريد لقومه غضبت علي لان شربت بصوف نحن بنو دهمان ذي التعطرف نحن بنو مدركة خندف والخالطون غنيمهم بتقيرم يا أيها الرجل الجول رحله	الاولف وانصرفوا ٠ الاف عجاف ٠ ٠ ٠ كالكافي مناف	٢٩١ ١٥٧ ٢٠٩ ١٢٧ ٨٤ ١٦٨ ٢٦١ ٢٦٠ ١٢٥ ١٢٧

صدر البيت	الغافية	ص
ألا بشرا من كان لا يملك اسمه	المطاول	٣١٦
ألا كيف البقاء لباهلي	سبيل	٣٣٠
ألا لله قوم و... لدت	قليلا	٣١٠
ألا إياها الناهي فزارة بعد ما	باطله	٣٧٨
ألسنا الناسئين على معد	فيحالا	٣٨٣
ألمت خناس والمأماها	الجليل	٢٩٩
أو كلما وردت عكاظ قبيلة	النعالي	١٠٧
توكت الشعر واستبدلت منه		
فلكم قریش لم تكن آباؤها		
دعوت سنانا وابن عوف دخلوا		
رأيت الخمر صالحة وفيها		
عابن فتية إن كساها محرق		
فلئن بيت لي المشقر في		
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والجبحيم-	
١٥٧	سهم-	
٣٩٨	حالم	
٧١	حراما	
٣٩٩	استأذنها	
٢٦٤	ينوسم	
١٧٠	قاما	
١٢٠	تنقسم	
٢٦٧	وهاشع-	
١٧٠	الكريرا	
٣١٨	وانعا	
٢٠٣	الاعم	
ص	الغافية	ص
صدر البيت	الغافية	ص
نظرت وطرف العين بنبع الهوى	المطاول	٣١٦
هل إلى سكرة بناحية الحيرة	سبيل	٣٣٠
هالك الفزدق بعد ما جمدته	قليلا	٣١٠
وإن كيا إذ انتني بعبدها	باطله	٣٧٨
وإني لقاض بين جعدة عار	فيحالا	٣٨٣
وراح بها من ذي الجاز عشيّة	الجليل	٢٩٩
ولا من في جنازتها تجار	النعالي	١٠٧
٣٨٥	نيام	
٣٧٥	والج	

صدر البيت	ص	النافيه	ص	صدر البيت
فما الأم التي ولد قريشاً لمعرك ما ضيبةً رططاً من « ما نقيم أهل فالج للغانيات بذبي الجاز رسومُ معي أكلت لجومكم كلابي من حسن لي الاخوان كالـ نحن آل الله في ذمته وإن قصياً أهل عز ونجدة وإني وإن ضربت جبال قيس وجدنا آل سامة في قريش وددت وبیت الله لو أن الله ولقد شربت من اللدامة بعد ما ولو أعطيت من بلاد بصرى	٧٨ ٣٨٩ ٢٩٩ ٣٨٢ ٢٥٩ ٩١ ١٦١ ٢٨٢ ٣٧٧ ٣٣٢ ١٦٨ ٣١٧	عقيم- سنام- كروم- • • تأم- راهما قدم قديراً تقيم تقيم- العظم- المعلم- وعجم	٢٨٠ ٢٦٤ ١٥٣	وما أنت إن فرما نقيم تساميا وما قصرت من حاضن دون سترها باشدة ما شددنا غير كاذبة
ن				
أحب عمان من جبي سايحي إذا اصطبعت أربعا عرفتني ألا سائل هو زن يوم لا قوا ألا هي بصحنك فاصبينا إني رأيت القائلين وفعمهم جعلت لمراف الجابة حكاية ذعرت به القطا ونصبت عنه سأعمل نص العيس حتى بكفني	٢١٦ ٣٩١ ١٥٧ ٢٩٢ ١١٠ ٣٠٨ ٢٨٤ ٣٠	عمان- • • معابينا • • الديان- شفايفي الديني- الحدشان	٢١٦ ٣٩١ ١٥٧ ٢٩٢ ١١٠ ٣٠٨ ٢٨٤ ٣٠	في الغرم ظالم- والحرم

صدر البيت	الفاقيه	ص	صدر البيت	الفاقيه	ص
لولا أبو مالك المرجو فأنله لولا دفاعي كنتم أعبدا لو يسمعون أكله أو شربه واعلم أن ستدر كني الدنيا وغزا تبع في حيدر حتى	لولا فأسيلحون بعان تبعني عدن	٣٥٠ ٣٢٢ ٢١٨ ٣٩٥ ٣٢٦	وقائلة هلم إلى النصابي	تصاحبنا	١٧٠
			ي	يأينا	٣٧٢



استغنيننا عن ذكر الفاقيه في الأبيات المصروعه وفي الرجز

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب : معارض الشام — سبب تأليف الكتاب	٣

الباب الأول

١٣

شؤون العرب التجارية : بين الجاهلية والإسلام

١٥ تهديد : في تجارة العرب

٣٤ بيع الجاهلية

الرمي بالخصاء — ٣٦ : المنابذة — الملامسة — ٣٧ : المعاومة —

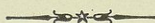
٣٨ : المزانية — المحاقلة — المخابرة — ٣٩ : حبل الجبله — ٤٠

: التصرية — السرار — ٤١ : الناجز — موقف الإسلام من

هذه البيوع

٤٧ ربا الجاهلية

٥٧ المحلون والمحرمون والخمس



الباب الثاني

الموضوع	الصفحة
أحداث قريش التجارية :	٧٣
١ - قريش التجار . اسم قريش - سادة قريش - الوظائف الرسمية لقريش - ٩٤ : عامة قريش .	٧٥
ب إيلاف قريش	١٢٣
ج - حلف الفضول	١٣٦
د - حرب الفجار	١٤٤
سنتها - ١٤٧ : سبها - ١٥١ : يوم نخلة - ١٥٣ : يوم شمطة - ١٥٥ : يوم العباء - ١٥٦ : يوم شرب - ١٥٩ : يوم الحريرة	١٤٦

الباب الثالث

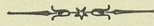
١٦٣

أسواق العرب ١ - في الجاهلية ٢ - في الإسلام	
١٩٣ أسواق العرب ١ - في الجاهلية	
١٩٥ سوق دومة الجندل	
٢٠٣ سوق المشقر	
٢٠٨ سوق هجر	

الصفحة	الموضوع
٢١٦	سوق عمان
٢٢٢	سوق حباشة
٢٢٥	سوق صحار
٢٢٨	سوق دبا
٢٣٠	سوق الشحر
٢٣٢	سوق عدن آيين
٢٣٥	سوق صنعاء
٢٣٩	سوق حضرموت
٢٤٢	سوق عكاظ
٢٥٤ : منافرة — ٢٥٦ : في سبيل بغي — ٢٥٧ : خطة غدر —	
٢٥٨ : معاطمة في المصائب — ٢٦٠ : الفجار الأول — ٢٦١ : ظفر	
بثأر — ٢٦٣ : سيف بثأر لصاحبه — ٢٦٤ : شريف غير مقنع	
— ٢٦٥ : تأديب سفيه — ٢٦٦ : إتاوة — ٢٦٧ : إغاثة — ٢٧٠ :	
حروب الفجار — ٢٧٢ : واعظ — ٢٧٥ : تنافس شعراء — ٢٧٦ :	
ترويح بنات — ٢٧٨ : منحة محررة — ٢٨١ : صفقة خاسرة —	
٢٨٣ : فتنة جمال — راية غدر — ٢٨٥ : داعية الإسلام — ٢٩٠ :	
خمر — تلقيب	
٢٩٦	سوق مجنة
٢٩٩	سوق ذي الحجاز

الموضوع	الصفحة
نطاة خبير	٣٠٦
سوق حجر	٣٠٨
سوق بصرى	٣١٢ ✓
سوق دير أيوب	٣١٩
سوق أذرعات	٣٢١
سوق الحيرة	٣٢٣ ✓
٣٣٢ : منافرة حامية — ٣٣٥ : حرمة شاعر في ولده — ٣٣٦ :	
حلق لمة — ٣٣٧ : خمارة وشرطي — ٣٣٨ : وطنية صادقه	
٣٤١ أسواق العرب : ب — في الإسلام	
٣٤٣ الأسواق في الإسلام	
٣٤٥ البصرة — المربد	
٣٥٦ سوق المربد	
٣٧١ : عوذ بقر — ٣٧٢ : مجنون في حب — إنيهاب مال — ٣٧٣ :	
تهديم دور الهجائين — ٣٧٤ : هجاء ابليس — ٣٧٦ : جرير يهجو	
قبيلة — ٣٧٨ : والفرزدق لعبة — ٣٧٩ : ضحية بين فحلين —	
٣٨١ : الحكم في تنافر شاعرين — ٣٨٣ : نقد سخف — ٣٨٥ : إعدام	
قبيلة — ٣٨٩ : ردعدوان — سلاطة — ٣٩١ : معركة الرجاز	
— ٣٩٤ صحابي بكتاب نبوي — ٣٩٦ من محن السياسة —	
٣٩٩ : استعراض الأمم — ٤٠٢ : إعلان مجلجل	

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
استدراكات	٤٠٥
فهارس الكتاب	٤١١
فهرس الأعلام	٤١٣
فهرس الأماكن	٤٢٩
فهرس الأسر والأمم وما بينهما	٤٣٩
فهرس المصادر	٤٤٧
فهرس الأشعار	٤٥٢
فهرس الموضوعات	٤٦١

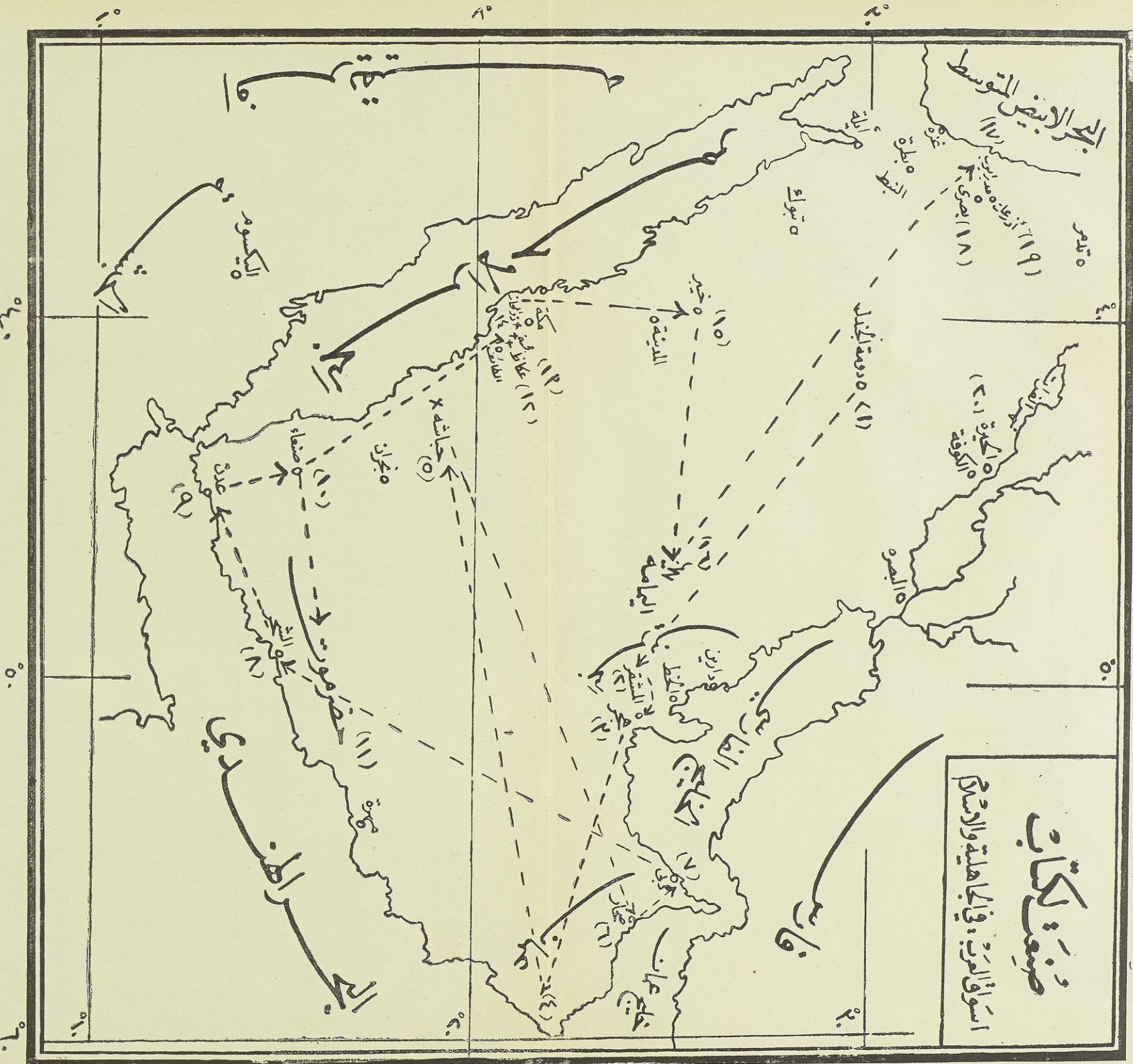


تم طبع هذا الكتاب

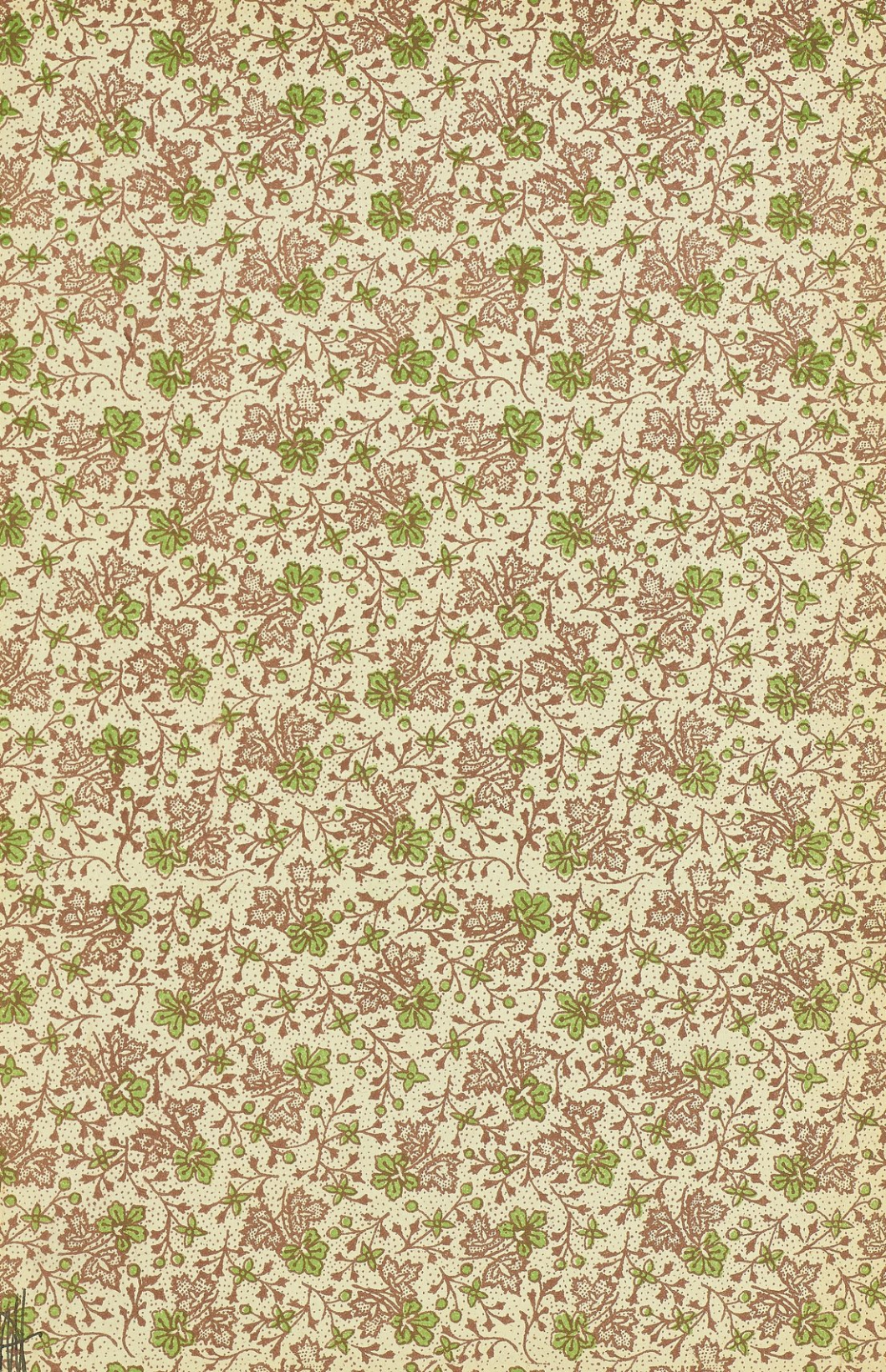
في ٢٩ صفر سنة ١٣٥٦ و ١٠ مايس سنة ١٩٣٧

ادارة المطبعة الراسمية

صنعت الكتاب
أسواق العرب، في الجاهلية والإسلام



الانتقال بين الأسواق بدلالة الأرقام والخطوط ابتداء من دومة الجندل



10282610

AN 17 1977

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU52809129

HF5475.A41 A8

Aswaq al-Arab fi al-